مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

الجزء الرابع

طبعة جديدة مصححة

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الاولى
١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد:طريق المطار خلف اوتيل الغولدن بلازا

هاتف 009611540000 /009611455559 فاكس:009611850717

Email: darturath2012@hotmail.com

يطلب من

مكتبة القيروان العراق-كركوك شارع المتنبي -قرب سوق السراي موبايل:009647707152384

مكتبة امير كركوك عمارة خان الكبير -الطابق الأرضي موبايل:009647702304025

amirmaktaba@yahoo.com

تتمة سورة الأعراف

الجزء التاسع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: جملة مستأنفة لجواب سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل: فماذا قال كبراء قوم شعيب له بعد أن أعلَن أنه لا ينفك عما هو عليه ويعد أتباعه ويتهدد أعداءه؟ فأجيب بأنه ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ ولهم المجلس والمقام والقوة والكلام بصراحة ووقاحة: والله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ ولا نبقي منكم أحداً، فلا بد إما أن تخرجوا منها ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ كلكم ﴿فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ وآدابنا المعلومة مِن عبادة الأوثان ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾؟! الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، والواو حالية. ومعناها: وهل يجب أن نعود إلى ملتكم الباطلة، والحال أنا لها كارهون ولا يمكن اجتماع الكره للشيء مع العود إليه بإيمان وإذعان؟!

والحاصل: إن إخراجكم لنا والخروج منا عن البلدة أمر ممكن معقول، ولكن العود إلى ملتكم مع الكره لها ممتنع. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ ونور قلوبنا بأنوار الإيمان بوجود الباري ووحدته وصفاته، لأنا بعد هذا التنوير والتبصير إذا عبدنا الأوثان وقلنا: إن الله راض بعبادتها معه فقد جئنا بكذب مُفترىً عليه سبحانه وتعالى علواً كبيراً ﴿وَمَا

يَكُونُ لَنَآ﴾ وما يصح وما يقع ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي في تلك الملة الفاسدة في حال من الأحوال أو وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أن يضلّنا بعد أن هدانا للإيمان فإنه مالِك الملك وملك الملوك لا يسأل عما يفعل ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فهو أعلمُ العالمين وأحكم الحاكمين و﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في تثبيتنا على ما نحن عليه من الإيمان وحفظنا عن الركون إلى أهل الكفر والعدوان.

ثم لما تكدر قلبه واغبر صدره بهذه المناقشات مع الملأ المستكبرين من القوم الكافرين رجعَ إلى ربه بالدعاء والإبتهال وقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي: افصل بيننا وبينهم ﴿بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ بين الصالحين والطالحين والحمد لك يا رب العالمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون الملأ فيه عين الملأ المذكور، وأعلن عنهم سابقاً بالاستكبار الذي ينشأ منه الكفر والدمار، ولاحقاً بما نتج من استكبارهم وهو الكفر بالله الواحد القهار، ويحتمل أن يكون غير ما مر. وعلى كل فالكفر ملة واحدة. وخلاصة قولهم إعلان البراءة من شعيب ودينه، حيث أقسموا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ في هذا الاتباع الشبيه بالابتياع باستبدالكم الضلالة بالهدى. ولما استقاموا على هذا الضلال ولم يبق مجال لاتباع شعيب عليه السلام أصْدَر اللَّهَ أمراً بإبادتهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وأتتهم الزلزلة، وانهدمت عليهم بيوتهم، وانقلب المكانُ غير المكان. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ هامدين أجساداً لا حياة فيها ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأنهم لم يقيموا في دورهم حيث ماتوا وانقطع ربطهم بها ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾؟ أي لقد جاهدت واجتهدت بمقدار طاقتي في إبلاغ رسالات الله، ووعظتكم ونصحت لكم، ولكن كفرتم بما ألقيته لكم فلم يبق لي وسيلة إلا صرفتها في إرشادكم وما أثرت فيك لكفركم فكيف آسى وأتأسف على قوم كافرين؟.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ بيان إجمالي لأحوال الأمم العادية الطاغية التي أرسل الله إليها الرسل لإرشادها وردها من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى الهدى أنه لم يفاجئها بالإهلاك والتدمير، بل أرشدها ونورها، وعند كفرها وإعلانها العناد عاجلها بمحن دون الاستئصال فيقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ أين كانت القرية ومتى ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ بعد التمرد ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: البؤس والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: بالضرر والمرض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ويبتهلون إلى الله تعالى، ويتوبون ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ ثم بدلنا البؤس والمرض بالمال والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي ازدادوا في أنفسهم وأموالهم، ﴿وَّقَالُوا﴾ بدل أن يقولوا الحمد لله على هذا التبديل الجميل والفضل الجزيل: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ على ما جرت به العادة في أهل الأرض من سالِفِ الأزمان ﴿فَلَمَّآ﴾ أدركنا منهم ذلك اللجاج واللوم وكفران نعمة الصحة والمال بعد الفقر والمرض وسوء الحال ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ ألزمناهم البلاء المبيد مفاجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، ولا يتصورونه قطعاً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾ بما أنزل على أنبيائهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ وجوه الشقاوة

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لفتحنا عليهم نزول الأمطار الوابلة وسائر الأرزاق النازلة كالمن والسلوى، وأخرجنا لهم من الأرض أنواع الناميات للاقتيات والتفكه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ولما علمتم بسنتنا السنية في الخليقة. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الباقية الغير المدمرة أو المعمورة بعد التدمير ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقت بيات ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: لا مجال لأهل العقل والمعرفة أن يتمرد ويصر على تمرده ويأمن مكر الله وعذابه لا ليلاً ولا نهاراً ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الذين خسروا أنفسهم فأضاعوا فطرة العقل السليم وقبوله للإيمان بما يجب الإيمان به والتطبيق للأحكام العملية الموجبة للخلاص. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ معناه أو لم يرشد الله تعالى أنهم الذين يرثون الأرض من بعد أهلها وهم آباؤهم السابقون أن لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؟ النصائح حقاً حتى يستفيدوا منها.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: قرى الأمم المذكورة من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ ما يوجب العظة والاعتبار لأولي الأبصار ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ معناه فلم يصح منهم الإيمان بسبب شؤم تكذيبهم بآيات الله من قبل رؤية تلك المعجزات ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا يدخلها النور ولا الشعور. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ﴾ يوفى به ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ معناه وإنه وجدنا أكثرهم خارجين عن إطاعة رب العالمين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ يعني بعثنا موسى بن عمران بن يصهر

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ التسع ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وأهل مجتمعه والشعب القبطي، كما أرسلناه إلى بني إسرائيل. وفرعون: لَقَب لكل من ملك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب مَنْ ملكَ فارس، وقيصر لقبٌ من ملك الروم، والنجاشي لقب من ملك الحبشة، وتُبع لقب من ملك اليمن. واسم فرعون الوليد بن مصعب بن الريان ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: الآيات أي كَفروا بها ولم يعترفوا أنها من المعجزات المخلوقة لإثبات دعوى موسى الرسالة من الله تعالى بل جعلوها سحراً، وظلموا أنفسهم برؤيتها حيث كان الواجب الإيمان بها والاستفادة منها، فعاملوا بخلاف ذلك وتشددوا في الكفر والطغيان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخر أمرهم وجاء بالإظهار في موضع الإضمار للدلالة على أن أساس سوء عاقبتهم هو الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليكم، وما دام أنا رسوله المرسل إلى ملك جبار شديد ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فإن الحديد لا يفله إلا الحديد، فكلما كانت الأمة غامرة في الضلال وَجَبَ أن يكون الرسول في أوج القوة والكمال، فلا يماري ولا يجامل مجاملة توجب وهناً في الدين، وإنما يبين ما هو الحق ليفهمه الخلق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بمعجزة شاهدة ومبينة لرسالتي ومهمتي بعد دعوتكم إلى الله أن يطلق سراح بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خلهم حتى يأتوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي موطن آبائهم ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ تشهد لك على دعواك ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ فأظهرها لِنُبصِرها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في أنك جئت بها ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: هي حيّة من الحيايا المهولة المهيبة، وتوجهت نحو فرعون فخافها وانهزم منها وانهزم الناس من حوله مزدحمين ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: من جيبه أو من تحت إبطه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

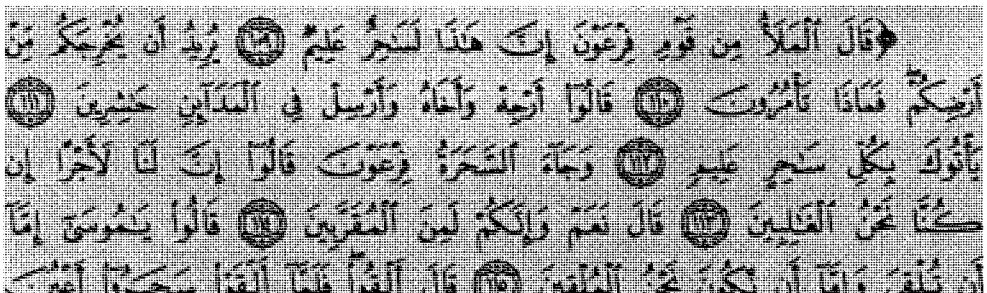
﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ
أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ

ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ في سورة الشعراء ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشعراء: ٣٤] وهو صريح في أن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قول فرعون والآية هنا صريحة في أنه كلام الملأ وأجيب بأن: الكلام قاله فرعون ابتداء، ثم قاله الملأ بطريق الحكاية أو التبليغ عنه ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ماهر فنان ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: أرضِ مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: تشيرون في أمره. والآية دالة على أنّ المخاطبين كانوا أهل المشاورة من أهل مجلس الشورى والأعيان. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: المستشارون لفرعون مباشرة أو بواسطة السائلين: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخر موسى وأخاه ولا تهتم ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ مأمورين ﴿حَٰشِرِينَ﴾ للسحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ في فن السحر فذهب المأمورون وجمعوا سحرةَ البلاد ويدل قوله ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ على أنه أراد فرعون قتلهما أولاً، لكنه نهى المستشارون عن ذلك لقضاء الله وحكمته.

تنبيه: قراءة حفص هنا (أَرجِه) بكسر الجيم وسكون الهاء، وأصله أرجئه، أمر للمفرد المذكر المخاطب من باب الإفعال من الإرجاء بمعنى التأخير، قلبت الهمزة ياء لسكونها وكسر ما قبلها، ثم حذفت الياء تشبيهاً بالناقص، وإن كان خلاف القياس، لأن الياء المبدلة من الهمزة لا تحذف بالجازم، ولا في صيغة الأمر كما قاله الجلال السيوطي في فريدته في بحث الإعراب التقديري بقوله: (والهمزة إن أبدل لينا). والهاء ضمير «منصوب راجع إلى موسى عليه السلام، وإنما أسكن مع أن هاء السكت هي التي تسكن وهاء الضمير لا تسكن تشبيهاً لحال الوصل بالوقف، أو لأنه كانت مكسورة ولما ارتبطت بالواو العاطفة في قوله تعالى وأخاه صار (جِهِ وَ) بجيم وهاء مكسورتين بعدهما واو على وَزن (إِبِل) والقاعدة إذ ذاك جواز إسكان العين فكأن الجيم فاء الفعل والهاء عين الفعل والواو لام الفعل هذا.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد دعوة المأمورين بلا تردد، وإذا سألت أنهم ماذا قالوا عند لقاء فرعون؟ فالجواب: أنهم على اعتمادهم بقوة تفننهم في السحر ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: جاهاً ووجاهة منك ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ قَالَ﴾ فرعون:

﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ حين ذلك ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي وتعدون من ملأي ولا شك في وفرة نيلكم المادي بالطريق الأولى. فلما أطمأنت قلوبهم من جهة الأمل توجهوا إلى مجال العمل وواجهوا موسى عليه السلام و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما عندك قبلنا ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ قبلك ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام كرماً واعتناء أو ازدراء لهم وعدم مبالاة بهم ﴿ألْقُوا۟﴾ ما عندكم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: حولوا أعين الناس إلى ما أظهروه ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ بالنسبة إليهم. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ في ذلك الوقت الذي كان يرتعب منهم لولا وقايتنا: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حيّة لها حيويتها ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ وتبلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يزورونه من الأمور التي لا حقيقة لها.

روي أن سحرة فرعون ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً، وذلك لأنهم لونوها وجعلوا فيها زئبقاً فلما أثر تسخين الشمس فها تحركت والتوى بعضها ببعض فتخيل الناس ما تخيلوا. ولما قابلهم موسى بإلقاء عصاه وصارت حية تبتلع ما عملوه أقبلت على الحاضرين فَهَربوا وازدحموا ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: فثبت الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من أسباب المعارضة ﴿فَغُلِبُوا۟﴾ أي: سحرة فرعون ﴿هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أذلاء مبهوتين ممقوتين. ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لله تعالى وعظمته يعني فخرّوا ساجدين له تعالى. لكنه لما كان الخرور شيئاً ناشئاً من نفسيتهم المبهوتة، فكأنهم ألقوا على الأرض مضطرين ولما خرّوا ساجدين قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون الذي يعلو ولا يعلى ويغلب ولا يغلب.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ولما علم فرعون بهذا البهت والمغلوبية واطلع على سجودهم لله تعالى وكان ذلك مخالفاً لهيبته المزعومة وفرعنته المشؤومة ﴿قَالَ﴾ فرعون مستنكراً ذلك:

﴿ءَامَنتُمْ﴾ أيها السحرة ﴿بِهِۦ﴾ أي: برب العالمين ﴿قَبْلَ أَنْ﴾ تطلبوا مني الرخصة و﴿ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا﴾ الحادث الواقع أولاً وتالياً ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ومصر وما والاها ومؤامرة تآمرتم عليها ﴿لِتُخْرِجُوا﴾ أنتم ومن وافقتموه من موسى ومن معه ﴿مِنْهَآ﴾ أي: من المدينة ﴿أَهْلَهَا﴾ البانين المواطنين المعمرين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾! ماذا أفعل بكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: من كل جانب عضواً مخالفاً لما في الجانب الآخر ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النخل العالية ليطلع عليكم العابرون والناظرون المتفرجون تفضيحاً لكم، فانظر ماذا قالوا جواباً لهذا التهديد الشديد ﴿قَالُوٓا إِنَّآ﴾ إذا فعلت بنا ما أوعدتنا به مُتنا و﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ ورحمته وكرمه ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ ولا شك أنه يحسن إلينا بالعفو والمغفرة لذنوبنا وإعلاء درجاتنا، فقد ربحنا من جانب الله تعالى ﴿و﴾ أما من جهة عيوبنا وذنوبنا في المجتمع فكل عاقل خبير يعلم أنه ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: ما تكره منا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وبمعجزاته المخلوقة لنصرة رسوله ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وذلك مما يفتخر به الإنسان الكامل ولما عزمت على تحقيق ما أوعدتنا به لا مجال لنا إلا الإبتهال إلى الله العليم بالدعاء: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ينزل على قلوبنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فإن السعادة الأبدية فوق المحنة الوقتية.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: قالوا له بعدما علموا من انتصاره وبُهتهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أي: تتركهم أحراراً يستعملون النشاط ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مملكة مصر بتوجيه الناس إلى دينهم وترك دينك ودين آبائك مِن عبادة الكواكب ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؟ مهملينَ غير مَعبودين بل ومنبوذين مُحقرين؟! ﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ على عادتنا قبل ذلك الحادث ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ الظرف خبر، وقاهرون خبر آخر، أو

قاهرون هو الخبر والظرف متعلق به ومتقدم عليه للاهتمام. ولما أقر فرعون ذلك المبدأ الفاسد المؤلم ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ بني إسرائيل: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ على قهر الأعداء ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على ما يأتيكم من البلاء ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ لا للفراعنة ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الطيبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأنتم منهم والحمد لله.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة عندما كنا رعايا تحت أيدي الأقباط ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ رسولاً فإن فرعون مغتاظ علينا أكثر مما كان منذ أتيته، ودعوته للإيمان وإطلاق سراح الإسرائيليين. وهذا الكلام منهم إظهار ضجر من قهر فرعون وطلب دعاء لدفع البلاء ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ لا تخافوا ولا تحزنوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الذي قهركم وآذاكم فلا يبقي لهم سيطرة ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ ويجعلكم خلفاء لهم في الحكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في الأرض الموعودة ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أخيراً أم شراً؟ أعدلاً أم ظلماً؟ إيماناً أم كفراً؟.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ شروع في تفصيل أسباب الهلاك والإنتقام الموعود.

و﴿ٱلسِّنِينَ﴾: جمع سنة، والمراد بها عام القحط ويؤرخ بها، ولامها واو أو هاء، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القومُ، بقلب لام الفعل تاءً إذا قحطوا ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة عاهات الثمار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظوا فيتركوا ما هم عليه، مع أنه لم يتذكروا واستمروا على ما هم فيه ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ كالخصب والرخاء والسلامة والعافية ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: مستحقّوها بالذات، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب أو شدّة أو مرض أو بلاء ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: كانوا يتشاءمون بهم، ويقولون: ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وأصل ذلك أن العرب كانت

تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وتَتيمّن بالسانح. والسانح ما ولاك مَيامِنه، والبارح: ما ولاك مياسره. ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً، والتشاؤم تطيراً. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس شؤمهم إلا عند الله، أي: من جهته وحكمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ أي: شيء تأتينا به ﴿مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ مصدر كنقصان اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء وثبت أنه نزل المطر عليهم أسبوعاً، وأهلك الزراعة، وأفسد العمارة، وخرب الدور، وشوّه القصور، ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ معروف واحده جرادة، فسلطه الله على زراعة الأقباط فأبادها، ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ بضم القاف وفتح المشددة صغار الجراد التي لا أجنحة لها. وتضر أكثر من ذوات الأجنحة، لأنها تأكل ولا تطير. وقيل: إنها البراغيث أو السوس التي تأكل الزراعة ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع الضفدع المعروف ﴿وَٱلدَّمَ﴾ معروف، فسره زيد بن أسلم بالرعاف يعني ابتلاهم الله بالرعاف يعني نزيف الدم من الخشم. وأكثر أهل التفسير على أنه دم حدث في مياه المصريين. ويحتمل أن تكون الدماء النازلة مع الحليب بحيث تشوهه ولا يشرب بسلامة الطبع. حال كونها ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ واضحات لا يشك عاقل في أنها آيات إلٰهية وحقائق واقعية لا سحر ولا شعوذة، ولا تمويهات خيالية، وإنما هي بلايا أنزلها الله على تلك البرايا لاستكبارها عن قبول الحق وأنانيتها وبقائها على بطرها وطغيانها. فأنزلها الله كأجهزة تعذيب للإبتلاء والتأديب وتهذيب النفوس وإنابتها إلى الله من حيث حصول العلم منها بأن الكائنات مسخرة لله وتحت أمره في الظهور والخفاء، وفي جلب المحنة والجفاء، يؤمن بكونها كذلك كل عاقل نبيه ومتفكر وجيه، وأما الغافل السفيه فيظن أنّها حوادث طبيعية، ومواليد كونية تحدث عند حصول أسبابها، وتزول عند زوالها غافلاً عن أنها لو كانت آثاراً طبيعية لأخذت مجاريها في تحديد الأوقات ومدة البقاء، وفي تفارقها وتقارنها مع أنها قد تأتي على التوالي، وقد تأتي على التفارق، وقد تجتمع في بلد وتتراكم بعضها على بعض، وغافلاً عن أنها إنما تشتدّ عند طغيان الأمة والاعتماد على قوتها وهواها، والتصامم عن آيات الحق وهداها زاعمة أنها قوية لا تُغْلَب، وأبدية لا تُفْنى، فيأتيها العذاب من أدنى شيء كمخالفة شخص لآخر وحدوث شجار بينهما، وتوسعها إلى عداوة قوم لقوم ودولة

لدولة، فتحصل الصدامات وتنزل النكبات، وقد قابل هذا الوضع الإنسان الفاهم المطالع في التواريخ، ولم يترك الله قاتلاً بغير حق إلا قتل، وماكراً للناس إلا حاق به المكر السيىء وخائناً مع الناس إلا واقعاً في شبكة المصائب والآلام، وهذه سنة الله في الكائنات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ويكون برهاناً إلٰهياً على ذلك عند كل ذي عقل أمين.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استمروا على إجرامهم استكباراً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ يعني ولما وقع عليهم العذاب المذكور على التفصيل ﴿قَالُوا۟﴾ أي فرعون وقومه في كل مرة من وقوعه: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده سبحانه وتعالى معك، وهو عهد الرسالة وتأييدها بالمعجزات.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ الواقع علينا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكان يدعو موسى لكشفه ونستجيب له ونكشف ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم واصلون إليه حسب إرادتنا ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: ينقضون العهد ولا يهتمون به، وبما يقولون: إن ما قلنا لك يا موسى كان عن سخرية واستهزاء، فإن الأرض أرض والسماء سماء والنعمة نعمة والبلاء بلاء، ولا يخلو الزمان عما رأيت شئت أو أبيت فيتصاعدون بالجهل والعناد إلى الكفر والإلحاد، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني فأردنا الإنتقام منهم وأخذناهم نكال الآخرة والأولى، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي: فرعون وأتباعه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: نهر النيل وذلك ﴿بِمَآ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم ينسبوها إلى الواقع والحقيقة، بل قالوا: إنها سحر وخداع، ولم يعتقدوا أنها آيات مقدمة إلى الأمة للإيمان والسعادة، بل قابلوها بوجه الشقاوة ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا﴾ أي: عن حقائقها ومغزاها ﴿غَٰفِلِينَ﴾ وكأنهم بها

كانوا جاهلين. فأجرينا سنتنا التي مضت في عبادنا ورَبح الرّسول ومن تبعه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أعاذنا الله من كل نقمة وبلاء، وسامحنا بفضله إنه رؤوف رحيم.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ الآية معناه ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: أرض الشام فقد ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة المستولية عليها، وبعد العمالقة الأقوياء. ويدل على أن المراد بالأرض أرض بيت المقدس وما والاها من الشام لا أرض مصر. إذ أنه لم يسمع رجوع موسى وأتباعه إلى مصر حتى يتمكنوا فيها ويملكوها. وتوصيفها بالموصول والصلة في قوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ لأنه إن أريد بها البركة المعنوية بالنبوة والرسالة فهي أرض بيت المقدس والشام لا أرض مصر؛ لأن محل إبراهيم شيخ الأنبياء والمرسلين أرض القدس لا محل آخر، وأن أريد بها البركة المادية من حسن المناخ، وطيب الهواء، والأراضي الخصبة والبساتين والأشجار والأوراد وأشجار الفواكه فكل ما ذكر كانت في أراضي الشام ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد الجمّة ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الجِنانِ، أو ما كانوا يَرفعون من البُنْيانِ.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هذا شروع في ذكر بعض ما أحدثه بنو إسرائيل بعد أن خلصهم الله من فرعون، وبعد أتعاب موسى عليه السلام في إطلاق سراحهم، وعدم إجابته لذلك وإمداده تعالى له ولقومه بنعمة كبرى هي نقمة فرعون وأتباعه بالغرق، وبركة نجاة موسى ومن معه بالتجاوز، حتى يتبين الرسول محمد ﷺ

أحوال الأمة وينشرح صدرُه بما حَدَث بعد ذلك. فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ يعني نهر النيل، ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ كانوا ينسبون إلى لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ لهم يقيمون ويداومون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر من نحاس، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: بنو إسرائيل: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: شأنكم الاستمرار على الجهل والغباوة، حيث إنهم كانوا على ذكر آبائهم من يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم، وتحمل مشاق الدعوة إلى الله وتوحيده، وإنهم ابتلوا ببلايا على تلك الدعوة، فكان الحق أن تكون الدعوة إلى التوحيد من أهم مطالبهم، والتنفير عن الإشراك من أعظم مقاصدهم، مع أنهم خالفوا ذلك وتمنوا أحقر الأشياء الروحية وهي التوثن وغاية العذر الواقعي هي أن ذلك الطلب كان من بعض شبابهم الباقين في حال المراهقة المناسبة للارتباط بالماديات والزخارف، وعلى انطباعهم بديانة الأقباط. واستدل على فساد ما مالوا إليه من عادة القوم المشرك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ القوم العاكفين على الأوثان ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مُدَمَّر ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من دَيْدَن الإشراك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما استمروا عليه؛ لأن أيَّ دينٍ لم يكن على موافقة الحق والواقع لا يستحصل من ورائه إلا الرجوع إلى الوراء، وإلا الدمار والإنهيار في الدنيا، والعذاب والنار في الآخرة. ﴿قَالَ﴾ موسى مؤكداً لما أتى به من الدليل: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ﴾ هداكم إلى الخير ووفق آباءكم على التوحيد، و﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في زمانكم؟.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ من إصدارهم الأمر إلى الزبانية وهم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يكلفونكم به، ويعذبونكم بأنواع التعذيب بالتحقير، وتشغيل أهل الشّرف بالعمل الحقير، وبسلب الحرية عن الغني والفقير: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ من كل صوب وحدب ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ حتى لا تبقى لكم شوكة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ حتى يكثر الفقر والعالة والضعف والهوان في زمرتكم ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ التعذيب ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: فتنة كبرى وابتلاء مهم لكم من ربكم قَلَّ من يخلَصُ منه آمِناً، ويلقى ربّه مؤمناً، فكيف بعد تلك النعمة العظمى وهي الخلاص من النقمة العظمى تريدون الإشراك بربّ العالمين، وتبتغون الفساد في العالمين؟.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وَهُمْ بمصر أَنّه إن أَهلك اللَّهُ عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلكَ فرعونُ سأل موسى عليه السلام رَبَّهُ الكتاب فَأمره أنْ يَصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلُوفَ فَمِه فَتَسَوَّك، فقالت الملائكة: كنا نشتمّ من فيكَ رائحة المسك فأفسدته بالسواك! فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

في الكشاف: هنا سؤالان: أحدهما على تفصيل الأربعين هنا إلى ثلاثين وعشر، والاقتصار في البقرة على الأربعين. والآخر ذكر أربعين مع أنه من المعلوم أنّ ثلاثين وعشر أربعون. وأجابوا بأن الثلاثين للعبادة والعشر لإزالة الخلوف. أو أن الثلاثين للتقرب والعشر لإنزال التوراة، ولما كان الوعد في الثلاثين والإتمام لعشر مطلقاً يحتمل أن يكون تعيينهما بتعيين الله أو بإرادة موسى... أفاد قوله فتم ميقات ربّه أن المراد الأول. انتهى.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أمر موسى عليه السلام أوّلاً بصيام ثلاثين يوماً من غير أن يقول أزيد عليها أو لا، وبعد إتمام الصيام قال تعالى: عشرة أخرى لحكمة من حكمه تعالى منها: أن الشهر هو الواجب المهم، والزيادة عليها لزيادة الأجر كما أن موسى خدم شعيباً عليه السلام في المدة المقررة ثم زاد عليها لزيادة الفضل. ويمكن أن يكون الصيام للتخلّي عن أكدار ممارسة أمور بني إسرائيل بين الأقباط ورئيسهم فرعونَ، والعشرة للتحلي بالأنوار للتقوى على تبليغ التوراة. ومنها: أن تختص الرسل بزيادة أيام في الصيام على سائر الأفراد، لأن العامة

صيامهم شهر فقط، ويمكن أن تكون الزيادة وبلوغ العدد أربعين ليكون كل عشرة أيام في مقابلة النصفية لأحد العناصر الأربعة الموجودة في كل إنسان، وهي: الماء، والتراب، والهواء، والنار، فإنّ مُجْمَلَ العناصِرِ هذه الأربعةُ، وإن كانت هناك تركيبات أخرى كتركيب الماء من عنصرين.

وهنا سؤال آخر هو أن ظاهر قوله تعالى: وأتممناها بعشر أن عدد ثلاثين كان ناقصاً فأتمه الله تعالى بعشر، مع أن قوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ليس فيه إلا بيان تقرير ثلاثين للصيام بدون إشارة إلى نقص الموعود أو الزيادة. وأجيب عنه بجوابين: الأول: أن الثلاثين كان عدداً ناقصاً عما قرره الله تعالى في علمه من مدة أربعين، وأتمه بعشرة، كما يفيده قوله تعالى: فتم ميقات ربه أربعين. والثاني: أن الإتمام بمعنى الإبلاغ والزيادة وقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ﴾ معناه فصار ميقاتُ ربه أربعين. وعليه يكون أربعين خبر القول (تم) وهو بمعنى صار. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عند توجهه إلى المناجاة حسب أمره تعالى ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم وراقب أحوالهم حتى لا يتغيروا ولا ينحرفوا عن الدين، ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أيّ خلل وقع بينهم بقدر الإمكان ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: ولا تتبع من سلك مسلك الإفساد بغفلة نفسه عن قدسه، وكسله عن طاعته وعن تربية أتباعه على شريعته، فإن ذلك سبيل أهل الإفساد الغافلين ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: في وقتنا الذي وقتناه له يعني لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير واسطة الملك، وسمع كلامه وحصل له أنس وحضور ونور ومزيد شعور وإدراك مزيد فضله ومحبته له ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ ذاتك ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ليمتزج البيان بالعيان، وتلتذ الروح بالفتوح. ﴿قَالَ﴾ الباري تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بالمشاهدة العيانية في هذه النشأة ﴿وَلَٰكِنِ﴾ لا تعتقد أن فيك قابلية لها ولا أسمح لك، بل لأنه لا قابلية لأية مادة موجودة الآن لقبول التجليات الحاصلة من المشاهدة. وإن كنت في ريب من ذلك فـ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ المعهود المحسوس الحاضر عندك عياناً وأظهر بعض تجلياتي عليه ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُۥ﴾ ولم يفتته التجلي ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾ إذا تجلّيتُ لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهرت له جلوة ذاته حسب ما يليق به تعالى ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: جعل التجلي الجَبَلَ المعهود مدكوكاً متفتّتاً والدك والدق أخوان.

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أنه إذا اعتبرنا الجبل مادة لا إدراك لها ولا شعور فدكه يكون كدك المواد التي تجعلها تحت المنظار المعروف بـ(المكبر) فكما أنها تحترق بوقوع أشعة الشمس عليها كذلك الجبل يحترق بوقوع تجلي الباري سبحانه وتعالى عليه، ولكن لا مناسبة ولا مشابهة، فإن إشعاع الشمس إشعاع «لمادة مخلوقة ملتهبة، وتجلي الحق سبحانه نور يظهر بإظهار واجب الوجود وتجلّيه عليها.

الثانية: أنه إذا اعتبرناه مادة مدركة مُسبحَةً تسبيحاً واقعياً لائقاً كما يفصح عنها قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فاندكاكه في مقابلة التجلّي في غاية الجلاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما تجلى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فجعله تراباً... الحديث. وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يُسْلَك فيها طريق التسليم وهو أسْلَمُ وأحْكَمُ، أو التأويل بما يليقُ بجلال ذاته تعالى.

﴿و﴾ لما أدرك موسى عليه السلام هذا الحادث العجيب الرهيب ﴿خر موسى﴾ وسقط من هول ما رآه ﴿صَعِقًا﴾ صاعقاً وصائحاً وغشي عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وعاد إلى ما كان عليه قبلُ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ من كل ما يجري على القلوب من صفاتك وأحوالك، وتنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على سؤال الإراءة بغير إذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك في هذه الأمة التي أرسلتني إليها، أو أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد بدون إذنك في هذه النشأة الدنيوية.

واستدل أهل السنة على جواز رؤية الباري سبحانه وتعالى في هذه النشأة بهذه الآية من وجهين: الأول: أنها لو لم تكن ممكنة ما سألها موسى عليه السلام؛ لأن الرسل الكرام لا يطلبون المستحيل من الله تعالى، لأن طلب المستحيل خارج عن الأدب. والثاني: أن الله تعالى علق رؤيته لذاته العلية باستقرار الجبل عند ظهور التجلي وذلك أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن. والمنكرون ردوا الأول بأنه ليس من الواجب للرسل عليهم السلام العلم بدقائق الأعمال والأحوال للباري فيجوز أنه لم يكن عند ذلك عالماً بالإمتناع. والثاني بأنه تعليق بالاستقرار عند التجلي، والاستقرار عند التجلي ممتنع. وعورض بأن الممتنع الاستقرار بشرط التجلي لا في وقت التجلي، وهذا ممكن.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

وبعد أن أعلم الله تعالى رسوله موسى أنّ رؤيته لا تقع، وجرى ما جرى سلاّه وأكرمه ببيان خلعة الاصطفاء بالرسالة وتوابعها و﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: الموجودين في زمانك من بني إسرائيل ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أي: بأسفار التوراة ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: وبتكليمي إياك من غير واسطة. والمراد فضّلتك على غيرك بمجموع هذين الأمرين فلا ترد رسالة هارون عليه السلام لأنه وإن كان رسولاً لكنه لم يتلق كلام الله تعالى بلا واسطة. وكذلك لا يردّ السبعون الذين كانوا معه في هذا الميقات وسمعوا خطاب الباري سبحانه وتعالى لأنهم لم يكن لهم من الرسالة شيء ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي ما أعطيتك من شرف الاصطفاء ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لما أنعم الله به عليك ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إليه من أحكام العقائد والحرام والحلال والمعاملات والأحوال الشخصية وغيرها من المهمات ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور أي: كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في عدد الألواح وفي جوهرها ومقدارها. أما عددها فقيل: إنها كانت عشرة، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين. وأما جوهرها فقيل: إنها من سدر الجنة. وأما مقدارها فكان اثني عشر ذراعاً.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، كان طول اللوح إثني عشر ذراعاً» ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: وقلنا له خذها بجد وحزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ الباء زائدة أي: يأخذوا أحسنها كالصبر بالنسبة إلى الانتصار والعفو

بالنسبة إلى الإقتصاص، أو بأحوطها كترك الشبهة خوفاً من الحرام. أو بالعزائم في الاختيار، وبالرخص في الاضطرار. والأخذ بالأحسن على هذا مندوب، أو يأخذوا بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، والأمر على هذا للوجوب ويؤول هذا التفسير إلى أنه يجب الأخذ بالواجب في المطلوبات المأمورات، وترك الحرام في المنهيات. وهذا سبيل من اكتفى بما يمنع العقاب عن نفسه وإن لم يكتسب ما يوجب زيادة الفضل. وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ للتأكيد على الأخذ بالأحسن يعني إنكم إذا أخذتم بأحسنها تأوون إلى دار الصادقين وسأريكم في الآخرة دار الفاسقين وهي الجحيم وبئس المصير. أو معناه اثبُتُوا على هذا الدين القويم واعلَموا أن العاقبةَ للمتقين وسأريكم دار الفاسقين الخارجين عن الطاعة: فرعون وأتباعه خاوية على عروشها، وخالية عن فروشها، لتعتبروا بها، فإن السعيد من اتعظ بغيره ليبقى على سعادته وخيره، ولا يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ الآية... استئناف سيق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لإهمال التفكر في آيات الله الواردة في الألواح. معناه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ الانتفاع بـ ﴿ءَايَٰتِيَ﴾ الأشخاص ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بإطاعة هواهم الباطل ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: وأن يبصروا الآيات المحسوسة بالحواس لا يؤمنوا بأنها من الله تعالى أو أنها نزلت للزجر عن معصية الله، وإن يعلموا تلك الآيات بالعقل كابتلاء قوم واستئصالهم واستيلاء قوم على مآربهم وأموالهم ومَنالهم لا يربطونها بأمر الله تعالى، أو أنّها تأنيب لقوم وتحبيب لآخر ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي: طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يمشون عليه فلا يهتمون به ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ والضلال وهو اتباع الهوى واجتناب الهدى ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ معناه وهذه الصفة الرذيلة صارت ملكة لهم بسبب وفور الغفلة وقلة الشعور، وحصول الرين على قلوبهم حتى كذّبوا بآيات الله وصاروا كافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وسقطت عن الاعتبار ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟ أي: إلا جزاء أعمالهم، والجواب لا.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ

فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: واتخذ السّامري الصائغ الفنّان وقوم موسى على خداع السامري والموافقة معه من بعد ذهاب موسى إلى الجبل للمناجاة وأخذ التوراة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أي: مِن حُلِيّ الإسرائيليين ﴿عِجْلًا﴾ أي: هيكلاً على صورة العجل بأن صنع قالَباً على شكله، ثم جاء بالحلي المأخوذ من القوم فَأَذابَهُ وصبه فيه فأخرج منه عجلاً ﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت كصوت العجل، فاتخذوه إلٰهاً بإضلال السامري لهم. والقوم في هذا الأمر كانوا على غاية من كفران النعمة والسفاهة والدناءة في الهمة ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ لا بالذات مباشرة ككلام الله تعالى مع موسى، ولا بالواسطة ككلامه تعالى مع الناس بواسطة جبريل ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ولا يعرف شيئاً ولا يعقل حقيقة حتى يهدي عباده إليها. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ بدون أيّ داع ومبرّر وبدون أيّ دليل أو حجة تقرر، ﴿وَكَانُوا۟﴾ في ذلك كافرين بمقدسهم و﴿ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم في حقوق الدنيا والدين. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: تندموا عما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ أي: علموا بضلالهم بسبب اتخاذ العجل لها ﴿قَالُوا۟﴾ داعين متضرعين ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة علينا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن سيئاتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا لإضاعتنا حلينا وذهبنا بلا فائدة، وفي الآخرة بعقاب هذا الكفر الواضح القبيح.

وجملة ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ بالفعل الماضي المجهول كناية عن شدة الندم، فإن النادم إذا اشتد ندمه عض يده بقوة حتى يظن أن بعض أسنانه سقطن في يده فكانت الأسنان ساقطة واليد مسقوطاً فيها وهو معنى سُقِط في أيديهم. وذكر بعضهم أن هذا التركيب لم يسمع قبل نزول القرآن ولم تعرفه العرب ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم ولذا خفي معناه على الكثير ثم هنا أمور:

الأول: إن المفسرين اختلفوا في ذلك العجل؛ فكثير من المفسرين قالوا بأنه كان عجلاً له حياة حقيقية، لأن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فصار حياً، وأيدوه بأن الخوار إنما يكون للبقر لا لصورته. وقليل منهم يقولون: إن العجل كان عجلاً في الصورة، ولم يكن حياً، لأن ظهور الحياة في مادة مصوغة جامدة على يدي إنسان فاسد كالسامري لا يمكن بحال من

الأحوال، لأن ظهور المعجزات على يد الكاذبين ممتنع والمراد بالخوار صوت يشبه صوت العجل، وكان من دقة صناعة السامري فإنه صنع في هيكل العجل أجواءً خالية، وجعل عليها منافذ تفتح وتسد، وكلما فتحت دخلتها الرياح وظهرت أصوات كأصوات العجل. ومثل ذلك موجود في ساعات الزمان التي تصوت كالطيور أو السباع أو غير ذلك. . .

ويقول في روح المعاني: وعن السدي أنه كان يخور ويمشي، وعن وهب نَفْيُ الحَرَكَةِ. والآية ساكتة عن إثباتها، وليس في الأخبار ما يعول عليها فالتوقف عن إثبات المشي أولى. وليست هذه المسألة من المهمات الاعتقادية.

الثاني: إن الحلي الذي صيغ منه العجل المشهور أنه كان حليَّ الأقباط وأخذته نساء بني إسرائيل عارية في بعض المناسبات، ولما وقع الفراق بين الفريقين صار هذا المال المنسوب إلى قوم من الكفار كالفيء العائد إلى المسلمين، على أنه يقال إن الأقباط أخذوا أموال بني إسرائيل بكثرة، فيكون الاستيلاء عليه من باب الظفر بأموال من غصب منك أموالاً ويجوز للمغصوب منه القبض على حقه ظفراً أينما وجده. وتسميتها أوزاراً من جهة أنها كانت أموالاً للظالمين مكتسبة من جهات غير مشروعة. ومنهم من قال إن الحلي من أموال بني إسرائيل لبعد أن يوافق الأقباط على إعارة ذلك المقدار من الحلي إلى قوم ممقوتين مهتوكين مستضعفين تحت أيديهم، وإنما سميت أوزاراً على هذا لأن حلي النساء المسخرات لقوم طغاة لا يخلو عن استعمالها في مناسباتهم المحرّمة، فهي كأنها أوزار.

الثالث: إنه كما يقال العجل لولد البقر يستعمل الحوارُ لولد الناقة، ومَهْر لولد الفرس، وجَحْش لولد الحمار، وَحَمل لولد الشاة، وجَدْيٌ لولد العنز، وشِبْلٌ لولد الأسد، ودغفل لولد الأسد، وجرو لولد الكلب، وخشف لولد الظبي، وغَفْرٌ لولد التيس الجبلي، وفَرْعَلُ لولد الضبع، وديسم لولد الدّبّ، وخنوص لولد الخنزير، وحريش لولد الحية، ورأل لولد النعامة، وفروج لولد الدجاجة، ودرص لولد الفأر، وحسل لولد الضب إلى غير ذلك. . . وكما يقال خوار لصوت العجل والبقر يقال لصوت الغنم: الثغاء، وللمعز اليعار، وللتيس النبيب، وللكلب النباح، وللأسد الزئير، وللذئب العواء والوعوعة، وللثعلب الضباح، وللخنزير القباع، وللهرة المواء، وللحمار النهيق والسحيل، وللفرس الصهيل والضبح والقنع

والحمحمة، وللناقة الرغاء، وللفيل الصني، وللضبي البتغم، وللأرنب الضميب، وللظليم العرار، وللبازي الصرصرة، وللصقر القعقعة، وللنسر الصفير، وللحمام الهدير، وللقمري السجع، وللعصفور السقسقة، وللغراب النعيق والنعيب، وللديك الصقاء والزقاء، وللدجاجة النقيقة والقوقاء، وللحية الفحيح، وللضفدع النقيق، وللعقرب الصبيء وكذا للفأرة، وللجراد الصرير. كل ذلك ذكره صاحب روح المعاني رحمه الله تعالى لمزيد اطلاع الطّالبين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام أي: من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديدَ الغَضب مما أحدَثه قومُه بعدَه ﴿قَالَ﴾ لهم مُستنكراً أعمال كلهم المحدثين من سوء ما أحدثوا وغيرهم من قلة غيرتهم وسكوتهم عن المفسدين: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ وبئس فعل لإنشاء الذم، فاعله مستتر فيه، وما نكرة موصوفة بالجملة الفعلية، والمخصوص بالذم محذوف، والتقديرُ بئسَ خِلافةً خلفتُمونيها مِن بَعْدي خِلافَتُكم. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجلتم عما أمركم به ربكم من انتظار رجوعي إليكم واسْتَعْجلتم مدةَ مكثي في الطور من غير شعور بأنّ الرسول مأمور لا آمِرٌ. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: وضعها على الأرض كالطارح لها من شدة غضبه حميّة لدين التوحيد الذي أُرْسِلَ موسى ومَن سبقه ومَن لحقه ومَن بعده لنشره في الأمة، فإن الألواح وإن كتب عليها الأحكام مِن كل باب، لكن نسبتها إلى هَدَف الأنبياء والمرسلين وشرف توحيد رب العالمين نسبة الكواكب إلى الشمس، على أن القوم الذين قام موسى عليه السلام على قدم الجدّ وساق الاهتمام لتربيتهم لما ظهرت فيهم هذه النكثة الفاسدة لم يبق لسيدنا موسى أمل في الدوام على خدمتهم وتربيتهم، فإن العمامة علامة العالم، فإذا مات العالم لم يبق للعمامة اهتمام وقيمة بين الناس.

ويؤيد أن غضبه عليه السلام كان لحمية الدين ما أخرجه أحمد وغيره وعبد بن حميد، والبزار وابن أبي حاتم وابن حيان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحمُ الله موسى ليس المعاينُ كالمُخبَر؛ أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومَه فُتِنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسّر، وأخَذَ برأس أخيه يَجُره إليه**» من فرط غيظه وغَضَبه المؤدي إلى خروجه عن الحالة الاعتيادية فسرى إليه أن هذا الحادث نشأ من كسله وعدم قيامه بواجب الرّعاية ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ بحذف حرف النداء على المنادى وإضافته إلى الأم للترقيق، وإلا فهو كان شقيقاً له، وأمَّ بالفتح لكونها بقية أما بالألف النائبة عن ياء المتكلم، أي: قال هارون مخاطباً موسى عليه السلام: يا ابن أمّي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الذين أحدثوا ما أحدثوا ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: قهروني ولم يبالوا بي ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك العمل الفاسد ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يفرحون به فإني بذلت ما في طاقتي فلم ينفع ذلك ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم، ولا تعتقدني واحداً من الظالمين. ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام لما عاده الهدوء: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة بزيادة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: سعوا في صنعه وتزيينه للعبادة ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بإحراق آلهتهم ونَسْفِه في النهر ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بما لا يناسب قدسيته ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أية سيئة كانت ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ إلى الله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد مباشرتها ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ واشتغلوا بالإيمان والأعمال التابعة له ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وافر الرحمة مبالغ في إفاضة أنواع الرحمة عليهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـَٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ معناه لما زال عن قلب موسى التهاب القوة الغضبية باعتذار أخيه وإنابة القوم ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: وفي ما كتب فيها ﴿هُدًى﴾ إلى الأحكام ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بإرشاد الأنام ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون ﴿و﴾ لما أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل للاعتذار عن عبادة العجل ووعدهم موعداً ﴿ٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أي: من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ المقرر للكلام مع الباري تعالى واعتذارهم مع موسى عليه السلام عن عبادة العجل، واختار من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة، فوصل العدد اثنين وسبعين فقال عليه السلام: ليتخلف منكم رجلان. فتنازعوا فيما بينهم، فقال: لِمَن قَعَد منكم مثلُ أَجْر مَن خَرَج، فقعد كالب ويوشع، ثم خرج بالسّبعين إلى طور سيناء، فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا فدنوا، حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجداً، فسمعوه وهو سبحانه يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية فوعظهم، ولم ينفع، وألحّوا في طلبها ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: لا نصدّق بقولك أن الذي يتكلم معك هو الله حتى نراه جهرة، فأخذتهم الرجفة أي: الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. والكثير على أنهم ماتوا، والقليل على أنه أغمي عليهم بحيث ظن موسى عليه السلام أنهم ماتوا ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل رجوعي إليهم من الطور سابقاً، أو من قبل أن نصعد الجبل إليك للاعتذار ﴿وَإِيَّىَ﴾ أي: أهلكتني معهم قبل الصعود إليه، فلم يكن الناس يظنون أن هلاكهم بسبب عملٍ صادر منّي. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الخفاف العُقول ﴿مِنَّآ﴾؟ من صنع العجل وعبادته ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ليس الحادثة أولاً وأخيراً إلا ابتلاء منك وامتحاناً للأمة ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ من الجاهلين بأسرار أعمالك وحكمتها ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ من العارفين ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: متولينا والقائم بأمورنا في الدارين ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرطنا ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة علينا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ابتلينا فيها ﴿حَسَنَةً﴾ عفواً وحياة طيبة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: واكتب لنا في الآخرة حسنة وهي المثوبة الحسنى ولقاء وجهك الكريم ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني إنا رجعنا إليك للعفو والرحمة، وأنت أرحم الراحمين.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جواب دعائه: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ مِن عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: شأنها الوسعة والشمول والاستيعاب ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: تلك الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة عليهم للمستحقين منهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً مستمراً بعدك في العصور الآتية، وهم أتباعك الذين يؤمنون بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ كما آمنوا بالتوراة ثم بالإنجيل وأمة ذلك الرسول الناشئة في عصره وبعده، وينادي على هذا المعنى بوضوح قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الآية...

تنبيه: فسرت قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ بما علمت، وحملت الميقات على الميقات المقرر من الله تعالى لاعتذار بني إسرائيل عن عبادة العجل، لأنه هو الذي اعتقده أكثر المفسرين واستقر في قلبي واطمأن به والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَأْمُرُهُم﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله لتبليغ الأحكام بالكتاب المختص به أو المشترك بينه وبين غيره كتوراة موسى عليه السلام ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ الإنسان المختار الذي رفع الله رتبته وأخبره بما قرره سواء كان له كتاب أو لا ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب وهو منسوبٌ إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم ذلك، أو إلى أم القرى لأن أهلها كانوا كذلك، أو إلى الأمّ كأنه على الحالة التي ولدته أمّه عليها ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ باسمه ونعوته الشريفة، عندهم ظرف لمكتوباً ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ اللذين يعتد بهما بنو إسرائيل ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ والمعروف ما استحسنه الشرع، والمنكر

ما استقبحه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وفسر الطيبات بالأشياء التي يستطيبها الطبع السليم، والخبائث بما يستخبثها كالدم. وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع، والخبيث بما خبث فيه كالربا والرشوة. وجوز بعضهم كون الطيب بمعنى ما استطابه الطبع أو الشرع والخبيث بما يستخبث طبعاً أو شرعاً ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي: يمنعه من الحركة لثقله، أي: يخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، أو منه ومن البدن، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القصاص في العمد والخطأ، وغير ذلك من الأحكام الثقيلة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: صدقوا برسالته ونبوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدين ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: واتبعوا أحكام القرآن الذي هو كالنور في الظهور، أو القرآن الذي هو نور القلب ووسيلة بصيرته واهتدائه إلى الحق. ومعنى أنزل معه أنه أنزل مع نبوته أو إرساله عليه السلام. ومما لا شك فيه أن اتباعهم للكتاب الذي أنزل معه يوجب اتباعهم لسنته لأن فيه الأمر بإطاعة رسوله والإقتداء به في الأحكام الغير المختصة، وكذلك اتباعه يوجب اتباع الإجماع واستدلال الأئمة المجتهدين لأن في الكتاب إيجاب ذلك كما لا يخفى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ معناه أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة هم الفائزون بالمطلوب لا الموصوفون بأضداد ذلك، وفي ترتيب الحكم على اسم الإشارة إشارة إلى علية الأوصاف المذكورة سابقاً للحكم عليهم بالفلاح بل لحصر الفلاح فيهم وهو ظاهر.

تنبيه: على ما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية... قد نزل في الكتب المنزلة على الرسل عليهم السلام بشارات بظهور نور سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، لا سيما التوراة والإنجيل. وذكرها يحتاج إلى أمَد كثير وفراغ وافر. ونكتفي بنبذة مما في التوراة والإنجيل اكتفاء باليسير عن الكثير. ففي الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ألف وثمانمائة وأربع وأربعين ميلادية ما يلي:

(وقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا مِن ساعيرَ، واستعلن من جبل (فاران)، ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار) انتهى وهذا الباب هو الباب الأخير من سفر التثنية. وفي الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل وفاته

مباركاً بها بني إسرائيل. وفي التراجم الأخيرة (سعير) بدل (سنة) والمراد بالسنة الشريعة. وترجمة الجزويت عن يمينه قَبَسُ شريعة لهم، وليس فيها (ألوف الأطهار) فمجيء الرب من سيناء إعطاء التّوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل (فاران) إنزاله القرآن على سيدنا محمد ﷺ، لأنّ فاران جبل من جبال مكة، فقد جاء في بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين ٢١ ـ ٢٠: (وكان الله معه وسكن في البرّية وصار شابّاً يرمي بالسهام ٢١، وسكن برّية فاران وأخذت له أمّه امرأة من أرض مصر) ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكناه بمكة.

وفي سفر سيدنا شعياء من أنبياء بني إسرائيل عليه السلام ما ترجمته: (يا شعيا إني أرسل نبياً أمياً إلى بني آدم، وأفتح به عيونَ العُمْى، وآذان الصُّمّ، وقلوباً مستورة بالغشاوة، مولده مكة ومُهاجَرُه المدينة، وقوته في الشام، وذلك الرسول عبد متوكل على الله، ومختار من الأمة، وخالدٌ ومحبوب، وهو رؤوف على الناس بحيث لا يقابل الإساءة بالإساءة بل بالعفو والسماح، يتأثر على طفل يتيم في حضن أمه، وعلى حَمولة حِملُها ثقيل، ليس قاسياً ولا كلامه مُراً، ليس له صخب في الأسواق، ولا يتجمل بما ليس بمعروف، ولا يخرج من شفتيه القول البذيء، وحياؤه كثير بحيث لو مر على القصب لا يظهر من مروره الصوت، أُرْسِلهُ بشيراً للطائعين، ونذيراً للعاصين الذين لا يأخذون بتعاليمه. أجعل أمته خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويخلصون لله في تطبيق أحكامه. وتلك الأمة يراعون حساب السنين والشهور والأيام والليالي لأداء شعائر دينهم، يوحّدون الله ويسبّحونه ويحمدونه ويكبّرونه، وأجعل ثنائي في قلوبهم، ويَصْطفّون في المساجد للعِبادة كصُفوف الملائكة في أطراف العرش. تلك الأمة أحبّائي ومُعينون لديني بهم أَنْتَقِمُ ممّن يعصيني. ويصلّون قياماً وقعوداً ابتغاء مرضاتي، ويركعون ويسجدون لإطاعتي، ويَخْرجون من بيوتهم أُلُوفاً للجهاد في سبيلي، أختِمُ الأديانَ بدينهم، والكُتُبَ بكتابهم، وإذا اشتدّ بهم الغضب قالوا: لا إله إلاّ الله، وفي وقت العجز والملال يقولون: سبحان الله. ويغسلون وجوههم وأطرافهم للعبادة، ويحفظون كتبهم. أجْعَلُ تلك الأمة أكبرَ الأمم والفضلُ لمن كان على دينهم وآدابهم، ذلك فضلي نؤتيه من نشاء، والله ذو الفضل العظيم).

وفي آخر أبواب إنجيل يوحنا عن التراجم العربية المطبوعة سنة ألف

وثمانمائة وإحدى وعشرين، وسنة ألف وثمانمائة وإحدى وثلاثين، وسنة ألف وثمانمائة وأربع وأربعين في لندن: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلُب من الأب فيعطيكم (فار قليط ـ روح القدس) ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يراه لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم). إلى آخر ما ذكره هناك... ويكفي لمن آمن بالله وكتبه في تشريف سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ولما ذكر سبحانه وتعالى في ما تقدم بعضاً من نعوت الرسول سيدنا محمدﷺ وشرف أتباعه أمرهﷺ أن يعلن رسالته على عالَم العقلاء، فقال مخاطباً لهﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأبيض والأسود والأحمر والأسمر وأول ما أعلنه لكم أنه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن التوحيد أساس الطاعة ورأس مال البضاعة وأعظم آثاره في عالم الوجود أنه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ فالحياة أهم النعماء والموت أدهم البلايا تحت أديم السماء ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الواحِدِ المُحْيي المميت الباعث للأموات ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ المبعوث دليلاً للخيرات ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الآيات البينات ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في أوامره ومناهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية... معناه (ومن قوم موسى) أي: بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة عظيمة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يرشدون بالإرشاد وبالوجه الحق الموافق لما أنزله الله تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: وبالحق يحكمون فيما بينهم. والآية جاءت لبيان أنه أنزل الشرائع على رسله من آدم إلى الخاتم. فكل أمة تعمل بما أنزل الله في وقت ذلك الرسول وبعده إلى نزول الشريعة الناسخة، فهي على الحق كالأمة المتبعة للرسول محمدﷺ. وأما بقايا تلك الأمم السابقة بعد زوال شريعتها ونسخ دينها فواجبها الإيمان بالشريعة الجديدة النازلة. فأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد بعث الرسول محمدﷺ إن اتبعوه وقبلوا شريعته أصلاً وفرعاً اعتقاداً وعملاً فهم يعتبرون مؤمنين، وإلا فليسوا مؤمنين ولا علاقة لهم بالمثوبة الحسنى يوم الدين.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: وصيرنا بني إسرائيل ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ أي: اثنتي عشرة فرقة أسباطاً. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من العدد وليس تمييزاً له، وإلا لكان الأسباط ستة وثلاثين لأن لفظ أسباط جمع وأقله ثلاثة، وإثنا عشر جمعاً مثلّثاً يبلغ ذلك، وقوله: ﴿أُمَمًا﴾ بدل بعد البدل من العدد ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ عند غلبة العطش عليهم ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ أي: انفجرت منه ﴿عَيْنًا﴾ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: قد علم كلّ سبط من الأسباط العين المختصة بهم بعلامة خاصّةٍ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ أي: وجعلنا الغمامَ بحيث يلقي عليهم ظلّه ليحفظهم من حرّ الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: الترنجبين والسماني، فكان كل منهم يأخذ ما يكفيه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم ذلك، فظلموا وكفروا بهذه الأنعم الجليلة. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بذلك ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن وبال الكفران والعصيان من الخسران والعذاب يعود إليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إذا نظرنا إلى سرد الآيات الشريفة وجدناها حاكية عن سلسلة من أحوال بني إسرائيل بعد إنجائهم من قهر فرعون وأتباعه فحالتهم السيئة الأولى أنه لما ذهب مُوسى عليه السلام إلى الطور لأخذ التوراة اتخذوا العجل المسبوك من أعمال السامري إلٰهاً وعَبَدوه. وحالتهم الحسنة الثانية أوّلاً والسيئة أخيراً: هو أنهم ذهبوا مع موسى إلى الطور لتقديم المعذرة إلى الله عن اتخاذ العجل وعبادته، وبعد هذا الإقدام الحسن جاؤوا بسيئة هي إلحاحهم على رؤية الباري جَهْرَةً، فأخذتهم الصّاعقة، وبعد ذلك خلصوا بدُعاء موسى عليه السلام وابتهاله إلى الله الرؤوف الرحيم.

وحالتهم الثالثة: بقاؤهم في صحراء سيناء تحت حرّ الشمس مع فقد الماء والزاد وترحم الباري تعالى عليهم بمعجزة انفجار العيون الموافقة لعدد الأسباط من حجر واحد بحيث يعلم كل سبط مشربه لدفع العطش وإنزال المن والسّلوى عليهم لدفع المجاعة في تلك الصحراء القاحلة.

وحالتهم السيئة الرابعة: مخالفتهم لأمر موسى عليه السلام بأن يدخلوا قرية أريحا أو بيت المقدس والإبتهال إلى ذي الجلال لحطّ الذنوب فتوقفوا عَنِ الدخول في زمن حياة موسى عليه السلام إلى أن جاء عهد يوشع، أو دخلوا ولكن بدّلوا ذلك القول الذي قيل لهم بغيره حيث أمروا بأن يقولوا: مقصودنا حطة وعفو لذنوبنا، فقالوا: مقصودنا حنطة نأكلها. فيقول الباري سبحانه ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لبني إسرائيل الموجودين مع موسى عليه السلام في الصحراء ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ القريبة منكم وهي بيت المقدس أو أريحا، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من مطاعمها أقواتها وفواكهها ومستلذاتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ شرقاً أو غرباً جنوباً أو شمالاً ﴿وَقُولُوا﴾ إذا دخلتم: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: مطلوبنا حطة وسقوط لذنوبنا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: وادخلوا باب بيت المقدس أو باب أريحا ساجدين، إذا أطعتم في ذلك ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ كلها ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فضلاً وإحساناً زيادة على ما استحقوا من المثوبات ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم بالتوبة والإنابة والاستغفار ﴿قَوْلًا﴾ آخر ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. ولما خالفونا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إثْرَ ما فَعلوا ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً نازلاً من السماء عقاباً ناشئاً من الهواء الفاسد وهو مرض الطاعون ـ أعاذنا الله تعالى منه ـ ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق. فإن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فلما غيروها غيرها الله.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ عطف على اذكر المقدر المقدّم. أي: واسأل اليهود المُعاصرين ﴿عَنِ﴾ خبر ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ مُشرفة على شاطئِهِ ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حُدود الله بالإصطياد يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرةً على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ويوم لا يدخلون في السبت لا تأتيهم ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: هكذا نعاملهم معاملة المختبرين ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون ويذرون.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة من صلحاء بني إسرائيل الذين كانوا يسعون بجد واهتمام في منع فساق بني إسرائيل عن الأعمال الرديئة والصيد في يوم السبت، أي: قالت تلك الجماعة لجماعة أخرى كانت تحرص على إرشاد الضالّين منهم إلى الحق: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مُبيدهم ومُستأصلهم عن وجه الأرض ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ دون الإبادة والاستئصال ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الجمع الذين قيل لهم: لم تعظون: ﴿مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعظهم معذرة إليه تعالى حتى لا نُنْسَبّ إلى القصور والتفريط في الإرشاد ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ وَتَركُوا الاستماع إلى مواعظهم ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ لأنهم أدّوا حق الوعظ والإرشاد ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالإعتداء مخالفة الواعظين ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: تَعَدَّوا على الحَق وتكبّروا وعَتَوا عن قبول المواعظ الحسنة ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ روي عن ابن عباس: أن اليهود إنما

افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم، وهو يوم الجمعة فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه، فَحَرّم عليهم الصيد فيه وابتلوا به، فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سِماناً حتى لا يرى الماء من كثرة السمك عليه، فمكثوا ما شاء الله لا يَصيدون، ثم أتاهم الشيطان فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض والشبكات، فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه، ثم يأخذونها يوم الأحَد! فعذبهم الله تعالى بأن جعل المردة منهم قردة.

وعن قتادة: أن الشبان صاروا قردة، والشيوخ خنازير، وكان الحادث في عهد سيدنا داود عليه السلام، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ الضمير المجرور راجع إلى اليهو، العاتين عن أمر ربّهم، فإن القوم كان منهم الصالحون ومنهم الطالحون العاتون، ومن العاتين مَن جعلهم اللَّهُ قردة وخنازير وأماتهم بعد ثلاثة أيام، فالباقي لكونه مرجعاً للضمير هو الباقي من العُتاة مع أن الظاهر أن الحكم مستوعب لليهود بأسرهم فإرجاع الضمير إلى الموجودين عند الحادثة وأمثالهم في جنسية اليهود. ولا شبهة في أن المراد اليهود الذين ثبتوا على الكفر واليهودية لا الذين آمنوا منهم واستقروا في الإسلام، وليس المراد أيضاً أنهم يبعث عليهم من يعذبهم في كل زمان ومكان، فإن ذلك خلاف سنة الله تعالى بل المراد بسبب استمرارهم في غالب الأوقات على مخالفة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ونقضهم المواثيق وقتلهم الأنبياء وعتوهم على موسى وهارون في أمور كثيرة قرر الله تعالى أنه ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وقد حقق الله ذلك منذ زمان سيدنا يوسف أنه كلما صارت لهم شوكة وقعت عليهم بوائق ومهلكات إما بين اليهود أنفسهم بعضهم على بعض أو من مجاوريهم كأحوالهم مع العمالقة وغيرهم من المجاورين لهم، أو من ابتلائهم بظالم يستبدّ في القتل والفتك كابتلائهم بفرعون ملك الأقباط، وبملوك الروم وبختنصر ملك بابل ثم ابتلائهم بإخراج عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم من الجزيرة، ثم ضرب الجزية عليهم، ثم تفرقهم في البلاد الآسيوية والأوروبية وغيرها كما هو مسطور في التواريخ وذكرنا في سورة البقرة أدوارهم الخمسة التاريخية

وإوضاعهم فيها. وبالخاصة ذكر الله في سورة الإسراء إفسادهم في الأرض مرتين وعلوهم علواً كبيراً، وذكر معاقبته لهم بعد كل منهما أشد عقاب وهددهم في الأخير بقوله العظيم الأكيد ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وقد تحقق عودهم وسيتحقق عود الله عليهم ومن شرطِ كل شرطٍ جزاء. على أنهم في هذا الزمان الذي يظن بوجود شوكتهم ليست الشوكة منهم ولا القوة من أنفسهم، وإنما صارت أرض فلسطين قاعدة حربية بحرية لبعض المستعمرين ولم يأمن على غيرهم فجعلهم حُراساً هناك باسم الدولة اليهودية والكيان الصهيوني، ولو تركهم ذلك المستعمر سنة لم يبق لهم مجال البقاء. ومن جهة أخرى كما أن الله انتقم من بني إسرائيل بسبب عدوانهم وبغيهم وخروجهم عن الطاعة كذلك انتقم من المسلمين في الديار الإسلامية لا سيما المجاورين لهم من حيث أنهم ما أدوا واجبهم لصيانة الدين بالاتفاق، ووحدة الكلمة، وجمع القلوب، واتفاق عسكري فيما بينهم ليخافهم اليهود وغيرهم من الأعداء. بل وقد تركوا نصرة قواعد الدين، وعقائده حتى عاد الإسلام غريباً والمسلمون غرباء، ولو عادوا إلى عقائدهم المتينة ومبادئهم الحصينة ما كانوا يبتلون بما ابتلوا به اليوم، ولا تصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. ونسأل الله تعالى كشف الكروب بجمع القلوب والاستمساك بالعروة الوثقى فإنه سبحانه له سنة لا تتبدل من جانب الإيجاب والسلب، ولذلك ختم الآية بقوله الكريم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: وفرقنا بني إسرائيل في الأرض حال كونهم جماعات كثيرة متمايزة في الأعمال والأفكار والإدارات بحسب مقتضيات البيئة والدولة التي عاشوا فيها، أو إن كونها أمماً باعتبار أنهم من سلالة الأسباط الأثني عشر، وكل سبط له تقاليد وآداب، وفي الآية أيضاً تأييد

لمحتويات الآيات السابقة. يعني لما قررنا أن لا تكون لهم شوكة شائكة ووحدة مباركة... فرقناهم في العالم وما جمعناهم في أرض واحدة على كيان واحد ودولة واحدة، لأن وحدتهم سبب لإعلاء مقامهم وذلك مخالف لما أردنا لهم، وهذه الآية إن كانت حاكية عن أوضاع اليهود قبل بعث سيدنا محمد فذلك، وإن كانت منبئة عما يجري عليهم ويحصل منهم ففيها معجزة الإخبار بالغيب. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الثابتون على الإيمان بالله ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وهم المتزلزلون الذين امتثلوا بعضَ الأوامر دُون بعض والمجتنبون بعض المنهيات دون بعض. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ من الصحّة والخصب ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من المرض والجدب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه إلى ما يرتضيه الشرع المبين.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ بسكون العين، لم تتحرك عيونهم لإبصار الحقائق على الوجه اللائق ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة من أسلافهم الأشراف لكن لم يطبقوه بالعدل والإنصاف ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: يأخذون متاع هذه الدنيا الدنية ولم يترقوا إلى طلب الرتب العالية من الإيمان والإخلاص ولزوم الطاعة والاجتناب عن المناهي ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في جواب من يلومهم ويقول لهم: ويلكم لا تقربوا الدنايا فإنها عيون الخطايا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا يؤاخذنا الله تعالى بما نعمل على مقتضى إرادتنا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ يعني وإن يأتهم أثناء الوعظ والزجر عن المعاصي شيء من حطام الدنيا يأخذوه، كأنهم لم يسمعوا وعظ المرشدين بحجة أنهم أولاد آباء من الأنبياء ولا يعاقبون ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق المكتوب في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو أن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الناس سواسية أمام الحق ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾؟ معطوف بحسب المعنى على مدخول ألم يؤخذ، أي: ألم يدرسوا ما في الكتاب من أنه يجب على المكلّف أخذ طريق الصواب والاستقامة عليه. ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من دار الدنيا ومطامعها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أن الحق أحق بالاتباع والله يحب الصالحين.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قال مجاهد وابن زيد: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقال عطاء: هم أمة محمّدﷺ. ومعنى الآية على الأول: الذين تمسكوا بالتوراة في أمور دينهم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة عليهم، وآمنوا بمحمدﷺ عندما صادفوا زمانه. وعلى الثاني: الذين تمسّكوا بالقرآن وعملوا بما فيه، وأقاموا الصلوات

المفروضة في أوقاتها واستمروا على التمسك بذلك. فـ﴿إِنَّا﴾ لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون ونحن ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ الآية... ذكر حادثة من الحوادث المخيفة التي جرت على بني إسرائيل من شدة شكيمتهم وطغيانهم، وذلك أن سيدنا موسى عليه السلام لما جاء بالتوراة في ألواح وقرأ أحكامها على بني إسرائيل استثقلوها وأبوا أن يلتزموا أحكامها، فصعب الأمر على موسى فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فنزل، وقلع جبل طور من محله ورفعه على رؤوسهم كأنه مظلّة على رؤوس بني إسرائيل الساكنين في معسكرهم الواسع بقدر فرسخ في فرسخ، فلما رأوه خافوا من تطبيقه عليهم والتزموا بأحكام التوراة فأمر الله جبريل وأعاده إلى محله. وهذا هو معنى ظاهر الآية الموافق للروايات الواردة في الموضوع.

لا يقال إن هذا النوع من الإيمان والالتزام واقع بالإكراه ولا عبرة به لأنا نقول: إنّما لا يعتبر إذا بقي الناس على الحالة الأولى التي يستنكرون فيها التزام الأحكام ويستكرهونه، وأما إذا انقلب الحال إل انشراح الصدور ومعرفة حقيقة الأمر واستحبابه ثم التزامه، فهو شيء معتبر ومحبوب، ألا يرى أنه كثيراً ما يأمر سيد القوم أو عميد العائلة بأمر يعارَضُ فيه من قبل الجماعة ثم بعد تنفيذ ما أمر به وفهم الناس للأمر استحبوه وتيقنوا أن ذلك الأمر شيء موافق معقول ومستحب ومقبول؟ وهكذا غالب الأحكام التي تجري في عالم الرسالات والإدارات والتعليمات تستكره أوّلاً وتستكرم أخيراً.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكر إذ رَفَعنَا جبلَ الطور فوقَ رؤوسهم لإخافة نفوسهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: غمامة أو سقيفة أو مظلّة ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ واعتقدوا اعتقاداً راجحاً أنهم إذا لم يلتزموا الأحكام ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: ساقط عليهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: قلنا لهم على لسان رسولنا موسى: خذوا ما آتيناكم من الكتاب بما فيه من الأحكام بقوة في القلب ونشاط في العمل، واذكروا ما فيه لأولادكم جيلاً بعد جيل لبقاء دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك عن الكفر والضلال والاختلال في الأعمال والفساد في الأخلاق بين العالمين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية... روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سأل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سُئل عنها فقال: «**إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرّية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مَسَحَ ظهره فاستخرج منه ذرّية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل**»؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيُدخِلُه الله النار**» وقال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم هذه ذريتك، ثم قال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بَلى. فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين. وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة، ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم. فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء. وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وهذا الحديث صحيح أخرجه مالك في الموطأ وكثير من المحدثين كما روينا عن مسلم بن يسار رضي الله عنه. فهذا الحديث الشريف يكون تفسيراً للآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من قوله: (من بني آدم) ويكون المضاف محذوفاً على قوله: بني آدم أي: من أصل بني آدم وهو سيدنا آدم عليه السلام، فكل النسل والذر أخذ من ظهر أبيهم آدم مرة واحدة، وجعلهم الله بحيث يُناسِبُون لفهم الخطاب والسؤال والجواب: ولا فرق في تحقيق العهود والمواثيق بين الصغير والكبير، فإن الله تعالى لما أودع فيهم الفهم والإدراك جاز الخطاب والجواب منهم على ما أراده الله تعالى. وقد أفادت الآيات الكثيرة أن كل موجود يسبح بحمد ربه،

وأجاب عن غفلتنا عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولو لم يكن التسبيح واقعياً لما كان وجه لذلك الاستدراك، وقد قال للسماء والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ الأحزاب: ٧٢] وقال تعالى في شأن سيدنا داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ وقد ثبت تسبيح الحصاة في كف الرسول ﷺ، وتسليم الشجر والحجر له، وورد في القرآن الكريم عهده تعالى مع الإنسان كثيراً... وتأويلها وإرجاعها إلى بعض الوجوه المفهومة لسواد الناس مما لا وجه له.

وهنا قول ثان في تفسير الآية وسار عليه بعض المفسرين من أن المراد بهذا الإخراج والسؤالِ والجوابِ إيداع العقول في المكلفين وتمكينهم بها من معرفة الأحكام والتكاليف الربانية، وعليه قال المفسر البيضاوي عليه الرحمة في تفسير: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والإعتراف على طريقة التمثيل. وهذا مما لا داعي له بعد تكرر النصوص الدالة على قابلية المواد لفهم خطاب الباري تعالى.

فتفسير الآية الكريمة على النقل الوارد أحسن بدرجات ولذلك قال الشهاب في حاشية البيضاوي ما نصه: والحديث ناطق بأن هذا معنى الآية لأنه ساقه مساق التفسير لها، وإطباق المعتزلة على أن القرآن لا يفسر بالحديث مخالف لإجماع من يعتد به، وكذا قول الإمام: إن ظاهر الآية يدل على إخراج الذرية من ظهور بني آدم، وليس فيها ما يدل على أنهم أخرجوا من صلب آدم ولا ما يدل على نفيه، إلا أن الخبر دل عليه فيثبت خروجهم من آدم بالحديث ومن بني آدم بالآية.. لا يطابق سياق الحديث مع جواز أن يراد ببني آدم هذا النوع الشامل لآدم عليه السلام كما هو مشهور في الاستعمال. ولذا قيل: الواجب على المفسر أن لا يفسر القرآن برأيه، إذا وجد النقل عن السلف، فكيف بالنص القاطع من حضرة الرسالة؟ فإن الصحابي سأله عما أشكل عليه من معنى الآية. وكذا فهم الفاروق رضي الله عنه انتهى.

وأقول: لو كانوا يؤولون ظاهر الآية الكريمة بما ثبت بالنقل أن الله تعالى

خلق الأرواح قبل الأجساد، والمراد من سيدنا آدم روحه الشريفة، ومن بني آدم أرواحهم المنبثقة من روحه الأصل الأبوي، وجعل الإخراج عبارة عن خطابه تعالى مع أرواح أولاده لكان أوفق بالواقع، وأسلم لأن هنا نقلاً موضحاً للنقل، والأرواح في ذواتها قابلة للسؤال والجواب، وعلمه تعالى الأزلي واسع شامل لجميع الأرواح والأجساد التي ستخلق وتكلف بالأحكام. وأما معارضة بعض بأنه لو كان هناك خطاب وسؤال وجواب مع الأرواح لكنا متذكرين لذلك في هذه النشأة كما نتذكر في الشيب أعمالنا في الصبا... فكلام ساقط، لأن تذكر الأرواح لأعمالها الواقعة سابقاً مع الأبدان مما يعقل لوجود الجسد في الحالين، وأما تذكر الأرواح المتعلقة بالأبدان المشغولة بأنواع الهموم والمشاغل والملابسات لأحوال الروح المجرد عن البدن فأمر غير بينٍ ولا مبيّنٌ.

ومعنى الآية الشريفة على ظاهرها: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ من ظهور بني آدم ذريتهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ فرداً فرداً ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لا على غيرهم تقريراً لهم بربوبيته سبحانه وتعالى قائلاً لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أي: بمن أوجدكم وربّاكم متدرجين من نطفة إلى علقة فمضغة غير مخلقة فمخلقة، ثم أخرجكم من بطون أمهاتكم إلى آخر ما يأتي عليهم ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] بذلك وإنما فعل بكم ما فعل كراهة ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن ربوبيتك وعبوديتنا ﴿غَٰفِلِينَ﴾ فليس علينا عقاب على كل ما جرى منّا سابقاً أو لاحقاً ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ لدفع الأذي عنكم ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل زماننا وصار الإشراك أمراً تقليدياً مستمراً في آبائنا إلى أن وصل الأمر إلينا فلسنا مبتكرين لهذه الأشياء من الإشراك وملابساته، وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نعرف حقوق الرب ولا نميز الطاعة عن المعصية ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟ من آبائنا الضالّين المضلين، ولا نراك وأنت الرب الرؤوف الرحيم أن تفعَل ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التفصيل البليغ لأخذ الباري تعالى العهود والمواثيق من الأرواح أو من الذرية حين كانت في صلب الأب علاوة على ما حققناه من شرائط التكليف في عالم الظهور ببعث الرسل بالكتاب ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحق المبين.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ

فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقصص على بني إسرائيل المفتونين بعلم التوراة ادعاءً وزعماً أو بالانتساب إلى دين موسى غروراً وكذباً ﴿نَبَأَ﴾ العالِم الإسرائيلي ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ علم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أي: علم التوراة ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ فتجرّد عن الإيمان بها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: جَعَلَه تابعاً لنفسه ومُنحرفاً عَنْ قدسه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالّين عَن طريق الحق والصّراط المستقيم.

أخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار أنه كان من علماء بني إسرائيل وكان موسى عليه السلام يقدمه في الشدائد ويكرمه وينعم عليه، فبعثه إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله تعالى وكان مجاب الدعوة، فترك دين موسى عليه السلام واتبع دين الملك فصار من الضالين. والعياذ بالله.

والمشهور من عنوان هذا الرجل أنه (بلعم بن باعوراء) ومن بني إسرائيل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ مشيئة قسر وإجبار ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: بتلك الآيات بأن يلاحظها ويعمل بها فيتقرب إلى الله، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ بسوء تصرفاته واختياره ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني مال إلى الدنيا الدنية والشهوات النفسية ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بأن تبع ملك مدين وترك دين موسى وهُداهُ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ في ضيق النَّفَسِ وخِسّة النَفْس، ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ وتطرده ﴿يَلْهَث﴾ يخرج لسانه بالنفس الشديد ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ في محله وعلى حاله ﴿يَلْهَث﴾ واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد أي: إخراجه متتابعاً مع نَفَسٍ عالٍ لشدّة خَفَقانِ القلب النّاشيء عن ضعفه ﴿ذَّٰلِكَ﴾ أي: صفة الكلب هذه وحاله ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد بالقوم مشركي مكة كانوا يَتمنّون هادياً يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله، ثم لما جاءهم الصادق الأمين

كذّبوه وأعرضوا عما معه من الآيات، أو اليهود حيث قرؤوا نعت الرسولﷺ في التوراة وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة وآياته البينات في نعت الرسول وكتابه القرآن وأصحابه في آخر الزمان ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ يعني فاحك هذه القصة على المكذبين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في شقاوة الأشقياء وسعادة السعداء، فيعتبرون ويأخذون بأسباب السعادة الأبدية ويبتعدون عن علل الشقاوة السرمدية. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: مثل القوم ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ لا غيرهم ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إلى الصراط المستقيم هداية مع العناية ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ عنه ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ وليس خسرهم عدواناً من أحد عليهم ولكنه من إهمالهم العقل وتركهم الإعتبار والاستبصار الذين في دائرة الإعتبار والإختيار. وإذا لم نعتد بذلك فلا يبقى وزن ولا ميزان ولا إطاعة ولا عصيان، ولم يبق إلا الفوضى في النواميس النفسية والقدسية ولا يرضى بذلك إلا الجاهلون.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ والتعذيب فيها ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ الذين لا يسمعون إلا إرشادات الحق ومواعظه، بل ويعاندونها ولا يريدون أن يستمعوا لها، فعطلوا جميع مشاعرهم وعقولهم وحواسهم فـ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يريدون أن يتفقهوا بها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يحدقون النظر إلى ما أحاط بالحقائق لا إليها ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ الدوال مع المدلولات، أو إنما يسمعون الألفاظ بدون ملاحظة المعاني ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ في الحرمان عن أسباب الخير والإنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ لأن الضلال في الحقيقة لا يستند إلا إلى من شأنه الاهتداء لا إلى ما ليس من شأنه إلا الرغاء ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ ۚ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلّين بذلك، الغافلين عنه سبحانه. والمراد بالأسماء الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة، والحسنى تأنيث الأحسن أفعل تفضيل، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجملها، لأنها تنبىء عن أحسن المعاني. وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ إما من الدعوة بمعنى التسمية أي: سموه بها، أو من الدعاء بمعنى النداء أي: نادوه بها. وقولوا: يا الله، يا رحمٰن، يا رحيم... وقوله: ﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ أي: واتركوا موافقة من يميلون وينحرفون فيها من الحق إلى الباطل. والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً كما في قول أهل البدو: يا أبيض الوجه، يا سخي، ونحوهما... فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة. ومن فسر الإلحاد في الأسماء بما ذكر ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية يراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع؛ فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه، وإن صحّ معناه. ومأخذ استعمالها إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع وإطلاق أسماء الله تعالى عليه باللغات الأعجمية ككلمة (تكرى) بالتركي أو (خدا) بالفارسي إنما هو لأخذها من الأنبياء المرسلين إليهم في وقته لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وما لم يوجد فيه إطلاق ولا منع فقد قال الجمهور بالمنع منه لرعاية الأدب مع ذاته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استئناف لجواب السؤال عن وجه ترك أولئك الناس الملحدين في أسمائه تعالى. وحاصله أنهم قوم عصاة، وسيجزون عقاباً على أعمالهم. فوجب تركهم لأن من كان معهم يُبتلى بمثل ما ابتلوا به، وذلك خطر عظيم. ولما ذكر الباري أحوال الناس الضالّين ذكر أحوال الناس المهتدين الهادين لغيرهم إلى الحق فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ أي: أناس طَيّبُون مُطَيّبُونَ يَهتدون و﴿يَهْدُونَ﴾ الناسَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوجه المطابق للواقع الموافق لمرضاته تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: وبالحق يحكمون سواء فيما بينهم أو

بينهم وبين غيرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ولم يصدقوا بما أنزلناه على رسلنا من البينات ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: سننقلهم درجة فدرجة على مراتب اللذات والشهوات والأموال والأهل والبنين والبنات وسائر الملابسات المدعومة بالنفس والمرغوبة عندها من حيث لا يعلمون أنها نقمة من المنتقم لا رحمة. أو من حيث لا يعلمون ماذا يراد بهم وماذا تكون العاقبة ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ يعني أمهلهم ولا أسلبها منهم بسرعة حتى لا يفهم الناس غاية الأمر، وإذا سألت: لماذا؟ فالجواب قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ لا يكاد يظهر لكل أحد بادي الرأي بل يختص بمعرفته أولو الألباب الذين مارسوا عهد الرسول والكتاب وانتقام الله تعالى من أهل العدوان والطغيان.

ومما يحسن أن يعلم أن الاستدارج استغفال من درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي صاعد أو هابط، ثم استعير لطلب كل نقل تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه. واستدراجه تعالى إياهم بإفاضة النعم عليهم مع استمرارهم في الغي والضّلال.

وإذا قيل: جرت سنة الله في الكون على استمرار النعم على الناس مدة من الزمن ثم زوالها بسبب من الأسباب سواء كان صاحبها من الصالحين أو لا، فما الفارق بين الاستدراج بالمعنى المذكور واستمرارها على الصالحين مدة ثم زوالها؟ قلنا: الفارق واضح على القواعد الإسلامية لمن آمن بها؛ فإن صاحب النعمة إن كان مطيعاً لربه وآخذاً بهداه فهو من أهل الخير والنعم الفائضة عليه رحمة ربانية وإذا أزالها فلحكمة معلومة عنده، ولكن لا يظهر من زوالها اضطراب وقلق وحيرة وكفران للنعم، وإنما يقارن الزوال صبر وإنابة وتسلّ بما أعد له من جزاء الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس، وأما المستدرج به والاستدراج بالمعنى المذموم فهو نعمة تفيض على بعض الناس بدون شكرها وصرفها في الخير والاستفادة منها بل يزداد بها عتواً ونفوراً وبطراً وغروراً، ولما أزالها الله سبحانه ظهر من أصحابها الكآبة والحزن وسوء الأحوال وفساد المقال والكفر بحقوق ذي الجلال فتبين من ذلك أن صاحب النعمة كان صاحب النقمة، وإن ماله أفاد فَسادَ حاله وسوءَ عاقبتِهِ ومآلِهِ، وهناك آثار وفروعات كثيرة شهيرة تركناها خوفاً من الإملال.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إشارة إلى طريقة علمية واضحة للوصول إلى

الحق إذا جاء أحدٌ برسالة أو إرشاد من شخص ذي شأن، وهي أن الإنسان الذي جاءته الرسالة نظر إلى الرسالة ومحتوياتها وإلى من جاء بها وصفاته؛ فإذا وجد الرسالة حقاً بالبداهة أو البرهان فلا محالة أنه يجب عليه قبولها، ولو لم يكن من أتى بها حائزاً لمزية وفضيلة، وإذا كان حائزاً لها فبالأولى. ثم إذا نظر إلى مبدأ الرسالة ووجد فيه خللاً من ناحية من النواحي جاز أن يتطرق إليه الشك في الرسالة بأن يقول ليست هذه الرسالة منه؛ فإنه شخص نازل والرسول ومعنى الرسالة من أهل الفضائل والكرامات. وأما إذا وجده شخصاً موصوفاً بالكمال بعيداً عن الاختلال والاعتدال فبالطريق الأولى وجب عليه قبول الرسالة وإكرام الرسول. والكافرون المشركون والكتابيون إذا نظروا إلى الكتاب وإلى من جاء به وإلى الله الذي أرسله به لم يجدوا إلا ما يؤيده العقل والنقل فلماذا لا يؤمنون؟ فيقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ وهو الرسول الكريم ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ وجنون، بل طبعه سليم مأمون وسر رسالته كالدر المكنون ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: صاحبهم وهو الرسول الأمين ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لأهل البغي والعدوان كما أنه بشير لأهل الصدق والسلامة والإيمان. هذه من جهة الرسول ويظهر من سلامته سلامة رسالته، وأما من جهة المرسل وهو رب العالمين فهو بسلامة الفطرة رب عليم قدير خبير وبصير لأن أثر الأقدام يدل على المسير ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مادة وصورة وبهجة وزينة وحركة وبركة وآثاراً ودائراً ودوراناً ومداراً ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ منهما وما فيهما وما بينهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أيّ شيء كان... فهل وجدوا في ذلك فتوراً وقصوراً ونقصاناً؟ فلم لا ينظرون في ذلك نظر الاعتبار والاستبصار؟ ﴿و﴾ إذا لم ينظروا في تلك العجائب فلم لا ينظرون إلى ﴿أَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وانحسر أملهم وانتهى عملهم؟ وليس هناك شيء آخر ليساوي ملكوت السمٰوات والأرض ولا دليل آخر فيه بيان مثل أخلاق الرسول الذي هو صاحبهم، فإذا لم يستفيدوا من هذه العيون النابعة النافعة ولم ينتفعوا بهذه المطالب الواسعة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي: بعد الصاحب وما معه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟.

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ فلم يبق هنا شيء يذكر في تعليل تأخر الناس عن الاعتبار والاستبصار والإيمان بالله الواحد القهار، وبرسوله النبي الزكي المختار، والكتاب الذي أنزل معه لإرشاد الثقلين إلى السعادة في الدنيا وفي دار القرار إلا أن نقول من يضلل الله ويخلق فيه الضلال لسوء اختياره

وعناده وتعنته فلا هادي له، فإذا لم يبق لهم مجال الهداية والعناية فيذرهم الله في وادي الحيرة يتحيرون وفي مهالك الطغيان يعمهون ويترددون ولا ينتبهون أعاذنا الله سبحانه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعة: في الأصل اسم لوقت قليل المقدار وعند الفلكيين عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزء من الليل والنهار. وفي عرف الشرع تطلق على يوم موت الخلائق، وعلى يوم البعث يعني يوم قيام الناس لرب العالمين. وفسروها بيوم القيامة. ولعل المراد أحد ذينك اليومين. والسائل عن ذلك أناس من قريش. فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أن قريشاً قالوا: يا محمد أَسِرَّ إلينا متى الساعة؟ لما بيننا من القرابة. فنزلت. والكثيرون على أن السائل أناس من اليهود. فقد أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس ﷺ قال حَمَلُ ابنُ أبي قشير وسَمَولُ بنُ زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم متى هي! وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها، فأنزل الله تعالى الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؟ كلمة أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، وهي في محل الرفع خبرُ مرساها، وهو مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته، يعني في أي وقت استقرارُ الساعةِ وتحققها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يكشفها في وقتها إلا هو، يعني لا يكشف عنها، ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألون عنه إلا الرب سبحانه بالذات. ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كبرت وعظمت على أهلهما لخوفهم منها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يُقوم سلعته في سُوقه، والرجل يخفض ميزانَه ويرفعه**». ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ يعني يسألونك كأنك عالم بها ومطلع على وقتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انحصار علم الساعة في ذات الباري ويتوهمون أن الناس يعرفونها أيضاً ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا أملك لأجل نفسي جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئته سبحانه بأن يمكنني من ذلك فإني عند ذلك أملكه بمشيئته ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لحصلت كثيراً من الخير الذي تعلق بترتيب الأسباب ورفع الموانع ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الناشىء عن عدم علمي بالحقائق ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومما يجب أن ينبه عليه أمران:

الأول: أن هناك من يتوهم ويقول: ما دامت الآية ناطقة بأن الرسولﷺ لا يعلم الغيب لزم أن لا يعرفه غيره بالطريق الأولى، فما معنى نسبة الإخبار بالمغيبات إليه في إخباره بأمور تقع في المستقبل، أو إلى غيره من الأولياء والصالحين بالكشف؟ والجواب: أن المنفي عن الرسول وغيره من الأنبياء والأولياء هو العلم بالغيب، والعلم صفة ذاتية تلازم العالم ولا تنفك عنه، وهذه لا توجد في غير الباري سبحانه وتعالى. وما اطلع عليه الرسولﷺ وغيره هو عرفان جزئي في مادة من المواد حصل له من الله بالوحي أو الإلهام، وهذا ليس علماً بالمعنى المذكور وهو ظاهر، فإذا أعلمه المولى بشيء علمه وإذا لم يُعْلِمْهُ فلا.

والثاني: أنه يتشكل اللزوم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ فإنه لا يلزم من العلم بالخيرات القدرة على استحصالها ولا من العلم بالمصائب دفعها وردها! والجواب إن هذا اللزوم مبني على اعتبار العلم بتعلق إرادة الباري سبحانه بكون شيء سبباً لجلب الخير أو لدفع الشر على قاعدة ترتب المسببات على الأسباب، ولا شك أن العلم بالدواء النافع واستعماله سبب لإزالة الأمراض، كما أن العلم بوجود منفعة هناك وطرق جلبها ومباشرة أسبابها يوجب حصولها له فالسوء المنفي سوء يعالج بدواء مستعمل معلوم، كما أن الخير الحاصل هو خير مسبب عن مباشرة سبب معلوم، وهذا مما لا شك ولا شبهة فيه لأحد. وعلى ذلك يكون العلم بالغيب والاطلاع على أسباب الخير وكسبها كالعلم بالمقدمات المستلزم للعلم بالنتيجة لزوماً عادياً عند الشيخ أبي الحسن الأشعري، ولزوماً عقلياً عند الإمام الرازي فلا ينفك اللازم عن الملزوم. وكذلك العلم بالمصائب والاطلاع على موانعها ومباشرة تحصيل الموانع لدفع عروضها والخلاص منها.

فاللزوم بين الشرط والجزاء في الآية الكريمة لزوم عادي عند الأشعري، وعقلي عند الإمام الرازي رحمهما الله تعالى. ولا يتوهمن أحدٌ أن من الخيرات ما لم يقدره الباري للإنسان فلا يكتسب له، ومن المصائب ما تعلقت الإرادة بنزولها، فلا يمكن رفعها، فلا يتحقق اللزوم في الآية الكريمة لأنه من المسلمات عند الجمهور من المسلمين أن الله تعالى خالق كل شيء وأن العبد كاسب لما في طاقته، وأن ما لم يقدره الباري تعالى للإنسان من الخير أو دفع الشر ليس مما يكتسب أسبابه. وكلامنا في ما يدخل تحت نظام المكاسب، وإلا فمقابلة القضاء والقدر مستحيل. فالملازمة بحسب ظاهر الكسبيات كلية، وبالنظر إلى مجموع المعلومات جزئية؛ لأن المعلومات لا تتناهى، ومنها ما يدخل تحت نطاق الكسب، ومنها ما لا يدخل تحته. ولعل للإيماء إلى هذه الدقيقة صدرت القضية بكلمة (لو) فإنها علامة القضية الشرطية المهملة، وهي في قوة القضية الجزئية كما هو معلوم عند من مارس العلوم العقلية وأتقنها. هذا والله الهادي لطريق الصواب.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان ما يقتضي التوحيد وهو حصر الخالقية فيه سبحانه وتعالى. يعني ﴿خَلَقَكُم﴾ أيها الآدميون ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من نفس جسدها ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليستأنس بها ويطمئن قلبه بوجودها معه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: فلما جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يعني محمولاً خفيفاً في

بداية أمره عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة، فإنها بالنسبة إلى ما بعد ذلك خفيف جداً، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت قبل ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بالنسبة إلى بعض الأحوال، وخافت حواء من الهلاك بسبب هذا الولد ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ والمراد بالصالح الولد المبارك المشرف بسبب مجيء الأنثى معه، وإن كان يحتمل أن يكون الصالح بمعنى الولد المطيع لله تعالى على ما هو المعروف في الإسلام ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ كما أرادا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ من الأوثان ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ من الأولاد ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتعاظم وتبرأ عما يجعلونه شريكاً له.

وفي الآية الكريمة إشكال لأنها بظاهرها تفيد أن آدم وحواء عليهما السلام قد أشركا بالله، وذلك لا يتناسب مع مقام النبوة قطعاً. وأجيب عنه بأجوبة:

الأول: إن الإشراك لم يكن من آدم عليه السلام وإنما كان شيئاً في صورة الإشراك صادراً من أم البشر حواء فقط ونسب إليهما لكونهما للارتباط والألفة بينهما يعتبران كالشيء الواحد.

الثاني: إن المراد بقوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ جعل أولادهما له شركاء وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ويؤيد هذا الجواب قوله تعالى بعد ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟!.

الثالث: إن المراد بالصالح من يكتفي به في توليد النسل وتكثيره وهو الجماعة التي أقلها إثنان ذكر وأنثى، لأن غاية آدم وحواء من ترتب الأولاد والنسل إنما تحصل بذلك. والضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ يرجع إلى الصالح باعتبار المعنى وحقيقة الإشراك إنما ظهرت من هذين المولودين وهما ذكر وأنثى.

الرابع: إن الخطاب كان لقريش، وإن المراد بالنفس الواحدة قصي، والمراد بجعل زوجها منها أنها أيضاً قرشية، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائها الأربعة بعبدمناف، وعبدشمس، وعبدالعزى، وعبدالدار المناسبة للمشركين.

ثم استنكر إشراكهم وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بذات واجب الوجود الخالق لكل موجود ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدر على خلق أي شيء من الأشياء ﴿وَهُمْ

﴿يُخْلَقُونَ﴾ ويخرجون من العدم إلى الوجود ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: أولئك الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمشركين ﴿نَصْرًا﴾ إذا ورد عليهم عدو ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؟! بل ولا يقدرون على نصر أنفسهم فضلاً عن نصر غيرهم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: تلك الأصنام ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنها هياكل جامدة لا شعور لها ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ في عدم الاستفادة منهم ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى إنجاز مرادكم ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾.

ثم بين أن لا مزية لهم وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ﴾ مسخرون مقهورون لله تعالى ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ لا فرق بينكم وبينهم بل هم أحقر لأنهم أجساد لا حياة فيها فإن كنتم في ريب من ذلك ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ ويُلَبُّوا دعوتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى أنهم يفيدونكم شيئاً. ثم احتج على أنهم أحقر من الحيوانات العجم لخلوها عما هو موجود فيها فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾؟ إذا عزموا على جلب شيء أو انهزموا خوفاً من شيء ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾؟ إذا عارضهم شخص ذو بطش شديد ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾؟ حتى يميزوا العدو من الصديق ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟ نداء مناد أو دعوة داع ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم علي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني بعد ترتيب مقدمات الكيد فإني لا أهتم بكم ولا أبالي.

﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ﴾ جملة مستأنفة وقعت علة لعدم مبالاته بهم. يعني: ووجه عدم مبالاتي بكم هو أن الله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ علي هو وليي ومحبي وناصري، ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿يَتَوَلَّى﴾ شؤون ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولا يتولى شؤونكم لأنكم من الفاسدين ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ إذا أرادوا نصركم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى أن يهدوكم إلى الخيرات في الحياة ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ دعاءكم فضلاً عن المساعدة ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما أمامهم فضلاً عن ما بعد عنهم. وأي عاقل يعتمد على هياكل منحوتة جامدة خامدة لا خير فيها لأنفسها ولا لغيرها، ولا قوة فيها للاستفادة منها، وإنما هي أحجار وأخشاب منصوبة من قبل آبائكم بإغواء الشيطان وأعوانه؟.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: إرض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجَهْدَ وما يشق عليهم، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن ذلك أقرب إلى قبول الناس ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ والنخس والنسغ بمعنىً ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فاستجر به والتجىء إليه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنداء الداعين و﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس أجمعين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: لمة منه ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي: تذكروا ما أمر الله به وما نهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ومدركون بسبب تذكر مواقع الخطأ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ يعني تعاونهم الشياطين في الضلال، ويرغبونهم فيه ويحرضونهم على أسبابه وطرقه، من عدم المبالاة بالحق، وعدم استماع آيات الله، وعدم إطاعة الرسول. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: أولئك الشياطين عن إغواء غير المتقين. وعلى هذا الوجه فالضمير المرفوع في يمدونهم راجع إلى الشياطين. والضمير المنصوب فيه إلى الإخوان وهم الناس الذين لا تقوى لهم. والجملة خبر للمبتدأ وجار على غير من هو له، لأنه وقع بعد قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ وضميره المرفوع عائد إلى غيره وهو الشياطين المستفاد من السياق، وعدم إبرازه مبني على تجويز الاستتار في نحو ذلك التركيب لا على وجوب الإبراز كما هو عند البصريين. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ بآية من الله عند تأخر الوحي ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشركون: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾! أي: لولا جمعت آيات من عند نفسك فتقرأها علينا على عادتك. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي الصادق الأمين في رد كلام أولئك الكافرين: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ومالي شأن في هذا الموضوع وما ألقيت إليكم آية مخترعة من

عند نفسي، وإنما هو وحي يوحى ونور يلقى إلي فأنور به بصائركم و﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ للقلوب وبشائر تأتي لكشف الكروب ﴿وَهُدًى﴾ للمهتدين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للمتقين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فمن آمن به فقد شملته رحمة رب العالمين، وَمَن لا فلا.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ في البيضاوي: نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها، فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً. وعامة الفقهاء على استحبابهما خارج الصلاة انتهى.

وفي حاشية الشهاب: اختلف في سبب نزولها على وجه ينبني عليه معناه. فقال الجصاص: سببها كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام قرأ في الصلاة وقرأ معه أصحابه فخلطوا عليه، فنزلت. وكذا روى الشعبي وغيره. وهي تدل للحنفية في أنه لا يقرأ المأموم في سرية ولا جهرية، لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر، وكذا في الإخفاء لعلمنا بأنه يقرأ وإن لم نسمعه.

وقال مالك رحمه الله تعالى: ينصت في الجهرية ويقرأ في السرية لأنه لا يقال له مستمع. وقال الشافعي رضي الله عنه: يقرأ في الجهرية والسرية في رواية المزني، وفي رواية البويطي إنه يقرأ في السرية أم القرآن ويضم السورة في الأوليين، ويقرأ في الجهرية أم القرآن فقط. وسبب نزول الآية كما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: إنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت. فالنهي إنما هو عن التكلم لا عن القراءة وهو معنى قوله نزلت إلخ. وكون الاستماع خارج الصلاةِ مستحباً متفق عليه. وقوله: «فأُمِروا باستماع» إلخ... ظاهره أنه لا يقرأ، وهو مخالف لمذهبه إلا أن يكون مراده أنه

يستحب للإمام في الجهرية سكتتان: سكتة بعد التكبير لدعاء الإفتتاح، وسكتة بعد الفاتحة ليقرأ المقتدي كما نقل في الأحكام. وسيشير إليه المصنف رحمه الله. والوجه أن مراده أنها وردت في ترك الكلام لا في القراءة فلذا لم يتعرض لها فلا يرد عليه ما ذكر. انتهى.

قلت: وفي المجموع للنووي أن الإمام يقرأ في السكتة الثانية بعد إتمام فاتحته هذا الدعاء سراً: (اللَّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهم نقني من خطاياي كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهم اغسلني من خطاياي كما يغسل الثوب بالماء والثلج والبرد) والتفصيل في كتب الفقه. فيقول الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لتفهموا معناه وتتنور به قلوبكم وتطبقوا معناه حسب الاقتضاء ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ حتى لا يقع شيء أجنبي في أسماعكم ويحول دونكم ودون الاستفادة منه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ وهو عام لكل ذِكرٍ فإن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأنسب بالقبول. وفي الخبر يقول الله تعالى: «ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» وفي رواية «خير من ملئه» وقال الإمام: والمراد بالذكر في نفسه أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الكمال والعز والعظمة والجلال، وذلك لأن الذكر باللسان عارياً عن الذكر بالقلب كأنه عديم الفائدة، بل ذكر جمع أن الذكر اللساني الساذج لا ثواب له أصلاً. وقيل: الخطاب لمستمع القرآن، والذكر القرآن. والمراد أمر المأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته. ويستحب لمريد قراءة القرآن خارج الصلاة أن يلبس أحسن ثيابه، ويتعمم ويستقبل القبلة تعظيماً له، ومثله في ذلك العلم ولو قرأ مضطجعاً فلا بأس إذ هو نوع من الذكر. وقد مدح سبحانه ذاكريه قياماً وقعوداً، وعلى جنوبهم. ويضم رجليه عند قراءة. ولا يمدهما لأنه سوء أدب ولو قرأ ماشياً أو عند النسج ونحوه من الأعمال، فإن كان القلب حاضراً غير مشتغل لم يكره، وإلا كره، ولا يقرأ وهو مكشوف العورة، أو كان بحضرته من هو كذلك، وإن كانت زوجته، وكره بعضهم القراءة في الحمام والطريق، قال النووي ومذهبنا لا تكره فيهما. وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أي متضرعاً وخائفاً.

وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ صفة لمعمول حال محذوفة أي: ومتكلماً كلاماً دون الجهر ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمع غدوة. وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والآصال وهو كما قال الأزهري جمع أصل، وأصل جمع أصيل، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس، فهو جمع الجمع، وليس للقلة وليس جمعاً لأصيل لأن فعيلاً لا يجمع على أفعال، وقيل: إنه جمع له، لأنه قد يجمع عليه كيمين وأيمان. وخص الوقتان لأنهما من الأوقات اللطيفة التي ترتاح فيها النفس ويطمئن القلب، والمناجاة مع الله تناسب حالة الاطمئنان. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله في وقت من الأوقات لأنه كما تتوقف الحياة النفسية على التنفس ووجود القوت كذلك تتوقف الحياة القدسية الروحية على علاقته بربه سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ لهم منزلة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة لا سيما أهل الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يتشرفون بالوصول إليها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزهونه عما لا يليق بكبرياء ذاته ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخضعون ويتذللون غاية التذلل ويظهرون ذلك للكائنات بوضع أشرف نقاط الوجود أي الجبهة على الأرض في السجود. ويخصون ربهم بذلك ولا يشركون أحداً في الإيفاء بهذه الطاعة. وقد جاء الأمر بالسجدة لآية أمِرَ فيها بالسجود امتثالاً لأمره وأخرج أحمد رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول في سجود القرآن بالليل مراراً «**سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين**».

سورة الأنفال

مدنية، وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ سبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم، ومن يُقَسّم له؟ المهاجرون منهم أو الأنصار؟ وقيل: شَرَطَ رسولُ الله ﷺ لمن كان لَهُ غَناءٌ أن ينفُله، فتسارع شبانهم حتى قَتَلوا سبعين وأَسَروا سبعين. ثم طَلَبُوا نَفَلَهم، وكان المال قليلاً فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كُنّا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إليها. فنزلت فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. وعن سَعْد بنِ أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلتُ به سعيدَ بن العاص وَأَخذتُ سيفَه. فأتيت به رسولَ الله ﷺ واستوهبته منه، فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض فطرحته. وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وَأَخذ سَلَبي. فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه.

وأصل معنى النفل الزيادة، ولذلك يقال للتطوع نافلة. ولولد الولد نافلة. ثم صار حقيقة عرفية في العطية، لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كأنها زيادة. وتسمى بها الغنيمة باعتبار أنها منحة من الله تعالى من غير وجوب.

ومعنى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ يسألونك عن حكمها ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

أي: أَمْرُها مختص بهما يقَسّمها الرسولﷺ على ما يأمره الله به ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الاختلاف والتنازع والطمع فيها ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: الحال والصفة التي وقعت بينكم من ميل كلٍّ إلى اختصاصه ببعض الأشياء وغَلَبته على الآخرين. يعني استأصلوا عرق هذه الحالة الفاسدة واستسلموا لما يأمركم الله به ويبلغه رسول الله إليكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقّ الإيمان فإنه يقتضي الخضوع لأمر الله وبلاغ رسوله والأمر الذي وصل إليه، كما يقتضي التقوى أي: الاحترازَ عن الكفر وسائر الكبائر وسفاسف الدنيا الدنية، ويوجب إصلاح ذات البين بدفع الأحقاد والحزازات الواقعة الواردة على القلوب. وهنا ذكر من صفات المؤمن الكامل صفتين مهمتين:

الأولى: تقوى الله تعالى.

والثانية: إصلاح ذات البين.

وتأتي من صفاته صفات أخرى بعدُ. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بالإيمان الكامل ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ تعالى باسم ذاته أو صفة من صفاته السلبية أو الثبوتية الذاتية أو الفعلية ﴿وَجِلَتْ﴾ وفزعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من هيبته تعالى ومن آثار صفاته ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لأن تلك الآيات تدل على نسبة الصفات العظيمة إليه تعالى، ولما سمعها المؤمن تنوّر قلبهُ وانشرح صدره بأخذ مدلولات تلك الأسامي والصفات.

والإيمان إن كان مركباً من التصديق بالقلب والعمل بالآداب والتصديق باللسان، فلا شك في قبوله للزيادة والنقصان؛ فإن العمل بفرائض وسنن كثيرة فوق العمل بما دون ذلك. وإذا كان هو التصديق فالتصديق المعتبر في الإيمان هو الاعتقاد الجازم، وفوقه اليقين، وهو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع المعبر عنه بعلم اليقين، وفوقه عين اليقين وحق اليقين. ولكل درجات فقبوله للزيادة محقق، وما روي عن كثير من السلف من أنه لا يزيد ولا ينقص معناه أنه لا يعتبر الناقص من الاعتقاد الجازم ولا يطلب الزائد عليه، فإن كانت زيادة عند شخص فهي فضيلة واردة له ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أمورهم على الإطلاق. أي: في إنجازها وتيسيرها وحصولها لأنها ولو كانت مربوطة بأسباب يباشرها المؤمن فمسبب الأسباب هو الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالوفاء بمقدماتها ومقاصدها

شروطها وأركانها وآدائها في أوائل أوقاتها مع رعاية الخشوع والخضوع والرهبة لله تعالى. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة على أنفسهم ومن في إدارتهم، وكذا الصدقات الواجبة من الزكاة والكفارة والنذور الصحيحة. والمال الواجب صَرفُه للفقير المضطر في الجدب والبلاء والمستحبّة من وجوه الخيرات والحسنات والضيافات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يعني أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة الخمس بعد الصفتين المأخوذتين فيما تقدم ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً حقاً ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب زيادة ما عندهم من درجات الإخلاص ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم وخطاياهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في دار النعيم.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو المشبه، أي: حالهم هذه في كراهة التنفيل كحال إخراجك من بيتك للغزو في كراهتهم له. وكان إخراجك من بيتك إخراجاً متلبساً بالحق المطابق لرضاء الله الموجب لانتصار المسلمين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ وأصل الواقعة أن عير قريش أقبَلَت من الشام وفيها تجارة عظيمة، ومعها عدد قليل وهم أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيّها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة. فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاء! النجاء! على كل صَعْب وذَلول عيركم، أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً! وقد رأت قبلَ ذلك بثلاث عاتكَةُ بنتُ عبدالمطلب أن ملكاً نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل فرماها من الجبل فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تنبأت نساؤهم! فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر. وكان رسول الله ﷺ بوادي (دَقران) فنزل جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين: إما العيرُ، وإما قريش.

فاستشار أصحابه فقال بعضهم: متى ذكرتَ لنا القتالَ حتى نتأهب له؟ إنّا خرجنا للعير. فقال ﷺ: إن العير مضت على ساحِل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبَل. فقالوا: يا رسول الله عليك بالعيرِ ودَعِ العَدوَّ. فغضب ﷺ، فقام أبو بكر وعمر فأحسنَا الكلامَ في اتباع أمر رسول الله ﷺ. ثم قام المقداد بن عمروٍ فقال يا رسول الله: إمض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحْبَبْت، لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فَقاتِلا إنّا مَعَكُما مقاتلون. فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس». وَهُوَ يريدُ الأنصارَ، لأنّهم كانوا عَدوهم، وقد شرطوا حين بَايعُوهُ بالعقبة أنهم براءٌ من زمامه حتّى يصل إلى ديارهم فتخوّف أن لا يَرَوا نُصرتَه إلا على عَدوهم بالمدينة. فقام سعدبن معاذ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إيّانا تريد؟ قال: «أَجَل». قال: قَد آمنا بكَ وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هُوَ الحقّ، وأعطَيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة... فامض يا رسولَ الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك ما تخلف منّا رجل واحد، ولا نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبْر عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء. ولعل الله تعالى يريك مِنّا ما يُقِرّ به عينَيك فسِرْ بنا على بركة الله تعالى فنشطه قولُه.

ثم قال ﷺ: «**سيروا على بركة الله تعالى فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين، واللَّهِ لَكَأَني أَنْظُرُ إلى مَصارِعِ القوم**». ويتبين من ذلك أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكونوا كذلك وهو الأكثر.

﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوجه إلى الحرب التي هي من أسباب إعلاء كلمة الله العليا. ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ ظرف لقوله: ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ بعد إعلامك لهم بأنهم ينصرون ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مشبهين بالذين يساقون بالقوة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى علامات الموت وأسبابه. وكانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فيهم فارسان المقداد بن الأسود والزبير بن العوّام. وكان المشركون ألفاً قد استعدّوا للقتال. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ واذكروا منّة الله تعالى عليكم إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل اشتمال من إحدى مبيّن لكيفية الوعد. والطائفتان: القوم المحاربون الغزاة العتاة القاصدون إبادة الأصحاب، والقافلة المجهّزة بأجمل أنواع الطعام واللباس وما يحتاج إليه الناس. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وهي أهل القافلة وما فيها، أو معها ورئيسهم أبو سفيان. والشوكة في الأصل واحدة الشوك المعروف، ثم استعيرت للشدة والحدة وتطلق على السلاح أيضاً ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهره ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بآياته الموحى بها إلى حبيبه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم جملةً من أصلهم، وعلل قوله ويقطع دابرَ الكافرين بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: وإنما يقطع دابر الكافرين ليثبت الحق وهو الإسلام، ويبطل الباطل وهو خرافة المشركين ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الكافرونَ من المشركين وغيرهم، هذا الإحقاقَ والإبطالَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ متعلق بأذكر المضمر، أو بقوله ليحق الحق على اعتبار أن إذ يأتي بمعنى إذا للمستقبل، واستغاثتهم قولهم بعدما علموا أن لا مفر من القتال، أي ربّ انصرنا على عدوك وأغثنا يا غياث المستغيثين، وقول الرسول بعد أن نظر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه وهم ثلاثمائة: «**اللَّهم أنْجِز لي ما وَعَدتَني، اللَّهم إن تُهلِكْ هذِهِ العصابةَ لا تُعبَدْ في الأرض**» ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ أي: بأني ممدكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: بكسر الدال اسم فاعل باب الإفعال أي: حال كونهم جاعلين المؤمنين خلفهم فتكون الملائكة مقدمة الجيش، أو بفتح الدال أي: حال كونهم متبوعين بالمؤمنين أي: جعلوهم أمامهم، فتكون الملائكة ساقة الجيش ومؤخرته. ويجوز أن تكون الملائكة منقسمين

بقسمين: قسم منهم مقدمة الجيش، والآخر منهم مؤخرته فتطبق القراءتان عليهم ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: بشارة ﴿لَكُمْ﴾ بالنصر العزيز لأن المدد من الله، فإذا حلّ حل النصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ بوجودهم بينكم، فإخبار نزولهم تبشير، واستقرارهم بينكم اطمئنان، وحلول النصر المبين ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من الملائكة ولا من غيرهم لأن الرسول ﷺ كان مع الصحابة، وهو أشرف الخلائق أجمعين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب على أمره وقادر على تنفيذه ﴿حَكِيمٌ﴾ في ما يفعله بالدوام.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إذ يَعِدُكُمُ﴾ أو متعلق بأذكر مضمراً. والنعاس أوّل النوم قبل أن يستوعب الإنسانَ. ومعنى الآية: واذكروا إذ يغشيكم النعاس، ويجعله غاشياً ومستولياً على رؤوسكم ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: فتنعسون لحصول الأمن الوارد من الله عليكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ روي أنهم كانوا في أشد حاجة إلى الماء للشرب والتنظيف والطهارة من الحدث، وقد غلب المشركون على الماء، فأنزل الله المطر فأُمْطِروا ليلاً حتى جرى الوادي، فاتخذوا الحياض، وسَقَوُا الرّكابَ، واغتسلوا، وتوضؤوا، وتلبّد الرّمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وذلك الإنزال والتنزيل للماء ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدثين ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وسوسته في قلوبكم بالخوف من العطش ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة بعد إزالة التردد عنها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ على الأرض عند المبارزة والمقابلة والمسافة ولا تنزلق، أي: وتثبت به أقدام الفكرة ويزيد نور البصيرة في أن الله معهم ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلق بمضمر، أي: أذكر، أو متعلق بقوله: ﴿يُثَبِّتُ﴾ أي: يثبت الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أي: وقت إيحائه إليهم ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في تثبيت المؤمنين وإعانتهم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة وإلقاءِ النورِ إلى قلوبهم، أو بتكثير سوادهم في أنظار المشركين أو بالمحاربة في جنبهم ضد الكفار. ومعيتي لكم أني ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الرعب: الخوف وانزعاج النفس بتوقع المكروه. ولما ذكر التثبيت وإلقاء الرعب ومعلوم أنهما مقدمتان لغاية مهمة. ذكرها بقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أي: فاضربوا أيها الملائكة ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالي الأعناق مما يلي الرأس أو نفس الرؤوس ﴿وَٱضْرِبُوا۟﴾ منهم ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، والواحدة البنانة. وقيل: المراد بها مطلق

الأطراف، لوقوعها في مقابلة الأعناق والمَقاتل، والمقصود اضربوهم كيفما اتفق مِن المقاتِلِ وغيرِها.

وقد كثرت الأقوال في أن الملائكة نزلت للبشارة والتثبيت الروحي فقط، أو لهما وللقتال. وكل يقول ما يراه استناداً إلى ما عنده من الدليل. ونحن بعد ملاحظة الروايات وبعد ملاحظة قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مع قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وما روي عن ابن عباس أنه قال: بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلاً يقول أَقِدمْ حَيْزُومُ، فخر المشرك مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه، فجاء فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة**»... لا يبقى لنا شبهة في أن الملائكة قاتلوا فعلاً في بدر بإذن الله تعالى. وما يقال من: أنه لا حاجة إلى إنزال عدد كثير من الملائكة من الألف فصاعداً إذ يكتفى بواحد منهم، فإن جبريل هو القوي الأمين فيكتفى به، وأنهم لو نزلوا للقتال لرآهم المؤمنون، ولو بعضاً منهم، أو أنه لو قاتلوا ما نجا واحد من المشركين... فكله ناشىء عن الغفلة وسوء النظر في أمور الله تعالى، وفي أن الأمور مبنية على أمر صادر وتوجيه من الله سبحانه حسب مشيئته، فجبريل كما يكتفي به في إهلاك القوم كان يكتفي بملك واحد لحمل العرش بدل أربعة في الدنيا وثمانية في الآخرة. وكان يكتفي بسبع من الملائكة على نار الآخرة، وما كانت حاجة إلى تسعة عشر، وبملك لكتابة الأعمال لا إلى اثنين، والله تعالى عالم بأعمال العباد فلا حاجة إلى تعاقب الملائكة صنف لليل وصنف للنهار كما هو المقرّر. ثم لا ينزل الملائكة قليلاً أو كثيراً إلا بأمر الله سبحانه، ولا يلزم من نزولهم للقتال رؤية الناس لهم، فإن الملائكة ألْطَفُ من الجنّ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ كما لا يلزم من نزولهم للقتال أن يباشر الجميع الحرب لجواز أن بعضاً منهم أرسلوا للإلهام والتثبيت، وبعضٌ لأخذ الخطوط الخلفية أو الأمامية، أو أنهم أنزلوا للقتال جميعاً، لكن ما كانَ لكل منهم أمرٌ من الله تعالى إلا لبعض أعمال محدودة وقتل بعض الناس لا غيرُ. فالحق الواضح من نصوص الآية والحديث أنهم نزلوا وشاركوا في القتال ولكن على وجه محدود حسب أمره تعالى.

والقول بأن الحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ يدل على

أنه لم يكن لهم مهمة إلا البشرى ناش من توهم أن الحصر حقيقي وهو ممنوع، فلم لا يجوز أن يكون الحصر في مقابلة النصر؟ يعني وما جعل الله إنزال الملائكة إلا لإلقاء البشارة إلى قلوبكم لا لتحقيق النصر بهم، فإن النصر ليس منهم بل من الله تعالى، ويؤيد ذلك بل ويحققه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

فنقول بإيمان سليم: إنهم نزلوا، وبشروا المؤمنين بإلهام النصر، وثبتوا قلوبهم بأمر الله تعالى، وقاتلوا على ما قدر الله تعالى لهم، فضربوا أعناق المشركين وحدهم، أو مع المؤمنين، فضربوا كل بنان منفردين، أو مع المؤمنين، ولم يتجاوزوا ما قدره رب العالمين لأنهم يحكي عنهم هذا الأدب بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ وبقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور الوارد على المشركين يوم بدر ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وخالفوه أو عاندوهما وعادوهما ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: بالنسبة إليهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الأمر المقرر لكم العذاب الواقع أو ذوقوا ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو مبتدأ خبره محذوف أي: ذلكم واقع فذوقوه مرّاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ذوقوا ذلك مع ما أُعِّل لكم من عذاب الآخرة، لأن للكافرين ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وأنتم كافرون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۘ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب للمؤمنين بحكم مستمرّ كلي فما يقع من الحروب في جهادهم مع الكفار. ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا

لَقِيتُمُ﴾ المحاربين الأعداء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿زَحْفًا﴾ أي: لقاءَ زحف، أو زاحفين، أي: مهاجمين ككتلة واحدة. والزحف: هو الدبيب، ويقال: زحف الصبي إذا دَبَّ على أسْتِهِ قليلاً قليلاً. ثم ينعت به الجيش الدّهم المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كجسم واحد متصل، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ والمعنى: إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالهم، متوجهين لمحاربتهم، أو ماشياً كل منكم إلى صاحبه فلا يدبروا، وتقييد النهي بذلك الوقت لأن الإدبار فيه أفحش بالنسبة إلى الإنسان المسلم الغيور من سائر العيوب ففيه عار الدنيا ونار الآخرة! ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم اللقاء في الحرب ﴿دُبُرَهُۥ﴾ ولو لم يفرّ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: إلا منحرفاً ومنصرفاً عن جهة المواجهة إلى الاستدبار لمصلحة القتال ومكيدة تناسبه، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو إلا منحازاً أو مائلاً إلى جماعة من أصحابه المحاربين ليقاتلوا بخط واحد ونمط مضبوط ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فقد رجع وأوى متلبساً بغضب عظيم كائن من الله ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هي.

والآية تدل على تحريم الفرار من الزحف على غير المنحرف أو المتحيز. أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» **قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: «الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف»**. وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية... أما إذا كان أكثر، كأن يكون في مقابلة واحدة ثلاثة من الكفار فيجوز الفرار. ففرار الواحد من الاثنين فرار، وفراره من الثلاثة ليس بفرار.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين والفاء في جواب شرط مقدر مستفاد من إنزال الملائكة مَدَداً من الله. ومعنى الكلام: وما دام انتصاركم على المشركين كان بإمداد من الله فلم تَقْتُلُوهُم أنتم بقوتكم وشجاعتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿قَتَلَهُمْ﴾ بقدرته ونصره، وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا تقولوا: ضربنا وقتلنا وأسرنا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى يوم بدر إلى وجوه المشركين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ذلك إليهم ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ يعني ليعطي المؤمنين من عنده عطاء حسناً جزيلاً جميلاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم الداعية للإجابة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: العطاء الحسن ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه الجملة المصدرة بأن المفتوحة

معطوفة على اسم الإشارة، أي: المقصد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وإبطال دسائسهم الشيطانية.

وهنا بحثان:

الأول: في المراد بالرمي المنسوب إليه ﷺ. فمنهم من قال: إنه رميه ﷺ بالحصى يوم بدر، وما كان منه، فقد روي أنه ﷺ قال: لما طلعت قريش من العقنقل (اسم موضع)ـ: «**هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها: اللَّهم إني أسألك ما وعدتني**»، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعَلِيّ كرّم الله تعالى وجهه: «**أعطني قبضة من حصباء الوادي**» فرمى بها وجوههم، وقال: «**شاهت الوجوه**» فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، فهذا جاء من عدة طرق، ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى.

وذكر الطيبي: أنه كان يوم حنين. ورده الحافظ السيوطي. وذكر ما في حنين في هذه القصة بعيد جداً. وروي عن الزهري وسعيد بن المسيب: أنه رميه ﷺ يوم أُحد فإن اللعين أبيّاً بن خلف قصده ﷺ فاعترض رجال من المسلمين له ليقتلوه فقال لهم رسول الله ﷺ: «**استأخروا**»، فاستأخروا فأخذ ﷺ حربته بيده فرماه بها فكسر ضلعاً من أضلاعه. وفي رواية خدش ترقوته فرجع إلى أصحابه ثقيلاً، وهو يقول: قتلني محمد، فطفقوا يقولون: لا بأس عليك. فقال: والله لو كانت بالناس لقَتَلَتْهم! فجعَلَ يَخورُ حتى مات ببعض الطريق.

والثاني: وجه الجمع بين السلب والإيجاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ وفيه تأويلات.

والخلاصة: أنه ما دام لا يجوز حملهما على خلق الرمي لأن الخالق هو الله تعالى، فلا يسند إلى العباد حتى يثبت أو ينفي، ولا حملهما على الكسب، لأن كسبهم ثابت بلا شبهة، فإنّ علاقة كل فعل اختياري بالعباد تنحصر في الكسب، فلا يجوز سلبه على معنى سلب الاكتساب وجب حمل المسلوب على جهة الخلق والموجَبِ على الاكتساب أي: ما خلقت الرمي إذ اكتسبت الرمي، ولكن الله رمى وخلق ذلك الرمي بحيث يكون منشأً لتلك الآثار. أو حملهما معاً على الاكتساب لكن برعاية قيدٍ مُوَجّه أي: ما كسبتَ الرميَ بحيث يكون منشأ لحصولِ تلك الآثار منه إذا كَسبْتَهُ صُورةً، ولكنّ الله رَمى وخَلَقه كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ خطاب للمشركين على سبيل التهكم، والمعنى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ حيث نصرالله أعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعْلى والأهدى ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن الحرب مع الرسول وعدائه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: فالإنتهاء عنها خير لكم من الحرب التي لا تنسون ضربها ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى حربه ﴿نَعُدْ﴾ لمعاداتكم، وقد شاهدتم الآثار ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي: لا تفيدكم اليومَ ولا بعدَه إلى الأبد تلك الفئة ولو كثرت عَدَداً وعُدداً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والأمر المقدر المقرر أنّ الله مع المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية... المراد من الآية الشريفة الأمر بطاعة الرسول لأنه هو الذي أتى بأحكام الله تعالى أصلاً وفرعاً. والأمر بطاعة الله تعالى هو توطئة للأمر بطاعة الرسول ﷺ، لأن أحكام الله تعالى أوحيت إلى الرسول، وإطاعته لا يتحقق إلا بطاعته فقد قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: عن الرسول ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن الناطق بوجوب إطاعته ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ كالمنافقين الذين يدّعون السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: مطلقاً أو سَماعاً نافعاً لهم. فكأنهم لَيسوا بسامعين ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ أي: الذين لا يسمعون الحق والذين لا ينطقون به ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والذين أضافوا إلى العيبين عيبَ فقدانِ العاقلة التي عليها مَناط السعادة في الدارين.

والحاصل: أن الإنسان الذي لا يستعمل حواسه في ما يفيده، ولا عقله في ما ينفعه هو ملحق بأفق الأنعام الصم البكم اللّائي حُرِموا من العقول وإحساس الحواس. بل هم أضلّ لأن الأنعام الغير المكلفة لا حَرَج عليها، والإنسان مكلّف ويقع بما ذكر في أسوأ مآل وعاقبة.

ولما كان هنا مظنة سؤال هو: أن الله قادر على إسماعهم الخيرَ والرشد، فلم

لم يسمعهم حتى يسمعوا ويطيعوا؟ استأنف لجوابه بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وحُسْن استعداد لقبول الخير ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ كلامَه وآياتِه البينات وكلامَ الرسل المؤيدين بالمعجزات، لكنه لم يتعلق علمه بذلك بل تعلق علمه تعالى بسوء استعدادهم وإنهم يعارضون الحق وينكرونه، ولذلك لم يُسْمعهم إسماعاً ينفعهم. فاستعمال كلمة (لو) هنا على وضعها اللغوي للدلالة على انتفاء الثاني لانتفاء الأول. كما في قولك لمن بقي أعزب إلى أن شاب: لو تزوجت لاستفدت راحة نفسية من أهلك. فكلمة لو هذه ليست للاستدلال بانتفاء التالي المعلوم على انتفاء المقدم المجهول، بل لبيان أن علة انتفاء التالي المعلوم هو انتفاء المقدم المعلوم أيضاً. ولكن المخاطب غافل عن عليته له. وهذا معنى ما اشتهر بين النحاة من أن لو لامتناع الثاني لامتناع الأول وقد تستعمل كإن للشرط، أي: لتعليق الثاني بالأول في الاستقبال، غير أنها لا تعمل الجزم كما أفاده ابن هشام في «مغني اللبيب» وغيره من النحاة. وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ يعني إن أولئك الكافرين المعاندين في درجة من الاستكبار عن الحق لو أسمعهم الله تعالى بكل لطف ولين ورحمة لتولوا عن قبول الحق لأنهم طُغاة عُتاة، وهم معرضون عن الله ورسوله الأمين.

فالجملتان المصدرتان بكلمة لو جملتان مستقلتان، وكلتاهما تفيد فساد مزاج أولئك الكفرة وسوء استعدادهم وإباء نفوسهم الخبيثة عن قبول الدين ونظامه في العالمين. وليستا مرتبطتين كجملتي قياس اقتراني شرطي كما في قول المستدل: كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجوداً، وكلما كان النهار موجوداً كان العالم مضيئاً حتى يرد اعتراضاً من بعض الأغبياء أن الآيتين قياس اقتراني شرطي من الشكل الأول مع أن النتيجة فاسدة وهي لو علم الله فيهم خيراً لتولّوا، وذلك لأن القياس الاقتراني الشرطي مشروط بكون المقدمتين لزوميتين، وكون كبراهما كلية، والكل منتف. أما انتفاء الأول فلأنه لا يلزم من علم الله بوجود الخير في أي قوم إرسال الرسول إليهم وإسماعهم الكتاب لأنه مضت أيام الفترة على كثير من الناس ولم يأتهم رسول، وكذا لا يلزم من الإسماع التولي والاستدبار بل يناسبه غيرهما. وأما انتفاء الثاني، أي: كلية الكبرى، فلأن القضية المصدرة بكلمة لو مهملة، وهي في قوة الجزئية، ولا يصح وقوعها كبرى في الشكل الأول. ألا ترى فساد النتيجة في قولك كلما كان زيد إنساناً كان حساساً، وقد يكون إذا كان الشيء حساساً كان طيراً، والنتيجة قد يكون إذا كان زيد إنساناً كان طيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان تنشيط لهم على الإقبال على إطاعة الرسول ﷺ فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ﴾ لحكم الله ورسوله وامتثلوا أوامرهما واجتنبوا ما نهيا عنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: إذا دعاكم إلى شرب ماء زلال الشريعة التي تورثكم الحياة الخالدة المباركة الطيبة، وإلى التزام نظام تفيدكم الخلود في العلو والاعتبار، فمن لم يشرب زلال الشرع فهو ميت ساقط في وادي الضلال، ومن لم يلتزم النظام بقي حيران في الهيام ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: واعلموا أن الله قريب منكم جداً بحيث كأنه بينكم وبين قلوبكم أي: ومطلع على أسرار غيوبكم، فيجازيكم بحسب عزائمكم ونياتكم. أو اعلموا أن الله يقدر أن يحول قلوبكم إلى صفة الاستكبار والعناد والاستكبار بحيث ينقلب إلى أعمال فاسدة، وأخلاق كاسدة، وعقائد خاسئة جاحدة. والقلب مورد للتقلبات والانحراف نحو الأشياء النافعة والضارة، فاغتنموا أوقاتَ سلامتها، فإن الرسول ﷺ جاءكم لتوجيهكم إلى ملاحظة الخيرات، ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أن الشأن عبارة عن أنكم تموتون وتبقون أزمنة في البرزخ بين الدنيا والآخرة، ثم يحييكم ويبعثكم من القبور ثم إليه أي: إلى حسابه وميزانه ولقائه تحشرون.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: واحفظوا أنفسكم من عذاب ناشىء من مخالفة أوامر الرسول إذا نزل عليكم عم الظالمين منكم على حسب بغيه وعناده جزاء وفاقاً، وغير الظّالمين منكم على جريان سنته السنيّة، بأنه إذا أراد إهلاك الملزوم أراد إهلاك اللازم، وإذا أراد فَناء العَرَض أراد فَناء الجوهر، وإذا أراد إماتة الوالدين العاصيين أراد افتقار اليتامى إلى الناس، وإذا أراد إهلاك عُتاة ظَلَمة أراد إتعاب أتباعٍ مِن حولهم من الخادمين، وإذا أراد إهلاك قوم بالقحط والجدب أراد إهلاك حشرات الولاية بإمحاء ما تعيش به من النبات

والحاصلات... ومع ذلك فكل مكلف يبعث على نيته على أن الله مختار في تصرفه في كل موجود، وهو الذي في كل فعاله محمود. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تعدى حدود الأحكام وأبى قبول الإسلام.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ في العدد، وضعيف في العُدَد في الواقع و﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ عند الأعداء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة وما حولها ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يأخذونكم بسرعة خاطفة فيبيدوكم عن بكرة أبيكم، أو ينقلونكم إلى بلاد أخرى ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة أرض المعيشة والاسترخاء فزدتم عدداً وعُدَداً ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ وأخرجكم من الضعف والاستضعاف والهوان بمناصرة الأنصار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المكاسب والغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والشكر بالنسبة إليكم عبارة عن الاستقامة على ما تقرر لديكم من كتاب الله وسنة رسوله، والعمل بمقتضاهما ليزيدكم بذلك نعماً تتوالى عليكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الخون النقص، والوفاء الإتمام. والمراد بالخيانة هنا: عدم العمل بما أمر الله به ورسوله ﷺ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خيانة الله تعالى بترك فرائضه، وخيانة الرسول بترك سنته، وارتكاب معصيته. ولعل ذلك على ملاحظة الاختصاص المستفاد من المتعلقين وإلاَّ فخيانة أي واحد منهما خيانة للآخر لأن الحكم حكم الله والبلاغ من رسول الله ﷺ. عن عبد الله بن أبي قتادة قال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة بن عبد المنذر إلى قريظة، وكان حليفاً لهم لينزلوا على حكم رسول الله، فاستشاروه في ذلك فقالوا له: ما هذا الأمر؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. فنزلت الآية. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني خُنْتُ اللَّهَ ورسولَه. رواه سعيد بن منصور وابن المنذر.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بمخالفة الأمر والنهي ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ معطوف على المجزوم قبله أي: ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، فإن العصيان مع العلم أشدّ منه مع

الجهل. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة بمعنى الإثم أو العقاب أو الابتلاء. وحملت على الأموال والأولاد لأنهما سبب الوقوع فيهما فإن مساعي الإنسان غالباً لجمع الأموال ولصيانتها، وذلك لرعاية الأولاد وصيانتهم، فهي السبب في المشاغل والمشاكل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن اختار رضاه على ما سواه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية... نداء للمؤمنين وإرشاد لهم إلى وسبلة النجاح في الدارين فيقول لهم: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حق تقاته بالاحتراز عن الكفر وسائر الكبائر وأداء الواجبات ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: هداية ونوراً يفرق به بين المؤمن والكافر، أو تفرقون به بين الحق والباطل، أو قوة وتأييداً ونصراً يفرق به بين المحق والمبطل، أو تمييزاً من أهل العذاب بعطايا ومثوبات حسنةٍ ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فلا تُعذّبون بها في الآخرة. كما قال ﷺ في شأن أهل بدر: «**لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم**». ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا مانع له من اختصاص أي عبد بما شاء من الإحسان.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ نزلت في تآمرهم عليه ﷺ وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصارِ ومُبايَعَتهم اجتمعوا في دار النّدوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: مِن نَجْدٍ سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم وأن تسمعوا مني رأياً ونُصْحاً، فقال أبُو البحتريّ: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدّوا منافذَه غير كُوَّة تُلْقُونَ إليه طعامَه وشرابه منها حتى يموت. فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتِلُكم من قومه ويخلّصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صَنَع. فقال: بئس الرأي! يفسد قوماً غَيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كلِّ بَطنٍ غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم، فإذا طَلَبوا العقل عَقَلْنا. فقال: صدق هذا

الفتى. فتفرقوا على رأيه. فأتى جبريلُ النبيّ ﷺ وأخبره بالخبر، فبيّت عليّاً رضي الله عنه في مضجعه، وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثائق محبوساً في بيت، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة إلى بلد بعيد لا ترجع منه بسهولة إليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ أي: ويحتالون بكل وجه في دفعك، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ ويردّ مكرهم ويجعل وخَامَته وسوءَ عاقبته عليهم، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن المكر إذا كان من مباشرة أدقّ طرق الوصول إلى المأمول فالله أعلم وأقدر على ذلك وإذا كان بمعنى الحيلة في دفع الأذى فالناس يحتالون في دفع الخير وهم فيه مخطئون، والله سبحانه إذا فعل شيئاً من ذلك الباب فهو عامل بالحق وعالم به، ولا يصل أحد إلى علمه وعمله ورعايته الحق في مباشرة الأمور.

وادعى كثيرون أن المكر لا يطلق عليه تعالى دون مشاكلة لأنه حيلة تجلب بها مضرة إلى الغير وذلك مما لا يجوز في حقه تعالى. وردّ بأن حقيقة المكر: العمل بدقة في دفع مكروه عند الماكر، ولما كان الناس يخرجون من الحق إلى الباطل في ذلك صار المكر مذموماً. وأما إذا كان باقياً على نهجه وهو إتقان العمل فلا امتناع منه. وينسب إلى الله بدون المشاكلة. نحو ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ نَزَلتْ في النضر بن الحرث من بني عبدالدار وكان يسافِر إلى فارس وأرض الحيرة فيسمع أخبار رستم وأسفنديار

وأمثالهما، وكان يمرّ باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل، فهو الذي قال: لو نشاء لقلنا، وإنما أسند إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ لأن اللعين كان رئيسهم وزعيمهم الذي يقولون بقوله.

﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي: مثل هذا القرآن، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأساطير جمع أسطورة، كأحدوثة وأحاديث، ومعناه ما سُطِر وكتب. وفي القاموس: الأساطير الأحاديث لا نظام لها، جمع أسطير وأسطار وأسطور، وبالهاءِ في الكل. وقول ذلك البعيد كان عن مكابرة وعناد، وإلا فالله سبحانه وتعالى تَحَدّاهم بمثله وبعَشْرِ سُوَرٍ مِن مثلِهِ وبسورة واحدة، فلم لم يأتوا به؟ ولو كانوا يأتون به لحُفِظَ ونُشر في العالم، ولم يكن فلم يقع. ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أي: المشركون، لأنهم على أفجر قلب واحد، وإلا فالقائل النّضر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير. أو أبو جهل على ما أخرجه البخاري فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إن محمداً هو رسول الله وأكرمه الله بيننا بالرسالة، أو إن القرآن كلام الله تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأجاب الله عن كلمتهم الشنعاء بقوله الكريم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأنهم أرادوا عذاب الاستئصال وقد تعلقت إرادتي ببقائك وبقاء كثير من القوم المشركين، لأنه علم الله إيمانهم، أو أنه سيخرج منهم أولاد مسلمون عالمون عابدون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: وفيهم من يستغفر كالمستضعفين من المسلمين، أو كبعض من الكفرة بناء على قبول دعاء الكفار. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ أي: أيّ شيء حصل لهم ممّا يمنع تعذيب الباري تعالى لهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وحالهم المستمر منع المسلمين وصدهم عن زيارة المسجد الحرام؟ وما كانوا أولياءَه أي: وما كانوا مستحقين ولاية المسجد الحرام ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك وسوء التربية والمبتغون لإطاعة الباري تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه. فهم في جهلٍ مركبٍ مُتَعمّقون. ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: المسجد الحرام ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيراً وصياحاً ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقاً بضرب إحدى اليدين على الأخرى، كما هو دأب الجاهلين. فلا يتوهمنّ أحد أن المشركين كانوا على شيء من العبادات والصلاة التي هي صلَة بين العباد وبين الله ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ المعهود الذي طلبتموه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله ورسوله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية... نزلت على ما روي عن الضحاك في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل يوم عشرَ جُزُرٍ. أو في أبي سفيان استأجر ليوم أُحُد ألفين سوى من استجاش من العرب، أي: أتاه من الجيش عن طلبه، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا.

ومعنى الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من المطعمين الناس يوم بدر ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليمنعوا الناس عن الإرشاد في سبيل الله ونشر الإسلام في ربوع الأرض ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: أموالهم في مناسبات أخرى ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: تكون تلك الأموال المصروفة في تلك المصارف حسرة وأسفاً على قلوبهم لأنهم صرفوها ولم يصلوا إلى أيّ نفع عاجل أو آجل، بل وصلوا إلى ضرر عاجل بضياع أموالهم، وضرر آجلٍ بورود العذاب والعقاب عليهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في أماكن أخرى عند اللقاء ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: استمروا على الكفر منهم ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يساقون إلى جهنم ليعذبوا بالنار فيها وإنما يحشرون إليها ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: الكافر من المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المحشورون إلى جهنم ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدارين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: للمعهودين منهم، وهم أبو سفيان ومن معه ﴿إِن

يَنتَهُوا﴾ عما هم عليه من معاداة الرسول ﷺ ومن دخلوا أو يدخلون في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الذنوب ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ إلى معاداته ﷺ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله تعالى بإهلاكهم وإصابتهم بأنواع من الأذى والبلاء. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يكون ولا يوجد منهم إشراك بالله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني ليضمحل جميع الأديان الباطلة بإهلاك أهلها ويبقى الدين الحق لله ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: ناصركم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

الجزء العاشر

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما يقع عليه اسم الشيء، وهو الموجود قليلاً أو كثيراً غالياً أو رخيصاً، حتى الخياط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم، والمراد أنه مال أعطاه الله ورزقه. ويقسم بين الخمسة المذكورين بعد، والحكم ثابت مستمر غير أن سهم الرسول ﷺ يُصْرف إلى ما كان يصرفه إليه في حياته من مصالح المسلمين. وقيل: يوزع على الأصناف الأربعة الباقية. وقيل: يعطى للإمام يصرفه حسب رأيه المشروع. وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: سقط بوفاته ﷺ سهمه وسهم ذوي القربى. وصار الكل مصروفاً إلى

الثلاثة الباقية، وإذا كان من ذوي القربى مسكين يؤتى من سهم المساكين. وعند مالك ﷺ الأمر فيه موكول إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وقال أبو العالية بظاهر الآية فيقسمه ستة أقسام ويجعل سهم الله إلى الكعبة إن كانت قريبة، وإلا فإلى مسجد كل بلدة وقع فيه الخمس كما قاله ابن الهمام ﷺ تعالى. وذوو القربى بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلا بنو عبد شمس وبنو نوفل، ويعطون على مذهب الشافعي ولو كانوا أغنياء. وعند أبي حنيفة لا يعطون إلا عند الحاجة بالفقر والمسكنة. والآية نزلت ببدر وقيل: الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. والأخماس الأربعة الباقية تصرف للغزاة. فعند أبي حنيفة ﷺ: للفارس سهمان، وللراجل سهم واحد. وذهب الشافعي ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم؛ على أن الفرس له سهمان ولصاحبه سهم واحد، وللراجل سهم واحد. وذلك قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن رحمهما الله وتعليل الأئمة في ما ذهبوا إليه وتفصيله في كتب الفقه، فارجع إليه إن شئت.

فيقول الباري تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ شرط وجزاؤه ما تقدم عليه، أو محذوف وهو دليل على المحذوف، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ معطوف على اسم الله الكريم. والعبد محمد ﷺ والإضافة للتشريف ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ ظرف لقوله ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أي: يوم بدر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بدل منه. والجمعان: جمع الموحدين لله، وجمع المشركين به. وما أنزل فيه يستوعب الآيات البينات، والملائكة الكرام المبشرات، والنصر العزيز المنتشر نوره في الكائنات. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فيقدر أن يجمع الناس وينفع بعضهم ويضر الآخرين، ويرفع بعضهم ويخفض الآخرين. وينزل آيات الأحكام لأهل الدين.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بدل من يوم أو مفعول اذكروا المقدر. والعُدوة بالحركات الثلاث شط الوادي. والمراد بالدنيا القربى بالنسبة إلى المدينة المنورة، وكان محل المسلمين. وبالقصوى البعدي بالنسبة إليها، وكان محلاً للمشركين. أي: واذكروا زمان وجودكم في العدوة وأنتم في العدوة القربى، وهم في العدوة البُعْدى ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: وعير قريش كان أسفل

منكم بنحو ثلاثة أميال على طريق الساحل ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: ولو تواعدتم أنتم يا أهل الإيمان مع أهل الإشراك في تعيين زمان للقتال لاختلفتم هيبة ورهبة من الكفار وعَدَدهم وعُدَدهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ولكن تَلاقيتم على غير موعد بينكم ليقضي الله أمراً، وهو إفاضة النصر للمؤمنين، وإبادة المشركين وكان ذلك الأمر ثابتاً وجوده حسب علمه الأزلي.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليموت من يموت من الناس عن حجة عايَنَها، ويعيش من عاش عن حجة شاهَدَها. ومعنى ذلك أنه هلك الكافرون في حال وجود الحجة على أنهم غضب الله عليهم وسلب عنهم النصر من حيث أنهم مع كثرة عددهم ووفرة مُعَدّاتهم وحصانة محلهم قضى الله بنصر المؤمنين ودمار الكافرين حتى يكون الأمر دليلاً واضحاً على أنهم كانوا كافرين كاسدين فاسدين. والمؤمنون نَجَوا مَعَ قلة عددهم وزادهم وأسبابهم وفساد محلهم ليكون انتصارهم معجزة دالة على صدق الرسول في أمر الرسالة وجلالة قدره وعظمة أمره. وذلك لأن عسكر الرسول في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهْبَة، ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيها أرجُلُهم، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد وحصول الآلات والأدوات لأنهم كانوا قريبين من الماء، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي، ولأن العير كانوا خلفَ ظهورهم، وكانوا يتوقعون مجيء المدد إليهم ساعة فساعة. ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية، وجعل الغلبة للمسلمين والدمار للكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ فيما أخبر به عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر فقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة الظاهرة. والمراد من البينة هذه المعجزة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر الكافرين وعقابهم وإيمان المؤمنين وثوابهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ بدل من يوم الفرقان أو متعلق بأذكروا، والجمهور على أنه ﷺ أُرِي ما أُري في النوم. والمعنى واذكر إذ يريكهم الله أي: يريك الكافرين في منامك قليلاً حتى تخبر أصحابك عنهم فيكون ذلك تثبيتاً لهم ﴿وَلَوْ

﴿أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: لو أراكهم الله كثيراً لأخبرت أصحابك بذلك وخافوا وجبنوا عن الإقدام على الحرب وفشلتم فيها ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الإقدام على القتال، وتفرقت آراؤكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: أنعم عليكم بأن سلمكم وصانكم عن التنازع والفشل ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بالأمور والخواطر التي تختلج في الصدور ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ واذكر إذ يريكم الله أعداءكم المشركين قليلاً، حتى قال ابن مسعود ﷺ لمن بجنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. وكل ذلك كان لتثبيت المؤمنين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب محمد أكلة جزور. وكان هذا قبل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال ليَجْتَرئوا عليهم، ويتركوا الاستعداد، ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا، وذلك ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليحقق في عالم الأعيان كائناً موجوداً في عالم الصور العلمية ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ عسرها ويسرها.

وفي روح المعاني ما نصه: وذهب بعض أصحاب المكاشفات وأرباب المشاهدات من الحكماء والصوفية إلى أن الرؤيا مشاهدة النفس صوراً خيالية موجودة في عالم المثال الذي هو برزخ بين عالم المجردات اللطيفة المسمى عندهم بعالم الملكوت، وبين عالم الموجودات العينيات الكثيفة المسمى بعالم الملك. وقالوا فيه موجودات متشخصة مطابقة لما في الخارج من الجزئيات مُثُلٌ لَها قائمة بنفسها مناسبة لما في العالمين المذكورين. أما لعالم الملك فلأنها صور جسمانية شبحية، وأما لعالم الملكوت فلأنها معلقة غير متعلقة بمكان وجهة كالمجردات حتى أنه يرى صوراً مثالية لشخص واحد في مرايا متعددة، بل في مواضع متكثرة كما يرى بعض الأولياء في زمان واحد في أماكن متعددة شرقية وغربية. ثم إن لتلك الصور مجالي مختلفة كالمرايا والماء الصافي والقوى الجسمانية سيما الباطنة إذا انقطعت عن الاشتغال بالأمور الخارجية العائقة، إذ بذلك يحصل لها زيادة مناسبة لذلك العالم كما للمتجردين عن العلائق البشرية. وإذا قويت تلك المناسبة كما للأنبياء عليهم السلام والأولياء الكمل قدس الله تعالى أسرارهم ظهرت في القوى الظاهرة أيضاً، ولهذا كان النبي ﷺ يشاهد جبريل عليه السلام حينما ينزل الوحي والصحابة ﷺ حوله كانوا لا يشاهدونه. هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداء عام ودعوة شاملة فيقول لهم: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من المشركين وغيرهم من مناصريهم ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ للقائهم وداوموا على الجهاد ولا تولوهم الأدبار أي: إلا متحرفين أو متحيزين ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ باللسان أو الجنان بالدعاء لدفع البلاء، أو بالشكر والثناء على الآلاء، أو بالتوجه إليه بالنداء نحو يا الله عليك التوكل وبك الاعتماد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بمرامكم في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل سلب وإيجاب، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء على الأهواء ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ أي: فتضعف قوتكم وتجبنوا عن اللقاء والمقاومة، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والريح يستعمل مجازاً بمعنى الدولة لتشبهها بها في نفوذها ودخول أمرها في الأقطار. وبمعنى ريح النصر وكلا المعنيين مناسب؛ لأن في التنازع إنحلال الدولة وزوال النصر ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على ما أصابكم من القتل والجرح والآلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومن الحكمة لا تبقى صدمة مع الصّبر.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وهم أبو جهل وأتباعه حين خرجوا من مكة لحماية العير ﴿بَطَرًا﴾ أي: فخراً أو شراً ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وأصل رئاء: رئاي، قلبت الياء همزة لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة والعين ياء لكسر ما قبلها. ونَصْبُ المصدرين على التعليل أو على الحالية. ورئاء الناس معناه ليثنوا عليهم بالسماحة والشجاعة.

روي عن ابن عباس ﷺ لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: أن ارجعوا فقد سلمت العير فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ونشرب

الخمور وتعزف علينا القينات، ونطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا بدل الخمور، وناحت عليهم النوائح بدل القينات، وكانت أموالهم غنائم بدلاً من بذلها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف على جملة ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ ويجوز عطفها على المصدر على الحالية لا التعليل لأن الجملة لا تكون مفعولاً له وصدهم عن سبيل الله صدهم عن دخول الناس في الإسلام ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: واذكر إذ زيّن الشيطان لأبي جهل ومن معه أعمالهم بإلقاء الأنانية والبطر في قلوبهم بصورة الوسوسة، ﴿وَقَالَ﴾ إلقاءً وإيهاماً: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾ أي: عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ وأنا مجير وحارس وحافظ، وكلّ ذلك على منهج قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ زخرف القول غروراً ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان فريق الجنة وفريق السعير ﴿نَكَصَ﴾ أي: رجع القَهْقَرى ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ حال مؤكدة للعامل، أي بَطَل كيدُه وتندم ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من مناصرتكم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾: أي: أرى إمداداً من الملائكة لا ترونهم أنتم، ومعنى ذلك إنهم منتصرون وأنتم منكسرون ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: أخاف الله عليكم حيث يهزمكم ويخزيكم ويجازيكم، أو على نفسي لأن لعذاب الله درجات بلا حساب ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كلام رب العالمين، أو تتمة ما قاله اللعين.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد، وهم فئة من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر. منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، والعاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لقوم أولي بأس بنية أخذ عيرهم أو قتال أصحابها ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والعزيز غالب لا يغلب، والحكيم صاحب العلم الشامل والقوة الكاملة بحيث إذا عمل شيئاً أتقنهُ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب مع الرسول ﷺ أو لكل أحد ممن له قابلية الخطاب ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ إذ الملائكة تقبض أرواحهم، والجواب لرأيت أمراً مهولاً، وحال الملائكة أنهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريق. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك الضرب والعذاب والقول الإنذاري بسبب ما قدمت جوارحكم وقلوبكم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ معطوف على ما في ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ أي: وبسبب تقرر أن الله ليس بظلام للعبيد، وإلا فجاز أن يعذبهم بغير ذنب، أو بذنوب غيرهم. ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: دأب هؤلاء الكافرين الذين عذبتهم الملائكة كدأب فرعون وآل فرعون ﴿و﴾ دأب الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وهو أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ والرسل الذين نزلت هي عليهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يسيطر على الطغاة العتاة والبغاة الماردين، الذين تكبروا وخرّوا لهواهم ساجدين، وأبوا أن يكونوا لله عابدين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور المقرر من سببية الكفر والطغيان للعذاب بسبب تقرير ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ سابقاً ولا يكون لاحقاً ﴿مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال والأعمال التي كانت تناسب النعمة المستفادة، ولو كانت حالتهم السابقة سيئة لأن الله سبحانه وتعالى لا يباغت الناس بجزاء الأعمال فقد تكون بعض الأعمال السيئة السلبية مقرونة ببعض الأعمال المناسبة الإيجابية فيسامح عنها ولا يستعجل بعقوبتها إلى أن يتجاوز أصحابها إلى الإتيان بأعمال أخرى أقسى وأقصى فينتقم الله منهم، ويأخذهم الله نكال الآخرة والأولى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال و﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والأعمال، ومن راقب بهذه الدرجة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فيجازي ويعاقب.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ﴾ من السابقين واللاحقين في الكفر والاستكبار، ومعاندة الرسل الأخيار ﴿كَانُوا ظَـٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والعناد وغيرهم بالظلم والإفساد.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ شروع في بيان أحوال سائر الكفرة بعد بيان أحوال الهالكين بالعذاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وأصروا على الكفر وتمكنوا فيه لأن الإنسان ممتاز عن سائر الدواب بالعقل، وفائدة العقل الفرق بين النافع والضار، وجلب النافع والاجتناب عن الضار، فإذا لم يستفد من عقله كان حكمه وشأنه كالدواب، ولما كان من المكلفين من سعى الله في قبولهم للدين ولم يقبلوه صاروا أفسد من الدواب لعدم توجه التكليف إليها. وقوله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حكم مترتب على تماديهم في الكفر والعناد الشديدين.

﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول، أي: الذين أخذت العهد منهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ أي: عهدهم الذي أخذت منهم ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نقض العهد وإخلاف الوعد.

ثم شرع في بيان الأحكام المترتبة عليهم فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: فإذا صادفتهم وظفرت بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ يعني ففرق بهم من كانوا خَلفَهم، يعني أفعَل بهؤلاء الكفرة الناقضين للعهد نوعاً من التنكيل والتعذيب حتى يتشرد من خلفهم من الخوف والفزع، ويخافوا منك ولا يأمنوا ولا يستريحوا في ديارهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لعل من خلفهم يتذكرون ويعتبرون بأحوال أولئك الكفار الناقضين.

ثم ذكر حكم أناس لم ينقضوا العهد، لكنهم مشارفون على نقضه فقال:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ معكم ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ العهد ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: على طريق عدل مستوٍ بأن تبين لهم أسباب نقض هذا العهد وتخبرهم إخباراً واضحاً بذلك. ثم علّل الحكم بنبذ العهد إليهم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلا تحبهم أنت أيضاً اقتداء بالله العلي العظيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: ولا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين على الناس متقدمين عليهم بالفضائل، بل إنهم مغمورون بالرذائل، أو سابقين في الميدان وفائتين عن الحساب ولا يحاسبون بل يأتي بهم الملائكة الذين أمروا بالإتيان بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله تعالى.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم﴾ الخطاب لكافة المؤمنين لأن إعداد العدة من وظائف الكل، ولكن الأمراء وأهل الحل والعقد منهم أدخل في الخطاب لأن إعداد العدة يحتاج إلى الثروة، ونفوذ الأمر، وتعلم العلوم، ولا مجال فيها للضعاف. ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ القوة تشمل كل ما يتقوى به الإنسان في الحرب من العلم والتدريب والرياضات البدنية والسباحة والرماية للسهام أو البندقية أو المدافع أو الطيارات والسيارات والسفن الحربية وطرق استعمالها والاستفادة منها. فذكر قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ تخصيص فرد من العام بالذكر للإهتمام به. فكل ما روي من التفاسير للقوة بيان بعض من المحتملات أو فرد من المتناولات. والرباط بمعنى المربوط في سبيل الله على أن فعال بمعنى المفعول وإضافته إلى الخيل لبيان أحسن أنواع المركوبات في وقت النزول، لأن الجهاد على الخيل خير من الجهاد على الحيوانات الأخرى، للسرعة في الكر والفر وخفة البدن ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ المخالفين لأمره من الكفار والبغاة ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ المتربصين بكم

الدوائر ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي من غيرهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لا غير. والمراد بعدو الله وعدوكم بحسب ذلك الوقت: المشركون، والمراد بالآخرين هم اليهود كبني قريظة وغيرهم سائر الكفار المتربصين بالمسلمين الدوائر. وأما بالنسبة إلى ما بعد زمان الرسول ﷺ هم الكفار المجاورون المعاندون للدولة الإسلامية، والمراد بالآخرين غير المجاورين من سائر الكفرة والمخالفين. ولا شك في تطبيق الجملتين عليهم، لأن الله يعلمهم، ونحن لا نعلمهم فإن كثيراً من الكفار يظهرون للمسلمين بمظهر الأصدقاء وهم في الواقع أعداء ألدّاء.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ قليل أو جليل ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يؤدي جزاؤه إليكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بترك الإثابة أو بنقصها، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين، أي: وإن مالوا إلى السلم وترك العداء والعُدوان ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فوض أمرك إليه في دفع الضرر من مكائد يطوونها قي قلوبهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون سراً و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، وبما يخفونه منكم.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ عز وجل ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ العزيز بلا واسطة أو بها ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بصلاحهم وسلاحهم، وبأقوالهم وأفعالهم ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ تأليفاً لم يؤلف في عالم البشرية مع ما جبلوا عليه من العداء المتوارث في الحروب والوقائع الجارية سابقاً ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وسلمته إليهم بشتى وسائل التسليم أكلاً وشرباً ولبساً وإسكاناً ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن شأن المادة لا يتجاوز العادة، وليس من آثار صرف المادة إلا إسكات النفوس عن الحركات الطائشة، ولا يكتب بها صفاء القلوب واستراحة الأرواح، وإنما يكتسبان من الرحمة النازلة منه تعالى عليها، ويختص برحمته من يشاء كما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ نفساً وروحاً، قلباً وقالباً ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في إضافة المادة إلى المعنى وإفاضة الأنوار على كل شخص بقدره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال، والظاهر على هذا شمولها للمهاجرين والأنصار. وعن الزهري أنها نزلت في الأنصار. وعن ابن المسيب أنها نزلت يوم أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكملاً أربعين مسلماً ذكوراً وإناثاً، وهن ست، وحينئذٍ تكون مكية. وأما إعرابها: فحسب مبتدأ مضاف إلى الضمير، واسم الجلالة خبره، أو بالعكس،

ومن اتبعك إما في محل النصب على أنه مفعول معه كقول القائل: فحسبكَ والضحاك سيفٌ مُهَنّد. أو في محل الجر عطفاً على الضمير المجرور وهو جائز عند الكوفيين بدون إعادة الجار. أو في محل الرفع إما على أنه مبتدأ والخبر محذوف أي: ومن اتبعك من المؤمنين كذلك أي: حسبهم الله تعالى. وعلى هذه التقارير يكون حاصل المعنى: يا أيها النبي إن الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين. ويؤيده الاستقرار لآيات القرآن في موضوع الكفاية فكلها دالة على أن الله هو الكافي لجميع عباده وحده. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾. وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾.

وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: وحسبك من اتبعك، وإما على أنه عطف على الاسم الجليل واختاره الكسائي وغيره، وإن ضعف بأن الواو للجمع ولا يحسن أن يقال حسبك الله ومن تبعك كما لا يحسن الجمع في قول القائل: ما شاء الله وشئت. وعلى هذا تؤول الآية بأن الله حسبك في العناية والوقاية، ومن اتبعك حسبك في التعاون والرعاية. وإذا جعلنا البشر بعضهم عوناً لبعض فلا مانع منه، وقد قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وقد جرت سنته في العالم بأن يجعل بعض أعمال العباد سبباً لبعض آثار خيرية للعباد، فليكن المؤمن من الأسباب لصيانة الرسول وأمانته ونشر دينه في الآفاق ونصرته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ التحريض: أن يحث الإنسان على شيء حتى يعلم منه أنه حارض أي: مقارب للهلاك، فيقول سبحانه وتعالى للرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ رغب بقوة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قتال الكفار ﴿إِن يَكُن

مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ أي: مائة صابرة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: ذلك الحكم ثابت بسبب أن الكافرين جهلة لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فليست لهم نية قوية تكون سبباً لثبات يليق بالمحارب. وذلك لكفرهم بالله واليوم الآخر. وإن يكن منكم ألف يغلبوا عشرة آلاف بتوفيق الله وتأييده لعباده بالنصر المبين.

ولما أوجب الله تعالى على المؤمنين مقاومة الواحد منهم للعشرة من الكفار في صدر الإسلام، وكان ذلك لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين، وقد كثر المسلمون بعد ذلك، وكان مما يثقل عليهم مقاومة الواحد للعشرة، نسخ الحكم السابق بوجوب مقاومة الواحد للاثنين وقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في البدن بكثرة ممارسة الأسفار والحروب ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقال المكي: إنها ليست ناسخة للآية الأولى وإنما هي مخففة لحكمها كالفطر للمسافر ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسرى فيهم العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترون في هؤلاء الأسرى»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى أن يتوب عليهم. وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدِّمهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأضرم عليهم ناراً. فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك! فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن

رواحة. فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله لَيُلين قُلوب رجال حتى يكون ألْيَنَ من اللبن، وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلكَ يا أبا بكر مثلُ إبراهيم عليه السلام قال: من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**» فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ أي: ما كان مناسباً لحال نبي من الأنبياء، ولك بالذات، أن يكون له أسرى ويراعي أسرى الحرب عنده ويبقيهم ولا يقتلهم حتى يثخن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويغلب على أهلها بالإهلاك والتدمير والإبادة والإفناء، لأن الرسول شأنه التبليغ والإرشاد إلى الدين فإذا أطاع الناس ودخلوا في الدين فبها ونعمت، وإن خالفوا أو عاندوا وأخذوا يقاتلون، واضطر الرسول وأتباعه للقتال دفاعاً عن الدين فحق الرسول أن يقاتل حتى يثخن في الأرض ويبالغ في القتل ولا يدع لهم شوكة وهيبة، فإذا أثخن في الأرض جاز أن يأخذ الأسرى ويرعاهم عنده إلى أن تضع الحرب أوزارها فيعمل فيهم بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين. وأما إذا لم يثخن في الأرض ولم تكن له شوكة فلا يجوز له أن يأخذ الأسرى ويتركهم عنده.

ولما استشار الرسول ﷺ أصحابه ورأى كل ما عنده أخذ يوافق قول أبي بكر رضي الله عنه بإبقاء أسرى حرب بدر، وترك رأي عمربن الخطاب وغيره ممن أشار عليه بقتلهم.. أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة الدالة على أنه لم يكن هذا الرأي مناسباً فإنه في مبادىء القوة والشوكة، وكان الأنسب قتلهم حتى تستأصل شأفة المشركين ومن يواليهم. وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ إلفات نظر الرسول والجماعة إلى أنهم يريدون أخذ الفدية من الأسرى وإطلاق سراحهم، وتلك الفدية عرض الدنيا ومتاعها ولا ثبات له، والله يريد لكم ثواب الآخرة والآخرة خير وأبقى ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ينصر أولياءه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعمل ما يليق بالأحوال ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا مكتوب في اللوح المحفوظ سبق أن لا يعذب قوماً أنت فيهم، أو لولا كتاب سبق بأن ما اقتضاه رأيك بعد المشاورة حق مقبولٌ ﴿لَّمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ مِن الفدية ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، ولكن لما سبق الكتاب تحقق أن ما باشرتموه صواب ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ سواء ما أخذتموه من أموال المحاربين بعد انكشافها، أو من الأسرى كفدية لخلاصهم من القتل حال كونه ﴿حَلَٰلًا﴾ مباحاً، أو أكلاً حلالاً ﴿طَيِّبًا﴾ لا يشوبه ألم مادي أو معنوي ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته و﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ وتحت نفوذكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: يتعلق علمه تعالى بأثر طيب حادث في قلوبكم من الإيمان والتصديق ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالمواهب الربانية والمكاسب البدنية، وفي الآخرة بالمثوبات الحسنة والجنات العلية ولقاء ذات الباري ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ما فرط منكم في مجابهة الرسول وأصحابه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعباده المؤمنين ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أي: نقض ما عاهدوك عليه من أن لا يعودوا لمحاربتك ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۚ﴾ يعني وإن يريدوا الاستمرار على الإشراك ومخالفة الإسلام فلا تهتم بهم ولا تخفف ولا تحزن فإنهم لن يبلغوا ولن يصلوا ما يريدون ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ والرسول ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ وحاربوا مع أن الله تعالى أقدرك عليهم حسبما رأيت في بدر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم و﴿حَكِيمٞ﴾ في شؤونه كيف ينصر رسوله ومن معه، وكيف يكسر ويهزم أعداءه إنه على كل شيء قدير.

ومما ينبغي أن يعلم أن العلماء اختلفوا في أنه هل يجوز للرسول ﷺ أن يجتهد في استنباط حكم ديني أو لا؟ وعلى تقدير الجواز هل وقع ذلك؟ وعلى تقدير وقوعه هل تجوز معارضة اجتهاده باجتهاد شخص آخر؟ وجمهور الأصوليين على أنه يجوز له أن يجتهد لعموم قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فإن الرسول ﷺ كان أعلى الناس بصيرة، وأكثرهم اطلاعاً على شرائط القياس، فيكون مأموراً به. وكان الاجتهاد بالنسبة إليه واجباً فضلاً عن الجواز ولأن الاجتهاد في الأحكام أشق وأدل على الفطانة فلا يتركه. ومن المجوزين لاجتهاده من قال بوقوعه في مسائل، منها: قضية أسرى بدر التي رأى فيها الرسول ﷺ أخذ الفدية عنهم وإطلاق سراحهم. ومنعه بعض منهم؛ لأنه يوحى إليه في ما أشكل عليه وإذا وجد النص فلا مجال للاجتهاد. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ وحكى الإمام في المحصول قولاً ثالثاً أن اجتهاده جائز فيما يتعلق بالحروب ومنها قضية الأسرى. ونقل عن أكثر المحققين التوقف.

والحق ما رآه بعض المحققين وهو أنه وإن جاز الاجتهاد إلا أنه لم يقع، وبيان ذلك أن هناك نصاً واجتهاداً ورأياً مربوطاً بأهل الفكر في رعاية المصالح، أما النص فواضح حيث ينزل عليه ﷺ فيطبق مدلوله. وأما الاجتهاد وهو: استفراغ العالم ما في وسعه من الطاقات العلمية في استنباط حكم من الأحكام، فلم يقع

ذلك منه ﷺ ولو كان ذلك من دأبه ما كان يتوقف في الأحكام إلى أن تنزل الآية لبيانها، وما وقع منه ﷺ في بعض المسائل الدينية كاستثناء الإذخر مما يحرم قطعه من نبات الحرم فهو من الإلهامات الآنية التي وردت على خاطره الشريف، والوحي يشمل الإلهام، وإلهام الرسول ﷺ مصون عن الخطأ.

وما وقع منه في قضية أسرى بدرٍ وأمثالها فلم يكن اجتهاداً، وإنما كان ناتجاً من استشارة أهل الخبرة من أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وهو ﷺ كان مخولاً باختيار ما رآه مناسباً من الآراء. ولم يكن ذلك اجتهاداً وسعياً وتكلفاً لاستنباط الحكم، وإنما كان أخذا برأي كان صواباً عنده. وما نزل بعدها من آيات تدل على تنسيب لغير ما اختاره ﷺ، فلم يكن لتخطئة رأيه وإنما كان لبيان أن رأيه وإن كان صواباً حسناً لكن كان هناك أحسن منه كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وكما في قضية الأسرى هنا. فإن الآية لا تدل على أن الرأي كان خطأ والصواب غيره، بل غايته أن وجود الأسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن لأي نبي سابق حتى يثخن في الأرض ولكنه أبيح لك لمصلحة رأيتها، ولو لم يسبق حكم منا بإباحة ذلك لكم لكان وبالاً عليكم، ولكنه أبيح لكم ولم يرد عليكم شيء.

والحاصل: أن أحكام الرسول ﷺ إما كانت تطبيقاً للآيات المنزلة، أو بإلهام من الله سبحانه وتعالى، أو باعتبار رأي من الآراء الدائرة إذ ذاك. ولما كانت الاستشارة مأموراً بها كان اعتبار ما اختاره ﷺ نتيجة لما أمر الله تعالى به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أخذ الباري سبحانه في بيان مناقب المؤمنين من المهاجرين والأنصار المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ وهم المهاجرون الذين تركوا أوطانهم وأموالهم لأعدائهم، ووصلوا إلى بلاد لم يكن لهم بها أنس وألفة، وتحملوا في الوصول إليها أنواع الكلفة ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: بصرفها في الكراع والسلاح ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: آووا المهاجرين وأنزلوهم في منازلهم، بل وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الجميلة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث على ما هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد، والسدي وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فكان المهاجري يرث أخاه الأنصاري إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري! واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة. فالولاية في الآية الكريمة على هذا الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فلا تنصروهم عليهم لما في ذلك من نقض العهد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ منهم أي في الميراث كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: في المؤازرة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتم به في الآيتين تحصل فتنة عظيمة، وهي اختلاف الكلمة وضعف الإيمان، وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهو سفك الدماء على ما روي عن الحسن.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لا تبعة عليه ولا منّة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ذوو القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: توارث المسلمون لما قدموا المدينة بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. واستدل بها على توريث ذوي الأرحام

الذين ذكرهم الفَرَضِيّون. وذلك لأنها نسخ بها التوارث بالهجرة، ولم يفرق بين العصبات وغيرهم فيدخل من لا تسميه لهم أي: نصيب مسمى كذوي الفروض، ولا تعصيب، وهم ـ هم. وبهما أيضاً احتج ابن مسعود كما أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم على أن ذوي الأرحام أولى من مَوْلى العَتاقَةِ.

سورة التوبة

مدنية، وهي مائة وتسع وعشرون آية

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

ووجه مناسبتها للأنفال أن: فيها قسمة الصدقات لثمانية أصناف، كما فيها قسمة الغنائم لخمسة أصناف، وهنا نبذ العهد وفي الأنفال ذكرها.

وفي ترك كتابة البسملة أولها أقوال: قيل: إن النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية يعين موضعها، وبعد نزول البراءة توفي ولم يبين موضعها، فاختلفت الصحابة أنها مع الأنفال سورة واحدة، أو سورتان ففصلوا بينهما نظراً لكونهما سورتين. وتركوا التسمية نظراً إلى أنهما سورة واحدة.

والحق أنهما سورتان ولم تكتب البسملة في أولها لأن البسملة آية الأمان

والرحمة، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود، وأما قراءة البسملة في أولها ففيها أقوال، والراجح أنه يستحب تركها، ويقرأ القارىء أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ من لابتداء الغاية، أي: هذه براءة واصلة من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والمعنى إن الله ورسوله بريء من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

وذلك أن المسلمين عاهدوا المشركين فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضمرة وبنو كنانة. فأمرهم الله بنبذ العهد إلى الناكثين. وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم؛ لأنها نزلت في شوال. وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه راكباً على ناقته العضباء ليقرأها على أهل الموسم.

وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل منّي، فلما دنا علي رضي الله عنه سمع أبو بكر الرغاء، فوقف وقال: هذه رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحدثهم عن مناسكهم. وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة، وقال: أيها الناس إني رسول الله إليكم فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده.

وإرساله سيدنا علياً رضي الله عنه بهذا، وعدم الاكتفاء ببيان أبي بكر مع أنه كان أمير الحج جار على ما استقر من عادة العرب من أنه إذا عاهد شيخ قبيلة شيخ قبيلة أخرى وجاء وقت لنقض ذلك العهد كان الناقض نفس المعاهد أو واحداً من عَصَابته، لأنهم ما كانوا يقتنعون بنقض شخص آخر من غير عصباته، وإلا فالرسول ﷺ بعث لأداء الأحكام عنه كثيراً لم يكونوا من عترته، فالخصوصية للعهود ونبذها.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ في تلك المدة ولا في غيرها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: إعلام ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ عامةً ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ والمراد به يوم عيد الأضحى، لأن فيه أكثر أعمال الحج، ولما ثبت أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: هذا يوم الحج الأكبر. وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه، وابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، ومجاهد وغيرهم... وعلى ذلك فالحج الأصغر يوم عرفة لأنه يجتمع الناس فيه أيضاً كما يجتمعون في يوم العيد في منى، وفي المطاف، أو وصف الحج بالأكبر لأنه في مقابل العُمرة وهي الحج الأصغر.

وأما تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالأكبر فلم يذكروها كما قاله صاحب روح المعاني، وإن كان ثواب ذلك الحج زائداً على غيره كما نقله الجلال السيوطي في بعض رسائله وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: أذان وإعلام بأن الله بريء من المشركين ورسوله بريء منهم كذلك ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الإشراك ودخلتم في دين الإسلام دين التوحيد، وآمنتم بالله ورسوله وبما جاء به من الله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة والرجوع إلى الله ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتون من مجال نفوذ قدرة الباري ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا أو في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين المذكورين أولاً أو ثانياً لأن المقصود البراءة من عهدهم لا من ذواتهم، لأن الله ورسوله بريئان منهم بلا استثناء وتقييد. ومعنى الاستشهاد حينئذٍ أنهما ليسا بريئين من عهدهم الذي وفوا به، أو من المقدر في قوله ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على معنى قولوا لهم سيحوا في الأرض بدون تعرض لكم أربعة أشهر فقط ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ معهم ووفوا بالعهد ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروطه، وأدوها إليكم بتمامها ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من الأعداء، وهم: بنو كنانة، وبنو ضمرة. وروي عن ابن عباس أنهم حي من بني كنانة ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وقد بقي منها تسعة أشهر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المراعين للعهود.

روي أنه عدت بنو بكر على بني خزاعة في حال غيبة رسول الله ﷺ وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله وأنشده أبياتاً مستنجداً به ﷺ. فقال ﷺ: «**لا نُصِرتُ إنْ لَم أنصركم**».

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي عينت للناكثين لا الأشهر التي حرم الله فيها القتال؛ لأن حرمتها نسخت بالإجماع. وقد صح أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: فأسروهم، واحبسوهم، واقعدوا للاستيلاء عليهم في كل ممر ومعبر ومجتاز يختارونه في أسفارهم ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي: عن الإشراك بسبب الإيمان بالله وحده وبرسوله محمد خاتم النبيين والمرسلين ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ أي: فاتركوهم، بل وباركوا فيهم، أو خلوا سبيلهم إلى طواف البيت؛ لأنه مطاف المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آب وتاب ومات على الصواب.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ظهرت منهم مبادىء الرجوع إلى الحق ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ وطلب منك المجاورة بعد انقضاء المدة المضروبة ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وكلام رسوله ويألف المسلمين وآدابهم ﴿ثُمَّ﴾ إذا أراد أن يرجع إلى محله ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ الذي يأمن البقاء فيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المار ثابت بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإسلام والإيمان، وما كلام الله ورسوله. ويمكن أن يستفيد من الإذن في الجوار ما يدعوه إلى النور ويبعده من النار. ودين الإسلام دين السماح والكرم والاعتبار.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ بيان للحكمة الداعية للبراءة من المشركين الناكثين. والاستفهام لإنكار الوقوع، ويكون تامةٌ، وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف، ومعناه: لا يكون ولا يحصل ولا يتحقق للمشركين الأعداءِ عَهدٌ عند الله وعند رسوله ﴿إِلَّا﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ووفوا بعهدهم ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يراعون العهود ويفرقون بين الناقضين للعهد والماضين عليه. ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا ينتظرون ولا يراعون في المعاملة معكم ﴿إِلًّا﴾ أي: حلفاً أو قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: عَهداً وميثاقاً ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وبألسنتهم المُدَرّبَة على التلفظ بما يشاؤون ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ التزام ما يتكلمون به من المحبة والوداد معكم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله، متمردون عن دينه لا عقيدة لهم تَزَعُهم، ولا مُروءة تَرُدّهُم. وتخصيصُ الحكم بالأكثر أمر لا ريب فيه، لأن في كل قومٍ فاسِدٍ أناساً مخصوصين بقيادتهم إلى الفساد.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المتضمنة للأمر بالتزام الإسلام وإطاعة سيد الأنام ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حُطام الدنيا وشهواتها الوقتية ﴿فَصَدُّوا﴾ وأعرضوا ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ وَهُوَ الدين الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ساء الذي يعملونه أو ساء عملهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ أينما كان ومن أي قوم كان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: حلفاً أو قرابة أو عهداً، لا أنهم لا يرقبون فيكم فَحسبُ بل إن عداءهم عداء للحق والدين وشريعة السماء، ولكن ظهر العداء لكم حسب اللقاء. ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المشركون الموصوفون بالصفات السابقة ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتجاوزون عن الحدود ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عما هم عليه من الكفر وسائر الكبائر كنقض العهد المشروع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي: والتزموا أحكامَ الإسلام وأركانه من كل الجوانب ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وهو

الإسلام؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ المبينة لأحكام الدين اعتقاداً وعملاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق ويميزون بين الحق والباطِلِ لعلّهم يَرْشدون.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ كما نكثوا سابقاً ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ فهم في هذه الحالة أئمة الكفر وقادة الناس إليه ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة، فلا يراعونها بالحقيقة، ويتحولون في كل فرصة ودقيقة ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عما استمروا عليه ويتوجهوا إلى الدين.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ فيه تحريض على قتال أولئك المشركين، فإن الاستفهام فيه للإنكار، وإنكار النفي يفيد الإثبات. فيقول: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ﴾ أي: نقضوا ﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: التي حلفوها عند المعاهدة معكم على أن لا يعاونوا أحداً عليكم، فعاونوا حلفاءهم بني بكر على بني خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: حين تشاوروا أخيراً في دار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ أي: بالمقاتلة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ وذلك يوم بدر. وقالوا بعد أن وصلهم خبر مرور القافلة بسلامة: لا نرجع إلى مكة حتى نستأصل محمداً وأتباعه ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتتركون قتالهم مع كفرهم وإشراكهم وعدولهم عن مقتضى العهود والأيمان خشية أن يصيبكم منهم مكروه؟! ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حق الإيمان حتى تعرفوا أنه يجب الجهد لإزالة الكفر في العالم.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل والجرح والأسر ويخزهم ويلق عليهم الهزيمة الموجبة للخزي ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يجعلكم غالبين عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ من الذين تألموا من جهتهم بشتى الأساليب. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم بطونٌ من اليمن وسبأ قدموا مكة وأسلموا ﴿وَيُذْهِبْ﴾ عطف على يشف ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بما نالهم من الأذى، ولم يتمكنوا من دفعه، ومن أهم الأذى انتهاك محارم الله تعالى والكفر به وتكذيب رسول الله ﷺ ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منهم إن يتوبوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يعمل إلا ما فيه حكمة أو حِكَمٌ وافية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ حق الجهاد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة وصاحب سِرٍّ، لأن علم الله تعالى كما تعلق أزلاً بجميع المعلومات كذلك يتعلق بجزئياتها التي تحدث في المستقبل وهذا التعلق هو تابع لحدوث الحوادث، فإذا لم يتحقق

الحادث لم يتوجه التعلق به ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أخرج أبو الشيخ وابن جرير عن الضحاك: أنه لما أُسِر العباس عيره المسلمون بالشرك، وقطيعة الرحم، وأغلظ عليه علي كرم الله وجهه في القول فقال: تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا: إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونقري الحجيج، ونفك العاني... فنزلت. يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا ينبغي لهم ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: شيئاً من المساجد أيّاً كان. وعن عكرمة: أن المراد به المسجد الحرام، واختاره بعض المحققين. وعبر عنه بالجمع لأنه قبلة المساجد وإمامها، وتتوجه إليه محاريبها ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بإظهار ما يدل عليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ على الوجه الذي نطق به الشرع الشريف ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وجاء بها إلى الرسول في حياته، ثم إلى أمير المسلمين بعده ثم يوزعها بنفسه ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فلم يمنعه شيء من إطاعة الباري جل جلاله ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الناس الموصوفون بالصفات السابقة أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة ونعيمها خالدين ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: أهلهما ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ فإذا كان الأول من المشركين فهو لا يخلصه من السعير، وإن كان من المؤمنين فهو أدنى من الأخير بكثير ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بارتكاب الشرك إلى دار النعيم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ من الذين لم يتصفوا بتلك الصفات، فإن كان المفضل عليه من المؤمنين فهناك مجال لبحث الدرجات، وإلا فلا مجال لبيان التفاوت بين أهل الدرجات وأهل الدركات ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان وما بعده ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنسبة إلى غير المؤمنين فوزاً مطلقاً، وبالنسبة إلى المؤمنين فوزاً مقيداً بزيادة حسب ما اختاره رب العالمين ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ في الدنيا على لسان رسوله الكريم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ واسعة ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ شامل ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ثابت ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في المهاجرين؛ فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه، ولا ينزله، ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم في ذلك.

فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أحباء لكم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ وأصروا عليه بحيث لا يرجى خلاصهم منه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي: كلهم أو بعضهم ﴿مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الودّ والموالاة في غير محلها اللائق. ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي للمؤمنين ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: أهل قرابتكم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ للبقاء فيها

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ وتفارقون الله والرسول وتتركون الجهاد للاستمتاع بملازمة المذكورين والمذكورات ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: فانتظروا حتى يأتيكم الله بعقوبة عاجلة وعذاب آجل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن إطاعة الله ورسوله لموالاة أولئك الأشياء المحقرة في نظر العارفين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ﴾ خطاب للمؤمنين، وبيان المنة عليهم بالنصر على الأعداء. واللام موطئة للقسم أي: أقسم بالله لقد نصركم الله في مواطن ﴿كَثِيرَةٍ﴾، منها وقعة بدر، ووقعة قريظة، والنضير والحديبية، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهو واد بين مكة وطائف فحارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون، وكانوا اثنى عشر ألفاً، العشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة والألفان انضموا إليهم من الطلقاء وهم الذين منَّ عليهم النبي ﷺ فلما التقوا مع الأعداء: هوازن، وثقيف قال بعض المسلمين: لن نغلب اليومَ من قلة إعجاباً بكثرتهم واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وانهزموا كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ أي: الكثرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها وسعتها لا تجدون فيها مقراً تطمئن فيه نفوسكم. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين حتى وصل بعض منكم مكة، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا عدد قليل نحو عشرين شخصاً منهم أبو سفيان ابن الحرث ابن عم الرسول، والعباس عمه. فقال للعباس: صح بالناس وكان صيِّتاً فنادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة. يعني أصحاب بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، أي الذين حفظوها وهم عظماء أصحابه ﷺ ورضي الله عنهم... فكرّوا عنقاً واحداً يقولون: لبيك! لبيك! فاقتتلوا مع المشركين. فقال ﷺ: «**هذا حين حمى الوطيسُ**».

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: رحمته التي سكنوا بها ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، وكانوا خمسة آلاف فغلبوا على الأعداء الألداء ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في هذه الدنيا ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ من بعد ذلك ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منهم بهدايته للإسلام ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ روي أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وقد سبي يومئذٍ ستة آلافِ نفسٍ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال ﷺ: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً. فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه. فقالوا: رضينا وسلمنا. فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا، فرفعوا أنهم قد رضوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ النجس مصدر والإخبار به عن اسم العين للمبالغة، حتى كأنهم عين النجاسة. أو المضاف مقدر أي ذوو نجس في الاعتقاد لفساده وضلالهم فيه، وصفات نفسية خسيسة لخزنهم الحقد والبغض والعداء للمسلمين، بله أحوالهم الفاسدة بينهم وعداء بعضهم لبعض. أو المعنى بمنزلة النجس لأنهم لا يراعون الجنايات والأحداث، ولا يهتمون باجتناب النجاسات في المأكل والمشرب، فمشربهم الخمر ومأكلهم الخنزير. أو إن النجس صفة مشبهة أي قوم نجس ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ والنهي عن القرب كناية عن النهي عن الدخول. وعن عطاء: نُهُوا عن دخول الحرم كله. فيكون النهي عن القرب على ظاهره، وبه أخذ أبو حنيفة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾

أي: فقراً بسبب منعهم عن القرب من المسجد الحرام لأن مجيء أفواج المشركين للطواف يستلزم صرف الأموال في المعاملات والمحاباة والهدايا ونحوها. وإذا منعتم عن الطواف فقد فاتت الفوائد، فلا تهتموا بذلك قليلاً أو كثيراً ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ حيث تفتحون البلاد ويأتيكم الطائفون من كل فج عميق ﴿إِن شَآءَ﴾ زاده لإفادة أن كل عطائه من فضله وإحسانه، ولا يدخل عمله تحت سيطرة الوجوب والإيجاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأرزاقكم ووجوه اكتسابها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تخصيص كل نفس بعطاء.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ما ثبت تحريمه بالوحي ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدين الثابت النازل بالوحي، وهو دين الإسلام ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسه الشامل للتوراة والإنجيل، فإنهم وإن كانوا يدعون الدين ولكنها دعوى فارغة لا تسمع، أو على بطلانها الأدلة القاطعة عن الدليل النقلي المؤيد بالمعجزة. والدليل العقلي البرهاني ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: المال المفروض عليهم إعطاء جزاء لكفرهم وبقائهم في بلادنا إعطاء ناشئاً ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن اعتراف بقدرتنا عليهم، أو مسلمة عن يد إلى يد ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء لحكمنا.

وهذه الجزية مرتبة على وصفين الكفر والبقاء في بلادنا؛ فمن أسلم منهم لا تؤخذ منه، وكذلك من بقي على كتابيته وخرج عن بلادنا. وتؤخذ الجزية أيضاً من المجوسي، فقد قال ﷺ: «**سنُّوا بِهِم سُنَّةَ أَهْلِ الكِتابِ غيرَ ناكحي نِسائِهِمْ، ولا آكلي ذبائحهم**» ويختلف مقدارها بالغنى والفقر والتوسط. وتفصيله في كتب الفقه.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ أي: بعضٌ من متقدميهم، وشاع نسبة العمل القبيح الصادر من بعض القوم إلى الكل مجازاً: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وجه تخصيصهم له بهذه المرتبة الكاذبة المفتعلة أنه كان من المختصين ببعض المزايا الدينية من حفظ التوراة، ورعاية الأحكام، ومعرفة أسبابها. ولكن كل ذلك لا يوجب إلا احترامه بما

يستحقه من العبودية لربه الغني عن العالمين ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾ أي بعضهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ سرى هذا إليهم من ولادته بلا أب، وظهور المعجزات على يده، واستعماله كلمة الأب وإطلاقه على الله العظيم. وليس شيء منها بما يشتبه به أدنى عاقل لاندفاع الشبهة الأولى بوجود آدم عليه السلام بلا أب ولا أم. والثانية: بظهور المعجزات على يد كثير من الأنبياء. وانظروا إلى الناقة الخارجة عن الصخرة بدعاء سيدنا صالح عليه السلام. والثالثة: بأن استعمال الأب والابن كان عرفاً طارئاً وذلك على معنى المرشد والمسترشد. وأين هذا المعنى من ذلك المختلق؟! ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الصادر من الفريقين ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ لا قولهم بقلوبهم أي: قول بلا برهان ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وجملة قاتلهم الله دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله فلا شك هالك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى لعنهم الله، وهو معنى مجازي لأن اللعن منتهى درجات الإهلاك.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ الآية... زيادة بيان لما سبق من كفرهم بالله تعالى والأحبار: علماء اليهود، ومفرده حبر بفتح الفاء وكسرها. والصحيح إطلاقه على العالم ذمياً كان أو مسلماً. والرهبان: علماء النصارى جمع راهب،

ويجمع على رهابين ورهابنة، وكثر إطلاقه على متنسكي النصارى، وهو مأخوذ من الرهبة أي: الخوف. يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ الضمير لليهود والنصارى أي: انحرفوا عن المنهج ووقعوا في الحرج بأن اتخذ اليهود ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وعلماءهم الذين يراجعونهم في حل مشكلات دينهم ﴿و﴾ اتخذ النصارى ﴿رُهْبَانَهُمْ﴾ كذلك ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يطيعونهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله. عن عدي بن حاتم ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي اطرح عنك هذا الوثن**». وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم. فقال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟**» فقلت: بلى. قال: «**ذلك عبادتهم**» وقيل: اتخاذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله عز وجل فحينئذٍ لا مجاز، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على رهبانهم أي: واتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً معبوداً بأن جعلوه ابناً لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ موصوفاً بالكمال منزهاً عن النقائص، ويعبدوه ولا يعبدوا غيره. لا إله إلاَّ هو ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أقول: يظهر بوضوح من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومما رواه عدي بن حاتم عن الرسول ﷺ من تفسير الموضوع بتحريم ما أحل الله وإحلال ما حرمه الله، ومن عطف قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ على ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾... أن موجب الكفر والضلال بالنسبة إلى السواد العام إطاعة العلماء وكبار الأمة في تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله الله تعالى بحيث يخرجون بها عن قواعد الدين المبين لا إطاعتهم في الأحكام المستنبطة من الكتاب أو السنة، وإن الكلام فيما إذا كان هناك شريعة سمحة نازلة من الله إلى رسوله، وقد خالفها العلماء لا في طاعتهم لهم في الأمور المستنبطة من الكتاب والسنة، ولا إطاعة السوادية لعلماء الأمة في ما يفتون به، ولا إطاعة الناس قادتهم وسادتهم في أمور فيها مصالح دينية أو دنيوية بعد أن عرفوا أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وحصل عندهم بالممارسة أنهم مخلصون ويريدون توجيه العباد إلى طريق الرشاد فإن الناس وإن كانوا سواسية أمام الله تعالى وأمام أحكام الإسلام لكنهم ليسوا سواسية في العقل والمعرفة وقابلية معالجة المشاكل والمعضلات. قال ﷺ: «**الناس كإبل مائة**

لا تجد فيها راحلة» وقال ﷺ لجمع من الأنصار: **«قوموا لسيدكم سعد»** وقال سبحانه وتعالى في شأن سيدنا يحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] والحاصل: إن الفرق بين أفراد الإنسان في الأوصاف والأخلاق واللياقة كثير، وإن إطاعة السواد للقادة في الخير خير، والله يختص برحمته من يشاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ أي: أولئك اليهود والنصارى ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: نوراً جعله الله وسيلة لتنوير القلوب بالأفكار السليمة، وهو نور القرآن الكريم المنزل على حبيبه محمد ﷺ المشع على العالم ببيانه وحجته، وبرهانه على وجود الباري، ووحدته وكماله المطلق، والتزام النظام، ووجوب الشعور بالمسؤولية على كل فرد من الأنام. وقوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ معناه أن إرادتهم لإطفاء ذلك النور العالمي ليس بإقامة حجة وبرهان، ولا بعمل له قيمة واقعية في الأعيان، وإنما هي بعبارات تخرج من أفواههم أشبه بالهذيان منه بكلام الإنسان من أهل العرفان ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ ويمنع كل شيء ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: إلا إكمال آثار ذلك النور في العالم وتأييده ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك الإتمام.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ متلبساً بالهدى أي: القرآن الذي هو هدى للمتقين ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دين الإسلام الذي يدعو العقل إلى مراعاة الحق الثابت في الواقع المشروع من الله وهو دين الإسلام الذي ارتضاه رب العالمين أن يكونَ العروة الوثقى في العقيدة والعمل ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ليظهر ذلك الرسول ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على أهل الدين أو ليظهر دينه على الدين كله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ بهذا الإظهار، فإن الحق أحق بالاتباع. وإذا ظهر لأرباب العقول وجب رعايته بلا نزاع.

ثم شرع الباري سبحانه في بيان حال الأحبار والرّهبان في إغوائهم للناس وسوء معاملتهم معهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: يأخذونها منهم بالإرتشاء لتبديل الأحكام والشرائع والمماشاة مع أهل النفوذ وسائر طرق الفساد ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: السلوك في طريق دين الإسلام المبين ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي: يجمعونها مع الدفن أولاً ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يؤدون زكاتها، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المسلمين ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وذلك العذاب ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: توقد نار ذات حَمىً

وحرٌ شديد عليها، وأصلها تحمى بالنار من قولك حَمِيْتُ الميسمَ وأحميته. فجعل الإحماء للنار مبالغة لأن النار في نفسها ذات حمى، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شدة توقدها، ثم حذفت النار وحولت الإسناد إلى الجار والمجرور ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي يقال لهم: هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: ذوقوا طعم ما كنتم تكنزون على تشبيه المكنوز بالمطعوم واستعارة الثاني للأول في النفس وجعل الذوق قرينة. أو ذوقوا حلاوة ما تكنزون على تشبيهه بالفاكهة الحلوة تهكماً.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي: مبلغ عدد شهور السنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي الشهور القمرية، وعليها تدور الأحكام الشرعية ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ الله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: في ابتداء ايجاد هذا العالم ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ إما صفة لقوله اثنا عشر شهراً، أو جملة مُستأنَفَةٌ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب القتال فيها ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المراعين حدود الله في الأوامر والنواهي، فاتقوا الله لتفوزوا بنصره المبين.

واختلف في ترتيبها: فقيل: أولها المحرم وآخرها ذو الحجة، فهن من شهور عام واحد، وظاهر ما أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس يقتضيه. وهناك أقوال أخرى. ومحرم جعل أول السنة في زمن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه وكان يؤرخ قبله بعام الفيل، وكذا بموت هشام بن المغيرة. ثم أرخ بصدر الإسلام بربيع الأول. وقالوا: إنه كان في العرب تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفاً عن سلف باعتبار حوادث وقعت في الأيام الماضية. ولما هاجر النبي ﷺ اتخذ المسلمون

هجرته مبدأ التاريخ وتناسَوْا ما قبله وسَمُّوا كل سنة أتت عليهم باسم حادثة وقعت فيها كسنة الإذن في القتال. . . وهكذا إلى خلافة عمر ﷺ فسأله بعض الصحابة في ذلك فاختار ﷺ عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها، فاستحسنت الصحابة رأيه في ذلك. وكان أول هلال المحرم في التاريخ الهجري ليلة الخميس. والسنة القمرية مبنية على الأشهر واعتبروا كل شهر بمطلع الهلال أوله، وبما أن تجدد الهلال في اثني عشر شهراً يستوعب ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً اصطلحوا على جعل الأشهر شهراً كاملاً وشهراً ناقصاً، وإنما جعل الأشهر كذلك حتى يعرف العالم والعامي مبادىء معاملاتهم وصناعاتهم وزراعاتهم، لأن الهلال مرئي لكل ذي بصر يرى الأشياء. وأما السنة الشمسية فثلاثمائة وستة وستون يوماً، وفيها كسور يعرفها أهل الحساب.

وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ولا يتقاتلون فيها ويستريحون، ويسافرون ويتاجرون بلا منع وخوف حتى أن الرجل يلقى أحد أعاديه وقاتل أبيه وأخيه فلا يتعرض له. ولكنهم أخيراً غيروا تلك الآداب وأحدثوا النسيء كما سيذكره تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ بيان لسوء معاملة الناس في رعاية الأشهر الحرم لانتهاك حرماتها. ذلك لأنه إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإن احتاجوا أيضاً أحلوه وحرموا ربيعاً الأول. وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها. وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة، وربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت، ويجعلون أربعة أشهر من السنة حراماً فيقول الباري سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أي: تأخير الأشهر الحرم عن محلها ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الذي هم عليه لأن تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إضلالاً على إضلالهم القديم ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ أي: الشهر المحرم المؤخر ﴿عَامًا﴾ من الأعوام ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ أي: يحافظون على حرمته ﴿عَامًا﴾ وإنما يفعلون ذلك ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا رعاية عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله ويخالفوا خصوصها ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: فيخالفوا ما توارثوا عليه من تحريم ما حرمه الله بإحلال ما حرمه الله تعالى بحيث إذا سأل سائل: ما الذي دعاهم إلى هذه الأعمال؟ يجاب بأنه: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ من جانب النفس والشيطان ﴿سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾

التخريبية الهادمة لحرمات الله، فالنفس تدعوهم إلى إحلال الحرام حتى يغلبوا على أعدائهم، والشيطان يدعوهم إلى ذلك ليكونوا من أعوانه في إغواء الناس، وهم بذلك لا يصلون إلى مآربهم، وإن ظهر ذلك بادي الرأي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى حقيقة الحق ومنهم القادة المغيرون لأحكام الله، ومنهم جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. وهناك رواية أن غيره أحدث ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِم بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية... كانت غزوة تبوك في شدة الحر وحمارةِ القيظِ حين طابت الثمار، واشتهوا الظلال؛ فتخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة فريقان: فريق من المؤمنين، وآخر من المنافقين. وكان يوصي بعضهم بعضاً بالتخلف، ويقول بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ، فأنزل الله تعالى في عتاب من تخلف من المؤمنين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وأنزل أمراً للمؤمنين بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في جميع الحالات في العسر واليسر في المنشط والمكره في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية... ثم أنزل تعالى موبخاً من تخلف عن رسول الله في هذه الغزوة من المنافقين وقعدوا بعدما استأذنوه في التخلف مظهرين أنهم ذووا أعذار ولم يكونوا كذلك هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ إلى ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ غير أنه وسط بين هذه الآيات خِطابه للرسول ﷺ على إذنه لبعض الناس في التخلف عن هذه الغزوة قبل أن يتبين له المعذور في التخلف من غيره في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية...

فيقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ أي: أيّ نفع يحصل لكم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أخرجوا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أصله تثاقلتم أي: تباطأتم وتكاسلتم ولم تسرعوا إلى الجهاد. وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ على تضمين معنى الميل أي: أثاقلتم مائلين إلى أرض الدنيا وبساتينها وثمارها متمتعين بها. أو متعلق بالمشي المفهوم من أثاقلتم أي: أثاقلتم في المشي إلى أرض المعركة في سبيل الله.

وكان هذا التثاقل في غزوة تبوك وكانت في رجب سنة تسع، فإنه ﷺ بعد أن رجع من الطائف أقام بالمدينة قليلاً ثم استنفر الناس في وقت عسرة وشدة من الحرّ وجدب من البلاد، وقد أدركت ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بعد الشقة، وكثرة العدو، فشق على الناس الشخوص لذلك وذكر ابن هشام: أن رسول الله ﷺ كان قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصعد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه ﷺ بينها ليتأهبوا لذلك أهبته.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بدل الآخرة ونعيمها ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لا قيمة لها في مقابل الآخرة الخالدة. ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى من أسلوب الاستفهام الإنكاري إلى التهديد وقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ أي: إن لا تخرجوا من أرضكم إلى ما دعاكم الله له من الجهاد بالأموال والأنفس ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك والاستخفاف أو الإبقاء على حياة تعسة ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد تنحيتكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يغايرونكم في النعوت فيجاهدون ويعلون كلمة الحق، ويسجلهم التاريخ بشرافة التضحية في سبيل الله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ من الضرر فتخسرون الدنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: فلا ضرر يعود على الله تعالى ولا عليه ﷺ ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: تسبّبوا في إخراجه من مكة ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: حال كونه أحد اثنين هما: الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه أو ظرف لثاني اثنين. والمراد بالغار: ثقب في أعلى ثور وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة على مسير ساعة، مكثا فيه ثلاثة أيام يختلف إليهما بالطعام عامر بن فهيرة، وعلي كرم الله وجهه يجهزهما، فاشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهما دليلاً، فلما كان في بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي كرم الله وجهه بالإبل والدليل فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان من قوله: إذ أخرجه ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: بالمعونة والحفظ فهي معية مخصوصة، وإلا فهو تعالى مع كل واحد من خلقه.

روى الشيخان وغيرهما عن أنس قال: حدثني أبو بكر قال: كنتُ مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه لأبْصَرنَا تحت قدمه! فقال ﷺ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!**» وروى البيهقي وغيره: أنه لما دخلا الغار أمر الله تعالى العنكبوت فنسجت على فم الغار، وبعث حمامتين وحشيتين فباضتا فيه، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجلاً بعصيهم وسيوفهم حتى إذا كانوا قدر أربعين ذراعاً تعجل بعضهم فنظر في الغار ليرى أحداً فرأى حمامتين فرجع إلى أصحابه فقال: ليس في الغار أحد ولو كان قد دخله أحد ما بقيت هاتان الحمامتان.

وأول من دخل الغار أبو بكر ﷺ، فقد أخرج ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: لما انطلق أبو بكر ﷺ مع رسول الله ﷺ إلى الغار قال أبو بكر: لا تدخل يا رسول الله حتى أستبرأ فدخل الغار فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن أصبعه وهو يقول:

ما أنتِ إلا إصبعٌ دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وروى البيهقي في الدلائل وابن عساكر أنه لما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً اتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما هذا يا أبا بكر؟**» فقال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكونُ أمامك، وأذكرُ الطلب، فأكونُ خلفك، ومرةً عن يمينك، ومرةً عن يسارك لا آمنَ عليك! فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه. فلما رأى ذلك أبو بكر حمله على كاهله، وجعل يشتد به حتى أتى فَم الغارِ فأنزله. ثم قال: والذي بعثك بالحق! لا تدخلُ حتى أدخله فإن كان فيه شيء نَزَل بي قبلك! فدخل فلم ير شيئاً، فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعٍ وخشِي أبو بكر أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعلن يَضْرِبنه ويلسعنه، وجعلت دموعه تنحدر وهو لا يرفع قدمه حبّاً لرسول الله ﷺ! وفي رواية: أنه سد كل خرق في الغار بثوبه قطّعه لذلك قَطَعاً، وبقي خرق سَدَّه بعقبه ﷺ.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: أنزل الطمأنينة القلبية على النبي ﷺ ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والمراد بالجنود الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين. وقيل: هم ملائكة أنزلهم الله تبارك وتعالى ليحرسوه في الغار. ويؤيده ما أخرجه أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ أن أبا بكر رأى رجلاً يواجه الغار، فقال: يا رسول الله إنه لرآنا قال: «**كلاّ إن الملائكة تسترهُ الآن بأجنحتها**» فلم ينشب الرجل أَنْ قَعَدَ يبول مُسْتَقبلهما! فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر لو كانَ يرانا ما فَعَلَ هذا**» ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي: جعل كلمتهم التي اتفقوا عليها في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة حيث نجّاه ربّه سبحانه على رَغم أنوفهم، وَحَفِظَه من كيدهم، مع أنه لم يَدَعوا في القوس مَنْزَعاً في إيصال الشرّ إليه، وجعلوا الدية لمن يقتله أو يأسره عليه السلام، وخرجوا في طلبه ﷺ رجالاً وركباناً، فرجعوا صِفْرَ الأكفّ...

ثم يحرض الناس الأصفياء على الجهاد ويقول: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ أيها الناس ﴿خِفَافًا

وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان من ضمير المخاطبين. أي: انفروا على كل حال من يسر أو عسر حاصلين من أي سبب من الصحة والمرض، أو الغنى والفقر، أو قلة العيال وكثرتهم، أو الكبر والحداثة، أو السمن والهزال، إلى غير ذلك من الأحوال بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي يزيد المديني قال: كان أبو أيوب الأنصاري والمقداد بن الأسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال ويتأولان الآية. وأخرجا عن مجاهد قال: قالوا: إن فينا الثقيل وذا الحاجة، والصنعة والشغل، والمنتشر به أمره. فأنزل الله تعالى خفافاً وثقالاً، وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم. فما روي في تفسيرهما من قولهم خفافاً من السلاح وثقالاً منه، أو وركباناً ومشاة، أو شباناً وشيوخاً، أو أصحاء ومرضى إلى غير ذلك ليس تخصيصاً للأمرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. والجهاد بالنفس واضح، وبالمال عبارة عن إنفاقه على السلاح، وتزويد الغزاة، ورعاية عائلتهم في غيابهم، أو بعد استشهادهم. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كلمة خير صفة مشبهة أي: ذلكم خير عظيم لكم. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون الخير تعلمون أن ذلكم خير لكم أجمعين.

ثم قال الباري تعالى مُؤنباً للمتثاقلين: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما دعوا إليه من النفر للجهاد في هذا الموسم الحرج ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: متاعاً سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: وسطاً بين القريب والبعيد، والقاصد كالتامِر واللابِن، أي: ذا قصد وتوسط ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: لوافقوك في النفير والمسير ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة تطوى وتقطع بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أولئك المتخلفون ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى ما تدعوننا إليه ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا التخلف والحلف الكاذب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ولما حلف أولئك المنافقون على وجود العذر لهم في التخلف، وعدم مساعدة ظروفهم للسفر، واستأذنوا الرسول ﷺ في البقاء في المدينة، وأذن لهم ﷺ... أنزل الله تعالى قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟ أي: لأي أذنت لهم حين استأذنوك معتذرين بعدم الاستطاعة وكان الأنسب بواقع الحال أن لا تأذن لهم وتمنعهم عن التخلف ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في ما

أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني لِمَ سارَعْتَ إلى الإذن لهم وما توقفت حتى تستكشف حقيقة أحوالهم؟ ولو توقفت وحققت عنها تبينت أن لا عذر لهم في التخلف، وأن اعتذارهم ناشىء عن سوء أفكارهم وفساد اعتبارهم، وعلمت أنهم كاذبون في ما أخبروا به من المعاذير، ولو كانوا مؤمنين حقاً ما تخلفوا، لأنه ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ في التخلف عن ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فإنهم من المتقين عن مخالفة الله ورسوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ووقعت في ظلمات الشكوك والأوهام ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المستمر ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ ويتحيرون، وكان مقتضى طبع المرتابين التكاسل والتقاعس عن الخروج إلى الجهاد بل ما أرادوه.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: أهبة من الزاد وما يحتاجون إليه في السفر ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم للجهاد لعلمه بسوء أحوالهم وأفعالهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أقْعَدهُم وعَوَّقهُم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ من جانب الحق تعالى: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ولله الحمد في قعودهم وركودهم عن الخروج معكم و﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: شراً وفساداً بإلقاء الوساوس والأوهام إليكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ والإيضاع: سير الإبل بسرعة، أي: وأسرعوا النمائم خلالكم، وجعلوا فيها وسائل النزاع حال كونهم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وتهويل العدو عليكم، وإلقاء الخوف في قلوبكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ لا لضعف إيمانهم بل لضعف عرفانهم وصفاء صدورهم، فإن المؤمن غرّ كريم، والمنافق خبٌ لئيم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وليس دأبهم الفاسد المفسد شيئاً حادثاً بل شيء سابق راسخ في قلوبهم.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ وتفرق جمعكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا اليوم مرات، وبالأخص في يوم أُحد حين انصرف عبد الله بن أُبي بن سلول مع أتباعه المنافقين الفاسقين المارقين، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ المكايد ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: النصر من الله والفتح ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه المأمور به ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لذلك النصر المبين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس: «**يا جدّ بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله إني أمرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن! فائذن لي ولا تفتني. فَنَزلت الآية. أي: ومنهم من يقول: ائذن لي في التخلف، ولا توقعني في المعصية والإثم بمخالفة أمرك في الخروج إلى الجهاد. وفي هذا الكلام على هذا إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له ﷺ أو لم يأذن. ومنهم من فسر الفتنة بالضرر أي: ائذن لي ولا توقعني في الضرر فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم وجود من يقوم بمصالحهم. ومنهم من فسر الفتنة بالتعب أي: أئذن لي ولا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر، فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْتِنِّى﴾ هذه التفاسير ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ قابلهم الله تعالى بجملة تدل على اختصاص الفتنة بهم، وقال ألا في الفتنة سقطوا لا في شيء مغاير لها. وذلك في الدنيا والآخرة أو في الدنيا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يخلصون فيها من عقوبة الآخرة. وهذا وعيد لهم بتحقق عقاب أخروي على جزاء ما فعلوه في الدنيا.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا حبيبي ﴿حَسَنَةٌ﴾ من النعماء والغنيمة والظفر بالأعداء ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة أي: تورثهم مساءة وحزناً لفرط حسدهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كافتقار وانكسار ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: وَصَلْنا إلى مُرادنا ونجونا من قبل أنْ نتورط في السير والحرب والهزيمة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ أي: وينصرفوا ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما أصابك من المساءة والآلام. ﴿قُل﴾ في الرد عليهم: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ وقرره في علمه الأزلي من الأفراح والأتراح ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يفوضوا الأمور إليه تعالى ويرضوا بما يجري.

ومما ينبغي أن يعلم أن رسول الله ﷺ كان سيد المتوكلين، وكان متخلقاً بأخلاق جميع الأنبياء والمرسلين، ومنذ بدء نزول الوحي إليه لم يتكاسل عن سبب من الأسباب المشروعة في الوصول إلى نتائج حسنة من إبلاغ رسالته. وأهم تلك الأسباب السعي في نشر شريعته، والجهد لتكثير أتباعه، وإعداد الأسباب للظفر بالأعداء مع التذرع بالصبر والصدق في السراء والضراء وحين البأس، فليس معنى التوكل على الله التكاسل عن العمل المشروع، والسعي حول تحصيل المعيشة المباحة والراحة، إنما التوكل الاعتماد على الله والإيمان بأن كل ما أتاه من الخيرات من الأسباب والمسببات أتاه بخلقه وإحسانه وكرمه وجوده، ولم يكن لأسبابه تأثير إيجابي إلا حسب المعتاد المقرر للعباد، فإذا تكاسل إنسان قادر على العمل والسعي عن أداء واجبه، وتباطأ في السير نحو الخير فهو مغرور مخالف لأخلاق الرسول. نعم العاجز عن مباشرة الأسباب لا مجال له إلا التوجه إلى العليم القادر الوهاب.

فعليكم بالجهد في تحصيل العلوم النافعة، وعليكم بمباشرة الصناعات الرفيعة والدوام على الأعمال بدون إهمال، سواء كانت في ترك المحرمات والمكروهات، أو في فعل الواجبات والمندوبات؛ فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وليتنبه المسلم لاغتنام الفرصة والاهتمام بالعلم اللازم في اليوم بدون التسويف والتأخير إلى الغد، وليستعد لمقابلة ما يعارضه بانشراح الصدر والتذرع بالصبر، فإن الله مع الصابرين. ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: قل لأولئك المنافقين: أنتم تتربصون وتنتظرون إحدى خصلتين هي بالنسبة إلينا إحدى الحُسْنَيين، فإنكم تحبون أنْ نتورط في الحروب مع الكفار لعلنا نقتل وتبقى الدنيا وزخارفها لكم تمرحون فيها، ونحن إذا تورطنا وظفرنا وانتصرنا أخذنا الغنائم، وهي الخصلة الحسنى في الدنيا، وإذا غلب الأعداء علينا وقتلونا مُتْنا شُهداء، والشهادة هي الخصلة الحسنى لنا بالنسبة للآخرة. فلا تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين لنا. وقد صح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة**» ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين الأولى ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ فيهلككم كما أهلك الأمم الطاغية السابقة. الثانية ما ذكره بقوله الكريم: ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ فنقتلكم

ونرسلكم إلى جهنم وبئس المصير، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا العاقبة ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبة أمر كل من الجانبين.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﷺ جواباً عما في قول الجدّ بن قيس حين قال له رسول الله ﷺ: «**هل لك في جِلادِ بني الأصفر؟**» أي جهادهم: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أُفتتن، لكن أعينك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم. ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه. فأنزل الله تعالى الآية. وأخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في مساواة الإنفاق طوعاً والإنفاق كرهاً في عدم القبول. كأنهم أمروا أن يجربوا الأمرين، وينظروا هل يتقبل منهم في أحدهما. وقال: يا رسولي ﴿قُلْ﴾ للجمع المذكورين: ﴿أَنفِقُوا﴾ أموالكم ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ رغبة أو عن سخط وعدم رضا، إن أنفقتم على أي الحالين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي لا يؤخذ منكم لأنه مال خرج عن خبث النية، والعطاء عن خبث النية خبيث، والخبيث لا يتسلمه الطيب، أو لا ثواب فيه لأن الثواب ناشىء عن الاحتساب، ولا احتساب في إنفاقكم لأنا لا نرى الاحتساب في الفاسقين و﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: إلا حال كونهم متثاقلين عن القيام إليها ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ للإنفاق. ومن لم يتنور قلبه بنور الإيمان بالله ورسوله، ولم يتحضر بالنشاط للوفاء بفريضة الله، ولم يصرف نفقات الجهاد بالمحبة والاستعداد فالله بريء منه، ورسوله فارغ عن الميل إليه ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ ولو

كانت كثيرة وفيرة ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ ولو كانوا على جمال الصورة، فلا خير لا في هذه ولا في تلك ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ أي: أصحاب تلك الأموال والأولاد ﴿بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالمكابدة في جمعها وحفظها، والمقاساة في تربيتها بدون أي نفع منها يعود إليهم في الدنيا أو الآخرة. وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ﴾ معطوف على (يُعَذِّبَ) أي: إنما يريد لتزهق ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تخرج بصعوبة من الدنيا ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ خاسرون. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ويريدون انتصاركم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ولا يحبون بقاءكم بل يكرهون لقاءكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون منكم أن تُعاملوهم معاملة المشركين فينطقون بالشهادتين وقاية لدمائهم ولأموالهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: حصناً يتحصنون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وكهوفاً يختفون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ ونفقاً وسراديب يتحجرون فيه ﴿لَّوَلَّوْا﴾ أي: توجهوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ما ذكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يخرجون عن الإطاعة ويسرعون إليه بكل قوة وطغيان، كالفرس الجموح.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: ومن المنافقين من حضر رسول الله ﷺ وهو يُقسّم غنائِم حنين فقال لرسول الله ﷺ: اعْدلِ، فإن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله! فقال لَه الرسولُ: «**ويحك ومن يعدلُ إذا لم أعدلْ! خِبْتُ وخسَرتُ إن لم أكن أعدل**» فقال له عمر بن الخطاب: أئذن لي يا رسول الله فأضربَ عنقَ هذا المنافق. فقال له رسول الله ﷺ: «**دَعْهُ**». ثم قال: «**رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» وفيه نزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية... رواه البخاري وغيره. واسم هذا المنافق حُرقوص بن زهير التميمي الملقب بذي الخويصرة.

يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيبك ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

أي: في شأنها، وكيفية تقسيمها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ أي: إن خلقهم الحرص على الدنيا وجمع الأموال، فإن أُعطوا من تلك الصدقات رضوا بالقسمة واستحسنوها، ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ﴾ شيئاً أو ما يقتنعون به ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يفاجئهم السخط ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ طيبي النفوس به قليلاً أو كثيراً ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كفانا فضله ورحمته وما قسمه لنا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بعد هذه الساعة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ ولا يهمنا إلا ما قسمه الله. والجواب محذوف أي: لكان خيراً لهم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن أفعاله ﷺ موافقة للحق ومناسبة لإصلاح الدين وأهله لا لأغراض نفسانية، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الفقير عند الإمام الشافعي: من ليس له مال ولا كسب يقع موقعاً من كفايته. وذلك كأن يكتسب يومياً أقل من نصف ما يحتاج إليه، فله أقسام ثلاثة:

الأول: من لم يكن عنده مال ولا كسب أصلاً.

الثاني: من له كسب لا يليق به كأصحاب العلم والشرف والبيوت الذين يقدرون على كسب لا يناسب مقامهم.

الثالث: من له مال أو كسب لائق لكنه لا يفي إلا بأقل من نصف ما يحتاج إليه.

والمسكين: من قدر على مال أو كسب يقع موقعاً من حاجته ولا يكفيه، كأن احتاج إلى عشرة دراهم، وهو قادر على خمسة فصاعداً إلى العشرة، فالمالك للتسعة فقط مسكين.

وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه معناهما بعكس ما عند الإمام الشافعي رضي الله عنه.

ولا يمنع الفقر والمسكنة مسكنه وثيابه، ولو للتجمل في بعض المناسبات، وكذا حُلِيُّ المرأة اللائق بها المحتاجة إليه للتزين، وكُتُب علم يحتاجها، وماله الغائب عنه بمرحلتين، والدَّينُ المؤجل، والكسبُ الذي لا يليق به شرعاً، لكونه حراماً، أو عرفاً كأن يخل بمروءته. ولا يمنعهما أيضاً اشتغاله عن كسب يناسبه بحفظ القرآن الكريم، أو الفقه، أو التفسير، أو الحديث أو ما كان آلة لذلك كالنحو والصرف، والبلاغة، والأصولين، والمنطق وآداب البحث، أو بتدريسها وكان ممن يحتاج إليه فيه.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ كجابي الصدقات ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ بالعطية وهم من أسلموا ونيتهم ضعيفة كجديدي الإسلام، أو له شرف يتوقع بإعطائه إسلام غيره من نظرائه، فيُعطى لأجل ذلك ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وللصرف في فك الرقاب ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم الذين عليهم دين ولا يجدون وفاءً. نعم الغارم لإصلاح ذات البين للمصالح العامة كبناء المدرسة والمستشفى يجوز صرفها له، ولو كان عنده الوفاء من ماله، إبقاءً لهذه الخدمة الشريفة. والظاهر أن من يؤلف وينشر تأليفه مجاناً لإرشاد المسلمين كذلك ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المراد به عند أبي يوسف منقطعو الغزاة، وعند محمد منقطعو الحجيج. وقيل: المراد طلبة العلم. واقتصر عليه في الفتاوى الظهيرية، وفسره في البدائع بجميع القرب. فيدخل فيه كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات. وقال في البحر: ولا يخفى أن قيد الفقر لا بد منه على الوجوه كلها فحينئذٍ لا تظهر ثمرته في الزكاة وإنما تظهر في الوصايا والأوقاف. انتهى. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله. ولا يجوز أن يأخذ أكثر من حاجته ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: فرض لهم الصدقات فريضة من الله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بأحوال الناس واستحقاقهم.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم الحلاس بن سويد بن صامت، ورفاعة بن عبد المنذر، ووديعة بن ثابت... وغيرهم قالوا: ما لا ينبغي في حقه ﷺ فقال رجل منهم: لا تفعلوا، إنا نخاف أن يبلغ محمداً ﷺ ما تقولون فيقع بنا. فقال الحلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً ﷺ أُذُنٌ، وفي رواية أُذُنٌ سامِعة.

وعن محمد بن إسحاق أنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن

الحرث، وكان رجلاً آدم، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوه الخلقة، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل. فقال: إنما محمد ﷺ أُذُنٌ، من حدثه شيئاً صدقه، نقول شيئاً ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث**» وأرادوا - سوّد الله وجوههم وأصمهم وأعمى أبصارهم - بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أنه ﷺ يسمع ما يقال له ويصدقه، وإطلاقه عليه ﷺ مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ من قبيل رجل صدق أي: نعم هو أذن. ولكن نعم الأذن هو أذن خير لكم يسمع ما يقال وما كان خيراً من مسموعاته يستفيد منه ما يعود بالنفع لكم، وما كان على خلاف ذلك ألهمه الله تعالى تركه وإهماله وعدم الاهتمام به ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إيماناً لائقاً بأشرف الأنبياء والمرسلين ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدق الكلام المنتسب للمؤمنين المخلصين في التنوير والتبصير والتذكير والتحذير ﴿و﴾ كل سيد للأمة شأنه ذلك فهو ﴿رَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ إيماناً خالصاً عن النفاق ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالأعمال والأقوال الفاسدة الناشئة من نفاقه وشيطنته ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا أو الآخرة بالعار ونار الجحيم.

ثم نبه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين المخلصين من أصحاب رسوله محمد ﷺ على بعض أحوال المنافقين لينتبهوا ولا ينخدعوا بهم وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أولئك المنافقون ولا يدرون أنه لا ينفعهم إرضاؤكم بالأحلاف الكاذبة ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالإيمان الخالص والأقوال الصادقة، والأعمال الصالحة ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صادقين ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: أولئك المنافقون ﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف أمر الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: فحق أن له نار جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: مقدراً خلوده فيها ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا مخلص منه.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يعني يخاف المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تنزل من الله على رسوله في شأنهم وبيان أحوالهم الناشئة عن نفاقهم ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ أي: تنبىء المنافقين وتعلن للصادقين بما في قلوبهم من النفاق والشقاق والعداء للرسول ولمن معه، حتى لا يطلع الناس على ما عندهم من الاستهزاء والسخرية بالمسلمين ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي: استهزئوا قلباً، أو أظهروه بينكم سراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: أن الله تعالى ينزل السورة التي تخافون من نزولها حتى يطلع الناس على ما عندكم من النفاق والعداء للإسلام وأهله، كي تبتلوا بالعار من أحلافكم الكاذبة، وأخلاقكم الفاسدة حتى لا تبقى ثقة المسلمين بكلامكم، ولا يطمئنوا من سلامكم، فإن من السعادة أن يعرف الإنسان أهل الزمان ويميز الأعداء من الخلان ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عن سبب ما قالوه من الكلمات التي أفشوها بينهم ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولم تكن الكلمات خارجة عن ألسنتنا بالجدّ والاهتمام ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟! أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات! هيهات! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: «**احْبِسُوا عليَّ هؤلاء الركب**» فأتاهم، فقال ﷺ: «**قلتم كذا وكذا**» قالوا: يا نبي الله إنا كنا نخوض ونلعب، فنزلت. وأصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أي: لا تستمروا على الاعتذار عما فرط منكم فلا يفيدكم ذلك فـ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: أظهرتم الكفر البواح بعد إظهار الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وخلاصهم من سوء الأفكار وصحبة الأشرار ﴿نُعَذِّبْ

طَآئِفَةٌ﴾ أخرى منكم لدوامهم واستمرارهم على النفاق والإثارة ومحبة الفجار ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مستمرين على الإجرام والآثام. ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ متوافقون في المبدأ الفاسد، ومتعاونون في العمل الكاسد ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو تكذيب الرسول محمد ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وتوحيده، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أي: عامَلَهم معاملة الناسي لهم بمنع لطفه وفضله عنهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ورسوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ جهاراً ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾ وأبعدهم عن رحمته وخيره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي نوعٌ من العذاب ثابتين فيه ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الكفار ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾ وتمتعوا جداً ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: بنصيبهم من دنياهم ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ أيها المنافقون ﴿بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ في المناهي ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي: كالجمع الذي خاضوا، فإن الجمع مفرد لفظاً وجمع معنى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالصفات الذميمة في طرفي التشبيه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يظهر أنها توجب المثوبة الحسنى ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: ألم يأتِ المنافقين ﴿نَبَؤُا۟﴾ هلاك الكفار الطغاة ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ وأبدل من الموصول قوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ عليه السلام وقد هلكوا بالطوفان ﴿و﴾ قوم﴿عَادٍ﴾ وأهلكوا بالريح ﴿و﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام أتباع نمرود الذي أهلكه الله ببعوض دخل في أنفه، وتمزق قومه من بعده ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ أي: أهلها وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد أهلكوا بالنار يوم الظلة، أو بالصيحة والرجفة أو بالنار والرجفة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ أي: أهل القرى المنقلبة بجعل أعاليها أسافلها ثم أمطر عليها حجارة من سجيل. وهي قرى قوم لوط عليه السلام وتلك الأمم الهالكة ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

أي: بالآيات الواضحات والمعجزات التي شهدت لهم بالرسالة من الله، فكذبوا الرسل وأنكروا البينات، فأهلكهم الله تعالى جزاء عنادهم وتمردهم على الحق ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم يكن من سنة الله في الكون أن يعمل شيئاً يشبه الظلم كالعقوبة بلا جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تمردوا بالعقائد الفاسدة المفسدة وبالأعمال السيئة بسوء اختيارهم، فعاقبهم الله تعالى وجَزاهُمْ بالطوفان والرياح والرجفة والصيحة والظلة وما شابهها.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات بعد بيان سوء حال المنافقين بكمال الفسق فيقول ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: أحباء وأصدقاء ونصراء لبعضهم، وعادتهم أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ اعتقاداً وعملاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كذلك ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يؤدونها على رعاية آدابها وشروطها وأركانها خاشعين لله متواضعين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مستحقيها في وقتها بدونِ مَنٍّ وأذىً ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر الأحكام المندرجة في الإسلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل ما أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ الأشياء في مواضعها ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ قصوراً عالية من لآلٍ غالية ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وهو مكان مخصوص على ما أخرج البزار والدارقطني، وابن مردويه من حديث أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ: «**عَدْنٌ دار الله تعالى لم تَرَها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله سبحانه طوبى لمن دخلك**» ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: وأقلُّ رضوانٍ من الله بالنسبة إلى أي عبدٍ من عباده أكبر من كل عطاء آخر ﴿ذَٰلِكَ﴾ العطاء ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ دون ما يتصوره الناس من متاع الحياة الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: الكفرة المجاهرين بالكفر ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: الكفرة المظهرين للإيمان المبطنين للكفر بعد ثبوت كفرهم بالدلائل القطعية، أو المراد جهادُ الأولين بالسيف، وجهاد الآخرين بالحرف، والتنبيه والتأنيب والتوبيخ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهاد بقسميه ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لكفرهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لأهل القصور، ومن جملة جرائمهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ كلمة فاسدة تنال من شرف الإسلام ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهي كلمات الشتائم وسوء الأدب مع الله ورسوله، وقد سمعها الرسول ﷺ ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: جَهَروا بالكفر المستور في قلوبهم بعد أن كتموه وأعلنوا إسلامهم نفاقاً. والحاصل أنهم تحولوا من النفاق إلى الجهر بالكفر والشقاق ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ أي: وما عابوا شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم. أي: ما كانوا يجدون عيباً يعيبون به الله ورسوله إلا عيباً وهو أن الله شرع دية القتيل والرسول طبق ذلك التشريع وسلم الدية إلى آخذها وهو الجلاس. أو أغناهم الله ورسوله بعد مجيئه إلى المدينة بتجهيز الجيوش، وإرسال السرايا، وأخذ الغنائم من المحاربين وتقسيمها بين المجاهدين ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ أي: أولئك الفاسدون عما هم عليه من الذنوب ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: يكن رجوعهم إلى الله خيراً لهم في الدارين ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ ويستمروا على الكفر والشقاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ عذاباً أليماً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ على كفرهم ونفاقهم وسوء معاملاتهم بمتاعب ومصائب ﴿و﴾ في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم.

أخرج ابن جرير والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء

فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: على مَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله تعالى ما قالوا حتى تجاوز عنهم. فأنزل الله تعالى الآية في تكذيبهم، وإغناء الله ورسوله له أنه كان له غلام قُتل، وقد غلب على ديته فأمر رسول الله ﷺ باثني عشر ألفاً فأخذها واستغنى.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية... نزلت في ثعلبة بن حاطب ويقال له ابن أبي حاطب وليس هو البدري لأنه قد استشهد بأُحُدٍ رضي الله عنه أخرجَ الطبراني والبيهقي في الدلائل، وابن المنذر وغيرهم عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة ابن حاطب إلى رسول الله قال: يا رسول الله أُدْعُ الله تعالى أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «**ويحك يا ثعلبة! أما تحب أن تكون مثلي؟ فلو شئت أن يسير الله تعالى ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت**». قال: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يرزقني مالاً، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال: «**ويحك يا ثعلبة! قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه**» قال: يا رسول الله ادع الله تعالى، فقال: «**اللَّهم ارزق ثعلبة مالاً**». فاتخذ غنماً فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة! فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله، ولا يشهدها بالليل. ثم نمت كما ينمو الدود، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله، ثم نمت كما ينمو الدود، فضاق به مكانه حتى تنحى بها. فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله،

فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار. وفقده رسولُ الله، فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنماً وأن المدينة ضاقت به فقال ﷺ: «**ويح ثعلبة بن حاطب! ويح ثعلبة بن حاطب!**» ثم إن الله أمر رسوله ﷺ أن يأخذ الصدقات وأنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ الآية... فبعث رجلين: رجلاً من جهينة، ورجلاً من بني سَلمة يأخذان الصدقات. وكتب لهما أسنان الإبل والغنم، وكيف يأخذانها. وأمرهما أن يمرا على ثعلبة ورجل من بني سليم. فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة، فقال: أرِياني كتابكما. فنظر فيه، فقال: ما هذا إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مُرّا بي. فانطلقا، وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا: إنما عليك دون هذا فقال: ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي. فقبلا، فلما فرغا مرا بثعلبة فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: ما هذا إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: «**ويح ثعلبة بن حاطب**»، ودعا للسلمي بالبركة! وأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآيات الثلاث... فسمع بعض من أقاربه فأتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! أنزل فيك كذا وكذا. فقدمَ على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي فقال ﷺ: «**إن الله قد منعني أن أقبل منك**»، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه. فقال ﷺ: «**هذا عملك بنفسك؛ أمرتك فلم تطعني**» فلم يقبل منه رسول الله ﷺ حتى مضى، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار. فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلُها؟! فلم يقبلها أبو بكر. ثم ولى عمر رضي الله عنه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر أقبلها أنا؟! ثم ولي عثمان رضي الله عنه، فلم يقبلها منه، وهلك في خلافته رضي الله عنه. فيقول الباري سبحانه ومن المنافقين من عاهد الله تعالى والتزم أنه إن آتانا من فضله وخيراته لنصدقن عليها ونخرج منها الصدقات الواجبة وننفق منها في سبيل الله، ولنكونن من الصالحين العاملين المطيعين لله ولرسوله ﷺ. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالمال أي: بأداء الواجب منه ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم اعتقاداً فاسداً وعملاً غير صالح ﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: إلى يوم يلقون الله تعالى أي: يوم الموت، أو يوم اللقاء والحساب وذلك ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ وذلك النفاق والشقاق بسبب إخلافهم بوعدهم الذي وعدوا

الله به، وبسبب كذبهم مع الله ومع رسوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ أي: من عاهدوا الله وأخلفوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ المستور في القلوب ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ الملقى إلى الأصدقاء الفاسدين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؟ لا تخفى عليه خافية.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: الذين يعيبون الناس المؤمنين الصادقين الذين يتطوعون بأموالهم حال كونهم من المؤمنين فيعيبونهم ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقولون: إنما يصدقون بها رياء أو سمعة وليس لوجه الله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: ويعيبون المؤمنين لا يجدون أموالاً يصرفونها في سبيل الله إلا شيئاً قليلاً يبلغون بجهدهم وصرفهم له غاية الطاقة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ بقلة الصدقة ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستهزىء بهم وينظر إليهم نظرة إلى إنسانٍ تافهٍ لم يكن له خيرٌ لأي أحد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على معاملتهم هذه لأنهم لا ينتمون إلى الحق والحقيقة، وإلا فكيف يعيبون الناس المنفقين من الصدقات مع كثرتها ويعيبون الفقراء من أرباب الحاجات الذين ليس لهم طاعة في الصرف إلا قليلاً؟

روي أنه ﷺ حث الناس على الصدقة في خطبة خطبها قبل خروجه إلى غزوة تبوك فجاء عبد الرحمٰن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة. فقال ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت**» فبارك الله له في ماله حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فتكلم المنافقون على المكثر والمقل. وكانوا يقولون: إن المكثرين يراؤون الناس، وإن المقلين إن أرادوا إلا معرفة الناس بأحوالهم الاقتصادية حتى يتصدقوا عليهم، فنزلت الآية الكريمة. ورد الله عليهم بها وأفادت أن الأمر موكول إلى الله تعالى. ولا ينبغي لأحد أن يتهم أحداً بسوء الظن ويضيع حقوق الناس، وأن الذين يسخرون من المؤمنين يسخر الله تعالى بهم، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: للذين يلمزون المتطوعين الذين سخر الله تعالى منهم ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بيان لعدم المغفرة وإن استغفر لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: امتناع المغفرة لهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: المتمردين.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ظاهره أن كلمة أو فيه للتخيير بين الاستغفار وعدمه. ويؤيد إرادته هنا فهم الرسول ﷺ ذلك فكأنه قال سبحانه وتعالى له ﷺ: إن شئت فاستغفر لهم وإن شئت فلا. ولذلك قال ﷺ لما قال له عمر في حادثة موت عبدالله بن أبي حين أراد أن يستغفر له: كيف تستغفر لعدو الله وقد نهاك الله عنه؟ قال ﷺ: «**ما نهاني ولكن خيرني**».

وقال كثير من المحققين ومنهم البيضاوي: إن كلمة أو للتسوية، والآية جملة طلبية استعملت خبراً يعني أن الاستغفار وعدمه سيان في عدم إفادة المنافقين العفو والمغفرة، وذلك لكفرهم وسيئات أعمالهم. فتكون كلمة أو كما في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ويدل على ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. وأما قوله ﷺ: «**ما نهاني ولكن خيرني**» فكأنه قال لي إن شئت فاستغفر وإن لم تشأ فلا تستغفر لهم. فذلك بالنظر إلى ظاهر لفظ الآية، فإنه يدل على الجواز في الجملة، لأنه لما سوى الباري تعالى بين الاستغفار وعدمه ورتب عليه عدم القبول ولم ينه عنه فهم أنه مخير ومرخص فيه. وهذا مراده ﷺ لا أنه فهم التخيير من كلمة أو حتى ينافي التسوية المرتب عليها عدم المغفرة.

وأما عزمه ﷺ على الاستغفار لهم مع وجود قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فكان مبنياً على فهمه ﷺ من ذكر العدد التحديد لا التكثير، وراعى مفهوم المخالفة كما يظهر من قوله ﷺ: «**خيرني الله وسأزيد على سبعين**» أي: خيرني ربي بين أن أستغفر لهم سبعين مرة ولا يغفر لهم إذا زيد على ذلك العدد من الاستغفار ويغفر لهم وسأزيد عليه. على أن التسوية في الاستغفار وعدمه متوجه إلى الكل من المنافقين لا إلى كل فرد بطريق القطع، فيجوز أنه نظر إلى احتمال خروج بعض الأفراد من العام، بَلْه ملاحظة كثرة رأفته بالعباد وحرصه على شمول المغفرة لهم.

وفي فتح الباري ما نصه: ومنهم من قال: إن النهي عن الاستغفار لمن مات مشركاً لا يستلزم النهي عن الاستغفار لمن مات مظهراً للإسلام لاحتمال أن يكون معتقده صحيحاً، وهذا جواب جيد. انتهى.

ثم أنه ظهر مما مر أن هذه الآية وإن كانت مربوطة بردّ اللامزين للمتطوعين في غزوة تبوك، وكذلك مربوطة بموت عبد الله بن أبي بن سلول، فإنه ذكر في فتح

الباري ما نصه: ذكر الواقدي ثم الحاكم في الإكليل أنه مات أي: عبد الله بن أبي سلول بعد منصرفهم من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً ابتداؤها من ليال بقيت من شوال. وقالوا: وقد كان تخلَّف هو ومن تبعه من غزوة تبوك وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ وهذا يدفع قول ابن التين أن هذه القصة كانت في أول الإسلام قبل تقرر الأحكام. انتهى.

ووجه الدفع: أنها كانت في السنة التاسعة من الهجرة كما نقلته قبلُ. قلت: وكذا يدفع قول الشهاب إيراداً على البيضاوي في قصة موت عبد الله بن أُبيّ بن سلول ونص عبارة البيضاوي: روي أن عبد الله بن عبد الله بن أُبي، وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام. فنزلت الآية. فقال ﷺ: «**لأزيدن على السبعين**» فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ انتهى.

وحاصل إيراد الشهاب هو أن سورة براءة آخر ما نزل فكيف تكون هذه الآية نازلة بعدها وهي سورة (المنافقون)؟! فإن أجيب أنه باعتبار أكثرها وصدرها فلا مانع من تأخر نزول بعض الآيات عنها، منع بأن هذه الآية من سورة المنافقين، وصدرها يقتضي أنها نزلت في غير هذه القصة لأن أولها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وكونها نزلت مرتين لا يقال بالرأي فالحق أن هذا مشكل. انتهى. ووجه دفع إيراد الشهاب ما في فتح الباري ونصه: روى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال لما نزلت ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال النبي ﷺ: «**لأزيدن على السبعين**» فأنزل الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ورجاله ثقات مع إرساله. ويحتمل أن تكون الآيتان معاً نزلتا في ذلك، انتهى. يعني يحتمل أن تكون آية ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ المثبتة في سورة المنافقين نزلت مع آية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ المثبتة في سورة براءة معاً كما نزلت آية ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وحدها في سورة المنافقين، واكتفى بكتابتها في المصحف هنا، كما يقال في سورة الفاتحة أنها نزلت مرتين وكتبت في محل واحد والله أعلم.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية... عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه إلى تبوك، وذلك في الصيف. فقال رجال من المنافقين: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج في الحر. فنزلت الآية. رواه ابن أبي حاتم. فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلفهم النبي ﷺ وأذن لهم في التخلف، أو خلفهم الله تعالى بخذله إياهم وَصَدِّهِم عن مَكْرمة الجهاد لحكمة ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي بقعودهم وبقائهم بعد خروج رسول الله ﷺ ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للتمتع بمتاع الحياة على الجهاد، ﴿و﴾ علاوة على تخلفهم ذاتاً ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ تثبيطاً لهم عن الجهاد: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي: لا تخرجوا إلى الجهاد لأن الخروج في هذا الوقت غير مستطاع عادة. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ من هذا الحر الذي تنفرون منه، فإن خلصتم من حر الدنيا وقعتم في حر الآخرة وحرها أشد وأبقى ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ ذلك ما آثروا البقاء على اللقاء ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ أي: أولئك المتخلفون ﴿قَلِيلًا﴾ في مدة دنياهم ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في دار عقباهم. أو فليبكوا في الدنيا كثيراً وليضحكوا فيها قليلاً، لأن من كان مقاله ذلك وجب أن يكون حاله كذلك ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي وأنواع مشتهيات النفس والابتداع من إطاعة رب العالمين.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: من سفرك هذا ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين المتخلفين ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة حتى تكون هذه الغزوة جبراً لما فاتهم وتداركاً لذلك العمل المبرور ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾

مـا دمـت ودمـتـم ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ مـن الأعـداء ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ والاستراحة في أوطانكم بدل السير والتعب في الغربة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من الخروج إلى الغزوة في تخوم الجزيرة ﴿فَٱقْعُدُوا۟﴾ في أماكنكم ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي: المتخلفين. ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ لأنهم خرجوا عن قابلية الروح والرحمة بالكفر بالله ورسوله كفر بالذات وكفر بالنعمة ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي: ولا تقف عليه ولا تتولّ دفنه ولا تدع له بالخير بعد مماته ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ واستمروا على ذلك ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالتعب لتحصيل المال وتحسين الحال والسعي في الزواج ومقدماته حتى إذا حصل المال والأزواج ووجدوا الأولاد وقعوا في محن الإدارة وشؤونها، وصيانة المال والمَنال، وتربية الأولاد ومعاونتهم، وربما يجرهم المال والولد إلى أتعاب ومحن لا تحد ولا تحصى. وهذا بالنسبة إلى الدنيا. وأما في الآخرة فالعذاب أشد وأبقى.

وفي مورد نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ روي عن ابن عمر أنه لما توفى عبد الله بن أُبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلي عليه فقام ليصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ قال: «**إنما خيرني الله فقال:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ **وسأزيد على السبعين**». قال: إنه منافق، فصلى عليه فأنزل الله الآية، فترك الصلاة عليهم، أخرجه الشيخان.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ المراد بها هذه السورة المعنية التي تهم عالم الإسلام في الاعتماد على الله والتضحية في الجهاد. وقيل: المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي: أنزلت بالأمر بالإيمان

بالله وبالجهاد مع رسوله في سبيل إعلاء كلمة الله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ طلب الإذن منك في القعود والتخلف عنه أولو الفضل والسعة من المنافقين وقالوا لرسول الله: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ اتركنا وخل سبيلنا لنستريح ونقعد مع القاعدين المتخلفين. ثم استأنف لبيان سوء فكرهم وفساد أمرهم، وقال: ﴿رَضُوا۟﴾ أي: أولئك المستأذنون ﴿بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: مع المتخلفات القاعدات من النساء، وأعجبهم البقاء في متاع نفسي حقير ﴿و﴾ سر ذلك أنه ﴿طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها ما يرشدهم إلى الخير ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما ينفعهم ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ استدراك لما يفهم من الكلام على ضرب من التوهم أن تركهم للجهاد يضر القائمين به فيقول: لكن الذين قاموا بحق الإطاعة تقرر لهم كامل الجزاء، ولهم الخيرات والمنافع في الدارين. أما في الدنيا فظفر وفتح وشرح صدر وكلمة عالية مقبولة. وأما في الآخرة فجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ شروع في بيان أحوال الأعراب بعد بيان أحوال أهل المدينة. والمعذرون: بتشديد الذال من باب التفعيل، من عذر إذا قصر في الأمر وتوانى وتأخر، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً في ما يفعله، ولا عذر له في الواقع، فيكون المعذرون كاذبين في أمرهم، أو من باب الافتعال من اعتذر، والأصل المعتذرون، فيحتمل صدقهم وكذبهم في

الاعتذار. وقرأ يعقوب المُعذرُون اسم فاعل من باب الأفعال من أعْذَرَ إذا كان له عذر. ويحتمل صدقهم وكذبهم على هذه أيضاً. فعلى الاحتمال الأول من القراءة الأولى الدال على كذبهم قطعاً يكون قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مخبراً عن كذبهم، وإنما أعاده للتنصيص على كذبهم، وإظهار ذمهم بعنوان الموصول والصلة الدال على تقرير الحال. وكذا احتمال الكذب في المستفاد من أصل باب الإفتعال، ومن القراءة الثانية المأخوذة من باب الإفعال. وأما على احتمال الصدق المستفاد منهما، فيكون المراد بالموصول والصلة فيه غيرهم، ويكون المراد بهم أناساً من الأعراب أيضاً منافقين وكاذبين في دعوى الإيمان بالله ورسوله. أو في الاعتذار أيضاً أن اعتذروا كالأولين ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكلمة من إما للبيان أو للتبعيض إن كان فيهم من آمن بالله ورسوله واعتذر صادقاً لعدم استطاعته الخروج.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ كالشيوخ ومن فيه نحافة خلقية ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ من نفقات السفر وأسباب الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ في تخلفهم عن رسول الله ﷺ ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: أخلصوا دينهم وأتوا بما في وسعهم مما يُعلي كلمة الله تعالى ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الناصحين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ من حرج إذ لا وجه لإحراجهم مع سلوكهم على منهاجهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ للعباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في عفو ما جرى من التفريط إذا لم يخرجوا عن منهج الرشاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلى الجهاد في سبيل الله ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الظَّهْرِ ونفقة السير. وقوله: ﴿تَوَلَّوا۟﴾ مستأنف إذا كان الجواب قلت: وجواب إذا حذفت حرف العطف عليه أي: وقلت لا أجد ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: دمعها. ومن بيانية، وهي مع مجرورها في محل النصب على التمييز ﴿حَزَنًا﴾ مفعول له، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ﴿أَلَّا يَجِدُوا۟﴾ أي: من أن لا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في حاجياتهم للسفر مع خير البشر ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن السفر ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ والسبب في استئذانهم أنهم ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: القاعدات المتخلفات من النساء ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ من سوء اختيارهم وفساد رغباتهم ﴿فَهُمْ﴾ بحيث ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب ما هم فيه.

الجزء الحادي عشر

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في تخلفهم عنكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذا السفر ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ بأكاذيبكم الواضحة عندنا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: بعض أخباركم حول ما في ضمائركم من الشر والفساد ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ هل تبقون على ما أنتم عليه أو لا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ علماً شاملاً أزلياً أبدياً بحيث لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الحياة، وما تلقونه بعد الممات، ويطبق عليكم جزاء السيئات.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ على صدقهم فيما اعتذروا به على تخلفهم ﴿إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إذا رجعتم إلى أوطانكم ووجهتم التوبيخ إليهم، وإنما يحلفون لكم ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتصفحوا عما جرى منهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا إعراضاً عن الأحباب بل إعراضاً عمن يستحق الاجتناب ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: أهل رجس في الاعتقاد والأعمال ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جزاء بما كانوا يكسبون ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتعدوهم من أفراد الأمة المسلمة وليسوا كذلك ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وهم منهم بعلم اليقين.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد، فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقاً، والأعراب سكان البادية منهم. ولذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل: أعرابي ولو كان جمعاً لكانت النسبة إليه كالنسبة إلى العرب. ويفرق بين الواحد والجمع بالياء فيهما، فيقال للواحد: عَرَبي وأعرابي، وللجمع عَربٌ وأعراب، وكذا أعاريب ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لبعدهم عن التعليم والتربية، والتزام النظام، وعدم اختلاطهم بأهل الحكمة والسلام. عن ابن عباس ﷺ: مَنْ سَكَنَ البادية جفا، ومن اتبع الصيدَ غَفَل، ومن أتى السُّلطانَ افتتن. ثم إن الحكم أغلبي، وإلا فقد يكون من الإعراب من يكون أوفى وأصفى من أهل المدن بدرجات. والآية نزلت في أسد وغطفان، ولكن العبرة بعموم اللفظ. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الأحكام التكليفية والوضعية. وقيل: المراد إطاعة الرسول في الجهاد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس كلهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقرره من جزاء الأعمال.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: يصرفه في سبيل الله تعالى ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسراناً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: ينتظر نزول النوائب والمصائب عليكم لتشتغلوا بها ويتخلصوا منكم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ جملة دعائية كناية عن حلول الغضب عليهم لسوء نياتهم وسيئاتهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بأقوالهم الفاسدة وأعمالهم الكاسدة ﴿عَلِيمٌ﴾ بها.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ويجعل ما ينفقه في سبيل الجهاد سواء من الصدقات الواجبة المقررة للأصناف الثمانية، أو المقصودة للغزاة في سبيل إعلاء الحق مما ينفقه عليه وعلى أصحابه في تلك الأسفار كسفر غزوة تبوك ونحوها.. وسائل للقرب من الله وقبولهِ ورضاه، ولصلوات الرسول ودعواته لهم على عادته وسنته الشريفة من الدعاء للمتصدقين والمتصدقات. وعلى هذا التفسير تكون الصلوات معطوفة على القُرُباتِ ويجوز عطفها على الموصول أي: ويتخذ صلوات الرسول لهم وسائل قربةٍ من الله تعالى ـ عزّ وجلّ ـ. ولما كان كونها قربات عند الله حسب رجائهم ولم يكن متيقناً أكد الله ذلك وقرر كونها قرباتٍ قطعية فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: تنبهوا أيها المسلمون أن تلك الصدقات والنفقات قربة لهم من الله تعالى ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الواسعة باستيعابها لهم في الدنيا بانشراح الصدور

وتسهيل الأمور، وفي البرزخ بتنوير القبور والراحة لهم والحبور، وفي البعث والنشور بالسعادة الأبدية ولقائه تعالى ونضارة وجوههم بلقاء الودود الغفور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ويزيد لهم الرحمة زيادة على ما يستحقونه من الأجور. وهذه الآية نزلت في بني مقرن من مزينة، وقال بعض: نزلت في أَسْلَم وغِفارٍ وجُهَينة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ المراد بالأولين من المهاجرين من كانوا من أهل بدر، أو الذين صلوا إلى القبلتين، أو أهل بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية. ومن الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى وكانت في سنة إحدى عشرة من البعثة، وهم سبعة أشخاص وأهل البيعة الثانية، وكانت في سنة اثنتي عشرة منها، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين، ومن أسلموا من المدينة حين جاءهم من قبل الرسول ﷺ أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وكان قد أرسله ﷺ مع أهل العقبة الثانية يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين. ولا شك في أن من اعتبر أهل بدر، أو أهل بيعة الرضوان، أو الذين صلوا إلى القبلتين من المهاجرين من السابقين الأولين اعتبر من دخل فيهم من الأنصار كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: متلبسين بالإحسان، والمراد به الخصال الحسنة، وبالموصول اللاحقون بالسابقين من الفريقين، وهم باقي المهاجرين والأنصار. هذا إذا كانت كلمة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض أي: السابقون الأولون في الهجرة والنصرة الذين هم بعض من المهاجرين والأنصار، وأما إذا كانت للبيان بمعنى والسابقون الأولون في الإيمان بالله ورسوله وهم المهاجرون والأنصار كلهم، فيكون المراد بالتابعين لهم جميع المؤمنين الذين تبعوهم في دين الإسلام بإحسان إلى يوم القيامة، وهو معنى شامل وواسع ورحمته تعالى واسعة إلى أبد الآبدين ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول كل ما قدموه من العقائد والأعمال الصالحة، والمسامحة عما فرط منهم من العوارض السانحة، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ في الدنيا بأنوار في الصدور واطمئنان في القلوب وتسلية لما لقوه من الكروب، وفي الآخرة بالرضا والرضوان وجنة فيها لقاء الملك المنان، وعصمة من الزلل والخلل وكل ما يورث الأسى والأسف للإنسان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ

جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه وهو منتهى النعيم.

ومن هنا يظهر ظهور الشمس في رابعة النهار لأولي البصائر والأبصار بعد مدح الباري للأمة المحمدية بصورة عامة في قالب الأخبار وثناء أصحاب محمد في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية وإظهار الرضاء عن أصحاب الحديبية بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أن الأمة الإسلامية أفضل الأمم، وأن أصحابه الكرام من المهاجرين والأنصار ممن تأخر أو تقدم كلهم على درجات عالية عند الله الأكرم، وأن السعيد من يعتقد هذه العقيدة بالوجه الأسلم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ شروع في بيان منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ أناس يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر فهم منافقون والمراد بهم كما ذهب إليه جماعة من المفسرين قبائل: جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار من اللاّئي كانت منازلهم قريبة من المدينة المنورة، ولا ينافي ذلك ثناء الرسول ﷺ كما روي عنه ﷺ أنه قال: «**قريش وجهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيرهم**» وقوله: «**أسلم سالمها الله تعالى، غِفار غفر الله لها. أما إني لم أقُلها لكن قالها الله تعالى**»، لأن القبائل مستوعبة لأناس كثيرين من الصالحين الأخيار، ومن المنافقين الأشرار، فيتوجه المدح إليهم باعتبار جماعة، والقدح باعتبار أخرى ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: ومن أهل المدينة أناس تمرنوا وتمهروا واستمروا على النفاق ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أنت لحذاقتهم في أمر النفاق، أو لا تعلمهم بالتفصيل في جهات النفاق ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ كذلك ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة في الدنيا بالفضح. كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قام خطيباً يوماً من أيام الجمعة ففضح ستة وثلاثين منهم، وأخرجهم من المسجد الشريف. ومرة في البرزخ في قبورهم. أو في الدنيا مرة بالجوع ومرة بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب نار الجحيم.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية... بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين، ولم يكونوا منافقين. فيقول سبحانه وتعالى ﴿و﴾ يوجد عندكم جمع ﴿ءَاخَرُونَ﴾ غير من سبق ذكرهم ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ومن جملتها التخلف عن غزوة تبوك، ورضاهم بالجوار للمنافقين، ولم يعتذروا بالمعاذير المفتعلة. ولما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع إلى المسجد مر عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وجمع معه تخلفوا عنك يا رسول الله، وقد أقسموا أن لا يُطلِقوا أنفسهم حتى تكون أنتَ الذي تُطلقهم. فقال رسول الله: «**وأنا أقسم بالله لا أطلق سراحهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هُوَ الذي يطلقهم**» فأنزل الله تعالى الآية. فأرسل ﷺ إليهم فأطلقهم، وأعذرهم.

وفي رواية أنهم كانوا ثلاثة، وأخرى كانوا ثمانية، وأخرى كانوا خمسة. وتتفق روايتان على أن أبا لبابة بن عبد المنذر منهم. ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو الخروج مع رسول الله ﷺ في بعض الجهاد، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو التخلف عنه في غزوة تبوك. وقيل: العمل الصالح يشمل كل عمل بر وطاعة، والسيىء ما كان ضده ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مطلقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله تعالى كثير المغفرة وواسع الرحمة. وهذا تعليل لما أفاده قَبلُ من قبول توبتهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لما أطلقوا انطلقوا فجاؤوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فَتَصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ﷺ: «**ما أمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً**» فنزلت الآية فأخذ ﷺ منها الثلث. فليس المراد بالصدقة الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأموراً بها، وإنما هي كفارة لذنوبهم كما ينبىء عنه قوله عزّ وجلّ:

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي: عن أوساخ المخالفة والتخلف عن غزوة تبوك مع رسول الله ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة حال من ضمير فعل الأمر. وقيل: جملة مستأنفة، أي وأنت تزكيهم بها. أي تنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أدع لهم واستغفر لذنوبهم. وعن ابن عباس أن المراد وصل عليهم صلاة الجنازة إذا ماتوا. واستدل بالآية على استحباب الدعاء للمتصدقين. واستحب الإمام الشافعي أن يقول للمتصدق آجرك الله. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يعني أن دعواتك بالرحمة ومغفرة الذنوب ونماء الأموال راحة لقلوبهم، وسكون لأنفسهم. فإن الله تعالى يقبل منك الدعاء ويفيدهم الخير وراحة النفوس ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع الاعتراف بالذنوب، وعليم بما في ضمائرهم من الندم على ما فرط منهم، والإلتجاء إلى الله الرؤوف الرحيم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التائبين بالصدق والإخلاص ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ويقبلها قبولاً حسناً بإعطاء الجزاء عليها أضعافاً مضاعفة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: القابل للتوبة، كثير الرحمة.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ أي: ما تريدونه من الأعمال ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خيراً أو غيره ﴿و﴾ يراه ﴿رَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من أنفسهم فيما يطلع عليه وبإعلام الله تعالى لرسول بالذات وإبلاغ الرسول للمؤمنين فيما يهم الإطلاع عليه ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ أي: بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند الحساب والميزان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومنهم أناس آخرون غير المعترفين المذكورين مؤخرون وموقوف حكمهم لأمر الله إلى أن يظهر أمر الله في شأنهم. والمراد بهم كما في الصحيحين: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ﷺ مع الهمّ باللحاق به ﷺ. فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، لأنهم كانوا من المخلصين. فلما قدم النبي ﷺ وكان ما كان من المتخلفين. قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا، ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري. وأمر رسول الله ﷺ باجتنابهم وشدد الأمر عليهم إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية... ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المخلصين والمنافقين و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يطبقه من الأحكام عليهم وهو أحكم الحاكمين.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾. عن ابن عباس أن جماعة من الأنصار قال لهم أبو عامر الراهب العدو لدين الإسلام: ابنوا مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرجُ محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة فنزلت.

وأخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى أصحاب مسجد الضرار رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله أنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال ﷺ: «**إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه**» فلما رجعَ رَسول الله ﷺ من سفرهِ ونزل بـ(ذي أوان) بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار أتاه خبر المسجد فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، وأخاه عاصم بن عدي، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدِماه وأحْرِقاهُ. فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رَهْطُ مالِكٍ، فقال مالك لصاحبه: أنظرني حتى أخرج لك بنار من أهلي. فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه فأحرقاه وهدماه. وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل.

وكان البانون له اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج المسجد، وعباد بن حنيف من بني عمرو بن

عوف أيضاً، وثعلبة بن حاطب، ووديعة بن ثابت وهما من بني أمية بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وحارثة بن عامي وابناه مجمع وزيد، ونبيل بن الحارث ونجاد بن عثمان، وبجدح من بني ضبيعة. فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: وفيمن ذكرناهم من المنافقين الجمع الذين اتخذوا مسجداً، وبنوه لا لطاعة الله بل لمضارة المؤمنين وإلقاء الضرر عليهم ولإنشاء الكفر وتقويته وتفريق المؤمنين بعضهم عن بعض، ولترقب رجوع أبي عامر الراهب الهارب إلى الروم الذي حارب الله ورسوله من قبل ظهور النفاق في الناس، أو من قبل بناء المسجد، فإنه كان أعدى أعداء الرسول، وقد قال له يوم أُحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم! فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن، وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يُحارب بهم رسول الله فلم يتمكن من ذلك ومات بقنسرين وحيداً طريداً.

وقيل: كان بجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام، وأوعز إلى جماعته أن يبنوا مسجداً بدعوى إعانة الإسلام للأغراض الفاسدة المذكورة. فدمرهم الله تعالى وهدم مسجدهم واستأصلهم وجعلهم أحاديث للناس وعبرة للمعتبرين.

وقيل: إن الرسول ﷺ لما وصل في طريق هجرته الشريفة قباء ونزل هناك أسس مسجد قباء وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، ثم إن بني عمرو بن عوف بنوه وأخبروا الرسول ﷺ ودعوه إلى المسجد فذهب وصلى فيه للبركة، فحسدهم بنو غنيم بن عوف فبنوا مسجداً، ولا مانع من أن يكون بناؤه لذلك ولإمتثال إيعاز أبي عامر الراهب أيضاً.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المضارع لجمع المذكر الغائب، وقد أكد بالنون الثقيلة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، ودلالة ضمة ما قبلها عليها. يعني: ويقسمون القسم المؤكد أنهم ما أرادوا ببناء ذلك المسجد إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما أقسموا عليه ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا رسولي للصلاة ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك المسجد ﴿أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي: بني أساسُه ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: تقوى الله تعالى وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، وهو مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام بقائه بقباء من الاثنين إلى

الجمعة ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى وأليق بأن تصلي فيه من مسجد الضرار الذي له شرف مزعوم عند من بناه، وليس المفضل عليه المسجد الذي بناه ﷺ بعده وهو مسجد المدينة النبوية المتصل بحجرة قبره الشريف؛ لأنه لو كان كذلك لكان مسجد قباء أفضل من المسجد النبوي، وكان يداوم ﷺ على الصلاة فيه، وليس كذلك إجماعاً. والحاصل أن مسجد قباء أليق بالصلاة من مسجد الضرار وما سواه، غير المسجد النبوي المعروف. ثم أكد ما قرره بقوله الكريم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ أي: في مسجد قباء رجال يحبون أن يتنظفوا ويستنجوا بالماء. أخرج أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه أنه قال ﷺ لأهل قباء: «**ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية أي آية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾؟**» قالوا: يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي: يرضى عنهم ويجزيهم الجزاء اللائق بهم. ثم قرر سبحانه وتعالى شرف أهل مسجد قباء البانين له، وفضلهم على من عداهم ممن لا يصلون إلى درجاتهم فضلاً عن شرفهم على أناس لا مقام لهم ولا كرامة، بل لهم الدرك الأسفل من النار فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ أي: مبنيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ من جانب الله وارد عليه ورضاء من جانبهم عن الله تعالى: ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على حافة بئر رخو التراب لم يُطْوَ، ومنصدع ومُشرف على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؟ أي: فأدى به لخوره وقلة استمساكه إلى السقوط في النار وهارٍ: نعت لجرف، وأصله هاورٌ أو هاير، فقلبت العين إلى محل الياء وبالعكس وأعل إعلال قاض. وفيه استعارة مصرحة تحقيقية حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرفٍ هارٍ في قلة الثبات ثم استعير لذلك، والقرينة المقابلة. وقوله تعالى: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيح وباؤه إما للتعدية أو للمصاحبة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الواضعين للأشياء في غير مواضعها. والمراد الجاعلين للمساجد التي بنيت لعبادة الله مكامن لبث الفتنة والفساد بين الناس. ثم أكد على عقدة قلوبهم ومزيد ضلالهم وكروبهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ أي: بناؤهم الذي بنوه ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عقدة شبهة وسدة شهوة فاسدة وداء محنة في قلوبهم في كل وقت من الأوقات ﴿إِلَّا﴾ وقت ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ وتمزقت وخرجت عن قابلية تحمل الإدراك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعاملته معهم في الدارين.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ ترغيب للمؤمنين في الجهاد بعد أن بين أحوال المتخلفين وما افتعلوه من المعاذير غير الواقعية فيفيد سبحانه وتعالى أنه تعالى لا تحابب له إلا مع أهل الصدق والإخلاص الذين يضحون بما يملكون في سبيله، فإذا استقبل بابه قومٌ قائمون على قدم الاستقامة فعند ذلك يعاملهم. ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المخلصين ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ التي هي أنفس شيء عندهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التي عليها قيام أمورهم ﴿بِـ﴾ بديل بلا مثيل وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ خالدين فيها على أساس أنهم ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتغاء مرضاته ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ الأشرار من الكفار ومن حذا حذوهم ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ مستشهدين ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ من حيث الوفاء به وعداً مذكوراً مقرراً ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وذكر ذلك في الأولين على وجه التبشير بأن أمة محمد ﷺ ستجاهد في سبيل الله الكريم على الوجه المذكور، أو أن فيهما ذلك تشريعاً عند الإيجاب، فيكون أصلاً من أصول أحكام الله تعالى في الكتابين كما في القرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ يعني ومن سلكَ مسلك الوفاء بما تقرر من صرف الأنفس والأموال في الجهاد والقتال ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ إلتفات إلى خطابهم لزيادة الاحترام والتشريف ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ حيث إنكم صرفتم أموالكم في حسن مآلكم وبذلتم أرواحكم في قالب أبدانكم المؤقتة المحددة بأرواح في أجسام نورانية خالدة مؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المنتوج الحاصل لكم ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه.

ثم ذكر الباري سبحانه المختارين من عباده المؤمنين فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: هم التائبون ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ والمراد التائبون عن الكبائر كفراً أو دونه والعابدون بالإخلاص لله رب العالمين ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ له تعالى بالقلب واللسان وسائر الأركان في السراء والضراء ﴿ٱلسَّآئِحُونَ﴾ أي: الصائمون ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في الصلاة

﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً وهو الواجب والمندوب ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كذلك وهو الحرام والمكروه ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ المراعون لها بإقامتها بقتل القاتل قصاصاً وقطع السارق وجلد الزاني والشارب للمسكرات والقاذف للمحصنات ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة بأنهم أصحاب مثوبات لا تعد ولا تحصى.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية... الصحيح أنها نزلت في أبي طالب. فقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، وآخرون عن المسيب بن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي: «**أي عم قل لا إله إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبدالله يعاودانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلاَّ الله. فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك**» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ واستبعاد ذلك بأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة... مردود بأن النازل منها آخر ما نزل غالبها، فلعل هذه الآية مما نزل عند موت أبي طالب. ولا يبعد أيضاً أن يقال أن الرسول ﷺ استمر في الاستغفار لعمه حتى نزلت هذه الآية أخيراً فتركه. ويؤيد الجواب الأول ما أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي كرم الله وجهه، قال: أخبرت رسول الله ﷺ بموت أبي طالب فبكى، فقال: «**اذهب فغسله وكفنه ووارِهِ غفر الله له ورحمه**» فَفعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له

أياماً، ولا يخرج عن بيته حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية أي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ فإنه ظاهر في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مُغَيّاً به.

يقول الباري سبحانه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ في حكم الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله على الوجه المقرر أن يستغفروا للمشركين به سبحانه ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ أي ذوي قرابة للمستغفر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ماتوا على الكفر أو علم ذلك بالوحي.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أي: آزر ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي: وعد إبراهيم أباه بذلك الاستغفار ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ أي: ظهر لإبراهيم ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ أي: أن آزر عدو لله بسبب كفره وإشراكه به ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: قطع إبراهيم الصلة عنه، وابتعد عن الاستغفار له وتركه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ أي: كثير الرأفة والرحمة ورقة القلب وكثير الحلم، أي: صبور على الأذى وصفوح عن الجناية عليه. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من حلمه ﷺ أنه إذا آذاه الرجل من قومه قال له: «هداك الله» ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أي: ما يستقيم من لطفه تعالى ورحمته أن يضل قوماً بعد هدايته لهم إلى الإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: حتى يكشف لهم بالوحي إلى الرسول إلى ذلك القوم ما يتقون أي: ما يجب اتقاؤه والابتعاد عنه. عن مقاتل أن قوماً قدموا على النبي ﷺ قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة، ثم رجعوا إلى قومهم فحرمت الخمر وصرفت القبلة، ولم يعلموا ذلك حتى قدموا بعد زمان إلى المدينة فعلموا ذلك، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن في ضلال، فأنزل الله تعالى الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملته حاجتهم إلى البيان، فبين لهم كي يكونوا على بصيرة في دينهم ومعرفة في الأحكام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: إن التصرف بإنزال الأحكام وبيانها من جملة ما يقع في الكائنات وأهمها أحكاماً فإذا لم يبين فانتظروا، وإذا بين فاعملوا بها واعتبروا، وأن ما تعتمدون عليه من متاع الدنيا تابع للحياة، والله يحيي ويميت فإذا وفيتم بالآداب يوف لكم الحساب، وإلا فمالكم من دون الله ولي يتولى أموركم، ولا نصير يدافع عنكم.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ الآية... قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط ما نصّه: قال ابن عطية: التوبة من الله رجوعه لعبده من حالة إلى حالة أرفع منه، وقد يكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد يكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حالهِ قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها إلى حالة بعد ذلك أكمل منها. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من نقصان إلى طاعة وجِدّ في الغزوِ ونصرة الدين. وأما توبته على الفريق فرجوع من حالة محطوطة إلى حالة غفران ورضا. انتهى.

قلت: رحم الله الناقل والمنقول منه للإفادة والإجادة، وهذه العبارة الذهبية تفيد أن ليست التوبة من الله غفران الذنوب والآثام حتى تحتاج إلى تأويل ما ورد منها على سيد الأنام ﷺ، ولا من العبد عبارة عن طلب المغفرة عن معصية كبيرة أو صغيرة ارتكبها صاحبها، بل التوبة من الله عبارة عن رجوعه بالتجليات إلى عباده سواء كان في مقابلة كبيرة ارتكبوها من أكبرها إلى أصغرها، أو صغيرة اكتسبوها، أو غفلة من الله تعالى غفلوها، كما لكبار الناس من الأولياء والأنبياء، أو برفع درجة استحقوها، كما في هذه الآية الكريمة حيث أن الله تعالى رجع والتفت ونظر إلى حبيبه محمد ﷺ برفع درجاته على قبول محنة غزوة تبوك بلا نفقة زائدة ولا أموال عائدة ومحنة خذل بعض الناس الجاهلين الأغبياء الأغنياء، حيث حرموا الجيش من المتابعة والمشايعة والمساعدة بالأموال، ومحنة تخلف المنافقين، والإتيان بالمعاذير المفتعلة الباطلة التي تحتها نفاق وشقاق، وهذه محنة لا محنة فوقها، ولو كان الرسول ﷺ راجعاً من تبوك خائباً منهزماً لطالت إليه ألسنة النفاق وسيوف أهل العداء والشقاق، وكانوا ينقلبون عليه في الآفاق فللّه الحمد والمنة

على نصرة رسوله ووصوله إلى مأموله. وقد رجع من الغزوة منصوراً ومسروراً، وتهافت المتخلفون عليه بالاعتذار والانفعال والخجل والحرمان فصفح وسامح وعفا وأوفى. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: بالتجليات، ورفع الدرجات، وبث نفوذه في البريات ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ بإفادة العزة والمنعة والنصرة ورفع الدرجات لهم على اتباع سيد الكائنات ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ من المؤمنين الضعفاء، أي: يميل إلى الظن بأن لا نصرة ترد عليهم ولا منحة ولا مدد توصل إليهم فكاد أن يقعدوا خائبين ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هذا الفريق لإرجاع الضمير إلى أقرب المراجع. فكرر التوبة بالنسبة إليهم لمزيد حاجتهم إليها، ويجوز إرجاع الضمير إلى الكل فالتكرار تأكيد لإفاضة الرحمة على النبي ﷺ وأصحابه الأخيار رضي الله عنهم أجمعين وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئناف تعليلي لأن من له الرأفة والرحمة من آثار فضله الكرم والتوبة.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ أي: خلف أمرهم وأخر عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل منهم معذرة، ولا رُدَّتْ ولم يقطع بشيء في شأنهم. وقد يفسر المتعدي باللازم أي: الذين تخلفوا عن الغزو وهم: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ غاية للتخليف أي: أخر رسول الله ﷺ أمرهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ شرط جوابه محذوف وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من عطف العلة على المعلول. أي: ضاقت عليهم آفاق تجوال أنفسهم ليجدوا شيئاً مما يخلصهم عن المحنة، صار ذلك سبباً لضيق الأرض عليهم مع رحبها وسعتها فإن الإنسان إذا اغتم فوق العادة لا تبقى له فسحة، فيرى الدنيا كأنها قفص ضيق لمحكوم في قفص الاتهام. وذلك لأنه لما تركهم الرسول ﷺ تركهم الأحباب والأقارب فلم يبق لهم مؤنس يستأنسون به ومسعف يستنجدون منه.

واعتقادي أن هذا المعنى أقوم من جعل ضيق الأرض سبباً لضيق أنفسهم عليهم، فإن السعة والضيق مبدآن من النفس، فإذا ضاقت النفس ضاقت الأرض عليه.

﴿وَظَنُوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: علموا أن لا لجوء من سخط الله إلاَّ إليه وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مرتبط بالجواب المحذوف، أي: وفقهم للتوبة والإنابة والاستغفار عما اعتراهم من الغفلة وعدم الاهتمام بتبعية سيد الأنام، فتجلى عليهم بالإقدار على إظهارها ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ويعلنوا التوبة، وذلك بإنزال قوله الكريم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولذلك يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويلهم المخطئين الغير المتجاسرين الإنابة والاستغفار.

ولما كان سبب تخلف الثلاثة عن السير للجهاد الغفلة والابتعاد عن حضور الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عما لا يرضى به ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أشباحاً وأرواحاً حتى تتنزل عليكم البركات مساءاً وصباحاً. والكينونة الشَّبَحية عبارة عن المجاورة والمحاورة والاستفادة من كلامهم وسلامهم. والكينونة الروحية عبارة عن الإقتداء بهم والإهتداء بهديهم، ولذلك شرعَ الله سبحانه وتعالى في الصلاة التي هي صِلَة العباد بالمعبود ومعراج المؤمن إلى مناجاة واجب الوجود الخطاب مع الرسول المسعود بجملة: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

وفي الكشاف: روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ منهم من بدا له وكره مكانه (أي تندم على تخلفه وكره بقاءه كذلك) فلحق به ﷺ كأبي ذر وأبي خيثمة رضي الله عنهما ومنهم من بقي ولم يلحق به ﷺ ومنهم الثلاثة. قال كعب رضي الله عنه: لما قفل رسول الله ﷺ سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما ذكرني، وقال: ليت شعري ما خلف كعباً؟ فقيل له: يا رسول الله ما خلفه إلا حُسنُ بُرديه، والنظر في عطفيه! فقال معاذ: أالله (أي: والله) ما أعْلَم عنه إلا فضلاً وإسلاماً. ونهي عن كلامنا أيها الثلاثة (من باب الاختصاص) فتنكر لنا الناس، ولم يكلمنا أحدٌ من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا رسول الله ﷺ أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذ أنا بنداء من ذروة سَلَعَ أَبْشِر يا كعب بن مالك! فخررت ساجداً وكنتُ كما وصفني ربي سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ وتتابعت البِشارة فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إليّ طلحة بنُ عُبيد الله يهرولُ حتى صافحني، وقال لِتَهْنِك توبةُ الله عليك فلن أنساها لطلحة.

وقال لي رسول الله وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخيرِ يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» ثم تلا رسول الله ﷺ علينا الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم بعد بيان أحوال المتخلفين على اختلاف مشاربهم أخذ يعاتبهم، ولا سيما الذين لهم طول وحول، على تخلفهم من الرسول في الجهاد الذي يعود بإحدى الحسنيين للمجاهدين. فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وأضرابهم ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ عند توجهه إلى غزوة تبوك الغزوة التي فيها القوة والصيت والانتصار للحق على الباطل ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ولا يصرفوا ولا يبعدوا بأنفسهم عن نفسه النفيسة المقدسة النافعة للمسلمين بإرشادها لهم إلى سلوك سبيل التوحيد والعبادة الخالصة لله وكسب العزة والرفعة في الدارين، وما كان ينبغي لهم أن يترفعوا بأنفسهم عن نفسه العالية بأن يكرهوا المكاره لأنفسهم ولا يكرهوها له ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني وذلك النفي المعروف في معنى النهي المستفاد منهما وجوب الاتباع له ﷺ بسبب أنه لو كانوا معه واتبعوه في سبيل الله ما كان يصيبهم عطش في ذلك الجهاد ولا تعب جسمي أو نفسي ولا مجاعة في سبيل الله ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ولا يجعلون القدم في أرض تكون موطئاً للأقدام بحيث يغيظ الكفار أي: يغضبهم ويضيق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: ولا يصابون من أعدائهم بمصيبة كالقتل والأسر والجرح وغيرها ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي: كتب في كتاب الأعمال لهم بسببه ثواب عمل صالح لله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم وأعمالهم الصالحة لله.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ تمرة فما دونها ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ حسب المعروف كما أنفقه سيدنا عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة المتوجه إلى تبوك ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهو المنعرج من الجبال والآكام التي يسيل فيها الماء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: أثبت لهم في صحائف أعمالهم الحسنة ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على معنى أن الله تعالى ينظر في أعمالهم فأيها كان أحسن يجعله مقياساً لجزاء باقي الأعمال لهم، وإن لم يكن على تلك الدرجة من الحسن والبهاء وذلك من فضله تعالى والله ذو الفضل العظيم.

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية... عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد كان تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أصحاب البوادي فنزلت هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها وتركوا النبي ﷺ بالمدينة في رِقَّةٍ من الناس. فنزلت الآية رواه ابن أبي حاتم.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ معناه: ما صح وما استقام للمؤمنين أن ينفروا جميعاً لنحو غزوٍ أو طلب، كما لا يستقيم لهم أن يتقاعدوا ويتكاسلوا جميعاً. فإن الطرفين خارجان عن الاعتدال، والخروج عن الاعتدال يوجب اختلال الأمور في الحال والمآل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: فهلا نفر من كل جماعة كثيرة طائفة قليلة ولو اثنين أو ثلاثة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليسعوا وليتكلفوا الفقاهة والفهم في أحكام الدين أصولاً وفروعاً ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وإنما خص الإنذار بالذكر

مع أنه يجب على الفقهاء الإنذار والتبشير إشارة إلى أن رفع المفاسد أهم من جلب المصالح فيجب قبل كل شيء منع الناس عن الإنكار لوجود الباري، ثم عن القول بالإشراك له تعالى، ثم عن الغفلة عن عبادته وطاعته بالقدر المستطاع، ثم الأمر بالإيجابيات فيها، ثم النهي عن ترك إتباع الرسول بحجة الإكتفاء بالعقول، وإرشادهم إلى أن طور الأنبياء أعلى من طور العقول، فإنها لا تظفر بالغيبيات من السؤال والجواب ومحاسبة الله تعالى وجزاء الأعمال وخلود المكلفين في داري الثواب والعقاب.

ويستفاد من قوله الكريم: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ إنه يجب أخذ الفقه من الأساتذة أصحاب الأسانيد المتصلة بالرسول ﷺ، ولا يجوز بحال من الأحوال الاغترار بالعلم الشخصي الناتج عن الثقافة العادية، لأن الدين، وإن نزل باللغة العربية، لكن فيه اصطلاحات كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج... المنقولات من المعاني اللغوية إلى المعاني الشرعية المشروطة بشروط، والمتحققة بأركان وغير ذلك. وكلها يحتاج إلى الأخذ والتلقي من الأستاذ العالم، كما يحتاج هو إلى أستاذ آخر وهكذا... حتى يصل إلى ينبوع الحكمة والرحمة نبينا محمد ﷺ سيد الأمة. كما يستفاد أن تفسير القرآن الكريم وبيان الأحكام المأخوذة منه محتاج إلى الفقه والفهم الدقيق الواسع الذي يفرق به بين الخاص والعام، والمقيد والمطلق، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ. وقواعد التعادل والتراجيح في الآيات التي ظاهرها يخالف ظاهر آية أخرى. وهذا الفهم هو المعبر عنه بالاجتهاد لمن وصل فيه إلى درجة ملكة الاستنباط بشرط أن يكون صاحبه مسلماً عادلاً ليوثق بكلامه في البيان، فلا يجوز لأي عامي أو مثقف غير متوسع أن يستقل برأيه، لأنه لا يعلم حقيقة الموضوع وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكما يحتاج العالم إلى فهم معاني اللغات يحتاج إلى فهم أصناف المفردات والمركبات كما ذكرنا. وكذلك يجب معرفة السنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية في ما يتعلق بفهم آيات الأحكام، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فصار بهذه الآية الكريمة معرفة البيانات النبوية شرطاً في أخذ الأحكام من الكتاب الذي يحتاج إلى البيان.

كما أن كل إنسان مسلم فاهم عالم يدرك أن الكتاب والسنة رغبا في اتباع ما درج عليه جمهرة المؤمنين العالمين قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ وقال ﷺ: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**» ولا شك أن المراد بالمؤمنين العلماء الأمناء الغيارى، كما أن المراد بالأمة هي الأمة العالمة الأمينة المخلصة في الدين، فصار اتباع إجماع الأمة المسلمة واجباً على كل فرد من أفراد المؤمنين.

وقد تقرر الإجماع على اتباع المجتهدين في أحكام الإسلام والعمل بما استنبطوه من الكتاب والسنة النبوية، فاستدلال المجتهد دليل معتبر من أدلة الدين.

وكذلك يستفاد من الآية الكريمة أن خبر الآحاد يجوز العمل به بل يجب إذا كانت مستوفية لشروط الاعتبار من العدالة والابتعاد عن الابتداع، وذلك لأن أقل الفرقة ثلاثة وطائفة من ذلك أقل مما يوجب اليقين من الأخبار المتواترة. فالآية الكريمة محتوية على فوائد هي قواعد للدين المبين.

ثم الفقه لغة: الفهم، وفي عرف أصول الفقه: الفقيه المجتهد، والمجتهد هو الفقيه، وهو العالم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية. وفي روح المعاني: قال حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة: كان اسم الفقه في العصر الأول اسماً لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، وتدل هذه الآية عليه، فما به الإنذار والتخويف هو الفقه دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والإجارات. انتهى.

وقال الحسن: إنما الفقيه الزاهد عن الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم. ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى. انتهى وهو من الحُسن بمكان، لكن الشائع إطلاق الفقيه على من يحفظ الفروع مطلقاً، سواء كان بدلائلهم أم لا. انتهى.

قلت: إذا نظرنا إلى اللغة: فالفقه هو الفهم والفقيه هو الفاهم. أو إلى عرف أهل الفروع فالفقيه العالم الحافظ للفروع مطلقاً. وإذا نظرنا إلى أصول الفقه فهو العالم بالأحكام الشرعية العملية، وإذا نظرنا إلى مقاصد الإسلام والدين فهو المعنى الذي بينه الإمام حجة الإسلام فهو النافع للمسلمين يوم لقاء الملك العلام.

وقد يستدل بالآية الكريمة على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ هذا إذا كان المراد بالفقه المعنى

الواسع كما ذكرنا. وأما إذا أردنا من الفقه العلم بالواجبات الدينية أصلاً وفرعاً فهو فرض عين على كل مكلف مطلقاً لكن على وجه يكون سهلاً على الناس أي: بالاقتصار على المجملات من الآداب وهي الشروط والأركان للعبادات، وما اتفق عليه المسلمون في باب الاعتقادات، ولا شك أن على هذا يلزم تأثيم كثير من المسلمين المتمكنين من معرفة تلك المجملات والمتغافلين عنها. نسأل الله الصيانة والأمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية تخطيط ووضع تنسيق لجهاد الرسول ﷺ مع الكفار، فيأمره بقتال الأقرب مكاناً فالأقرب، لأن صاحب الأمر إذا لم تصف جوانبه المتصلة به من الكفر والشقاق يصعب عليه الحركة إلى البعيد وتجهيز الجيش، فربما يغتنم الأقربون مكاناً فرصة الهياج على الضعفاء في المركز من النساء والرجال والشيوخ، وتدور الدائرة عليهم. ثم لا تخلو قلوب المجاهدين من القلق إذا كان نساؤهم وأولادهم تحت رحمة الأعداء حولهم، وهذه سنة الرسول ويجب أن تكون سنة من ينتسب إليه كذلك. فيقول الباري تعالى اقتلوا الكفار الذين يقربون منكم، ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدة في الجلادة والجسارة والعنف، والصبر على القتال، أي: اتصفوا بهذهِ الصفات العالية حتى يجدوها منكم، ولا يجدوا نقطة ضعف في الأمة الإسلامية ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى الاستعداد للجهاد، والتوكل على رب العباد، والصبر والاستقامة في الحرب مع الكفار الغلاظ الشداد. ومنهم من يقول: المراد بالذين يلونكم الأقرب فالأقرب نسباً حتى تصلوا إلى الأبعد. ولذلك قاتل الرسول ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل إلى قتال سائر العرب، ثم إلى قتال يهود قريظة والنضير وخيبر وأضرابهم، ثم إلى قتال الروم. وجرى الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على سنته وسيرته القويمة على المنهج المستقيم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن الكريم ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ أي: فمن المنافقين من يقول لسائر المنافقين استهزاء بالقرآن واستنكاراً لها، وتثبيتاً لإخوانه على الكفر والنفاق: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ السورة إيماناً؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لأن نور الإيمان بشيء يجلب نور الإيمان بمثله فيكون هناك نور على نور ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها، لأنه مدد على مدد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من الكفر والنفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة النازلة ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفراً لاحقاً مضافاً إلى كفرهم السابق، لأن ظلمة الكفر السابق تجلب ظلمة الكفر اللاحق، والشر لا يأتي إلا بالشر: ظلمات بعضها فوق بعض ﴿وَمَاتُوا﴾ على هذه الحالة السيئة ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ بالله ورسوله وبكتابة المبين.

ثم إنه تعالى ترك جواب المنافقين إن كان السؤال موجهاً لهم فقط، وجوابهم وجواب المؤمنين الحاضرين إن كان السؤال موجهاً إليهم جميعاً اكتفاء بجوابه، والتفصيل المبني على حقيقة الأمر لأن الله أعلم بأحوال الناس منهم بأحوالهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾؟ ثم استمر الباري في الموضوع موبخاً لهم فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بأنواع البلايا المخزية التي لا تفيدهم أجراً ولا سمعة طيبة ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؟ أن تلك البلايا أتتهم من فساد نياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ليتفاهموا على ترك المجلس معاً قائلين رمزاً وإشارة: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ حتى إذا رآنا لا نخرج حذراً عن اتهامنا بالنفاق واستكراه سماع السورة، أو هل يراكم من أحد حتى إذا رآنا خرجنا لنفهمهم أنا نستكره سماع ذلك الكلام إذ ليس بشيء عندنا حتى نستمع له ﴿ثُمَّ﴾ بعد ظهور ما رأوه من الصلاح ﴿انصَرَفُوا﴾ وخرجوا عن المجلس المبارك ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان ومحبة الله ورسوله وكلامه بدليل انصرافهم عن المجلس، وذلك الإنصراف ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الصلاح لهم حالاً ولا مآلاً.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الخطاب للعرب فيقول: لا شك أنه قد جاءكم من الله العزيز الحكيم رسول عظيم القدر، واسع الأمر، صاحب الغلبة والنصر، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من سلالة أصنافكم العربية الأمية الأمينة.

وقيل: الخطاب للبشر على الاطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم أنه من نوع البشر. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وابن محيصن والزهري ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء أفعل تفضيل من النفاسة، أي: من أشرف العرب.

أخرج الترمذي وصححه والنسائي عن المُطَّلِب بن ربيعة قال: قال رسول الله ﷺ وقد بلغه بعض ما يقوله الناس فصعد المنبر فحمدالله تعالى وأثنى عليه وقال: «مَن أنا»؟ قالوا: أنت رسول الله. قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً**».

ثم جاء بنعوت متوالية: **أولها**: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز ويصعب عليه عَنَتكم وهلاككم، ومعناه أنه جاء مساعداً لكم وطالباً لسعادتكم في الدارين شأن الوالد الرؤوف الرحيم. **ثانيها**: أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: راغب جداً في إيمانكم وأمانكم وعقلكم وعِلمكم وأيمانكم وعُهُودكم... **ثالثاً**: أنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم لون الباري الخطاب ووجهه إلى الرسول ﷺ فقال له: ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان بك وهو سبب لأمانهم في الدارين ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وكفى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقداره إلا هو. وفي الخبر: «إن الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة، وكذا السماء الدنيا بالنسبة إلى السماء التي فوقها، وهكذا إلى السماء السابعة وهي بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في فلاة، وهو بالنسبة إلى العرش كذلك».

قلت: ويحق أن نقول بما روي من الحديث الشريف «**سقف الجنة عرش الرحمٰن**» أي أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض أعظم وأوسع مما دونها، وهي تحت العرش، والنار أيضاً وإن لم يتعين محلها في النصوص لكنها في محل آخر من هذه الكائنات الواسعة التي لا يقدر قدرها أحد إلا الله. فإنهما بحسب ظاهر النصوص مخلوقتان الآن، وستبقيان إلى الأبد. ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة منصوص في سورة الأعراف، وقد مر تفسيره سابقاً. والباري سبحانه وتعالى قادر على إبراز صورة واقعية يرى عينية بحيث لا يكون المنادي ممنوعاً من النداء إلى من أراد، ولا يكون الرأي ممنوعاً من رؤية من أراد بشرط إرادة الباري تعالى لذلك، وتهيئة الظروف المعتبرة في عالم الآخرة كمكالمة الناس اليوم بعضهم مع بعض، ولو كانت المسافة بعيدة، فإن كل ذلك ممكن، والله على كل شيء قدير. هذا ونسأل الله تعالى قبولنا في زمرة أمة ذلك النبي العظيم الرؤوف الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

فرغت من تفسير سورة التوبة قبيل ظهر يوم الخميس الثالث من رجب من شهور سنة ألف وأربعمائة وأربع هجرية، المصادف لليوم الثالث من الشهر الخامس من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية. وأنا المؤلف عبد الكريم بن محمد الكردي الشهرزوري غفرالله تعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين.

سورة يونس عليه السلام

مكية، وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ﴾ الأكثرون على أنها اسم للسورة، فمحلها الرفع على أنها خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مسماة بكذا، وهذا أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعدُ فحقها الإخبار بها لا جعلها عنوانَ الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بجهة انتساب الخبر إليه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي، والمراد من الكتاب أحدهما. ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي: أكان لمشركي العرب أمراً متعجباً منه وشيئاً غريباً ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ في تأويل المصدر اسم كان ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أخبرهم بما فيه تخويف لهم من مغبة عقائدهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة وجزائهما يوم القيامة؟ والاستفهام لاستنكار ذلك أي: لم يكن، ولا يكون ذلك الإيحاء غريباً غير معروف، فإن الناس من أول نشوئهم إلى يوم بعث الرسول الكريم استمرت فيهم الرسالة والدعوة إلى الحق القويم والصراط المستقيم، وهو الاعتراف بواجب الوجود ووحدته وقدمه وبقائه واستغنائه عن الحوادث وعدم

مماثلته لما سواه، واتصافه بالصفات الذاتية من: الحياة، والعلم والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. وأن الناس خُلِقوا لعبادة الله وطاعته وسيجزي الله كلاً حسب اعتقاده وأعماله. فالرسول العربي محمد ﷺ رسول من الرسل، ولم يكن بعثه بين قومه غريباً يتعجب منه ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه إليك ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: سبقاً وعلواً في المنزلة عند الله. والقدم هو العضو المخصوص، وهو هنا مجاز مرسل عن السبق والتقدم في المنزلة؛ لأن السبق يكون بها، كما تستعمل اليد مجازاً عن النعمة لصدورها منها. والصدق إذا نسب إلى الكلام هو الخبر المطابق للواقع سواء طابق الاعتقاد أو لا، أو إلى المتكلم وهو الشخص الجائي بخبر مطابق للواقع كذلك. وقد يستعمل في الأفعال كقولك: صدق زيد في القتال إذا وفاه حقه. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة مستأنفة مبنية على السؤال، كأنه قيل: ماذا قالوا بعد التعجب؟ فقيل: قال الكافرون: إن هذا لسحر مبين، أي: ظاهر لا شك في كونه سحراً. وفي هذا القول دلالة على أنهم رأوا في تضاعيف معاني الآيات المنزلة أموراً خارقة للعادة من التأثير في قلوب الناس وإفادة النكات الدقيقة، وبيان الأمور التي لم يكن من عادة الرسول ﷺ بيانها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جملة مستأنفة ذكرت لإبطال تعجبهم من الإيحاء المذكور، يعني أن الموحي له التصرف في ملكوت الكائنات، فكيف يتعجب من إيحائه المذكور حيث ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستة برهة من الأوقات كل برهة منها كيوم من أيام الدنيا كما هو المناسب لإظهار قدرة الله تعالى في تصرفاته وأعماله، أو في ستة أيام من أيام الآخرة التي كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على المعنى الذي أراده سبحانه وتعالى، أو أنه استولى وملكَ العرش المحيط بالكرسي المحيط بالسماوات والأرض ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استئناف آخر لبيان حكمة استوائه. والتدبير في اللغة النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتقع على الوجه المحمود، وفي العرف عبارة عن التقدير والإبداع الجاري على مقتضى الحكمة. والمراد بالأمور كل ما جرى في علمه الأزلي وجوده على وجه مخصوص. وهو سبحانه وتعالى مستقل في تحقيق شؤونه بلا تدخل أحد حتى أنه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

إِذْنِهِۦ﴾ في شفاعته له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: ذلك الذات المعروف الموصوف بتلك الصفات العلية هو ربكم المستحق لأن يعبد هو لا غيره ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ لا غيره، لأن غيره لا يستحق العبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: أفلا تعلمون أن المعبود هو الله الموصوف بالكمال المذكور ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بدون استثناء أحد لا إلى غيره ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف أي: وعد وعد الله وهو مؤكد لمضمون الجملة السابقة ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه المصدر الأول مع عامله، وكيف يكون مرجع الناس عليه لأنه هو الذي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل وتطبيق الجزاء على الأعمال بالوجه الموافق المناسب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: فيجزي الذين كفروا بسبب كفرهم بشرب شراب حار جداً، وبالتعذيب بعذاب شديدٍ مديد إلى الأبد والعياذ بالله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

ثم بين بعض وجوه تدبير الباري سبحانه وتعالى لأمر الكائنات فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي: ذا ضوء أو مضيئاً أو ضوءً منبعثاً من حقيقته الشخصية في أصل خليقته بحيث يستنير بها الكواكب الموجودة تحت إشعاعها ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور، ومنيراً أو نوراً مبالغة في قوته النورية المستفادة من مقابلة الشمس كما قاله العلماء الفلكيون أو نوراً مخلوقاً في ذاته ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: قدر مسيره في منازل. وهي ثمانية وعشرون. وهي السرطان والبطين، والثريا والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك الأعزل، والعفرة، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بَلَع، وسعد السّعود، وسعدُ الأخبية، وفرع الدلو المقدم، والفرع المؤخر، وبطنُ الحوت. وهي مقسمة على البروج الاثني عشر المشهورة. فيكون لكل برج منزلان وثلثٌ. والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلاثمائة وستين أجزاء دائرة البروج على اثني عشر.

والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة، وهي منقسمة بستين ثانية وهكذا. ويقطع القمر بحركته الخاصة في كل يوم بليلته ثلاث عشرة درجة، وثلاث دقائق، وثلاثاً وخمسين ثانية، وستاً وخمسين ثالثة. وتسمية ما ذكر منازل مجاز، لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت قريبة من المنطقة.

والمنزلة الحقيقية للقمر الفراغ الذي يشغله جرم القمر على أحد الأقوال في المكان فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مسامتته إياها، وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج، لأنها مفروضة أولاً في الفلك الأعظم، وأما تسمية نحو الحمل والثور والجوزاء بذلك فباعتبار المسامتة أيضاً. انتهى نقلاً.

قلت: هذه مبنية على نظريات الفلكيين المتقدمين، وأما المتأخرون فلهم منهج آخر في ذلك الموضوع.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لتعلموا عدد السنين التي يتعلق بها غرض متعلق بمضي السنوات والحساب الكسري المبني على معرفة الأشهر والأيام لمقدار الأعمار، والإيجار، والتجارات، والديون، والمعاملات، والمناكحات، والعدد، والنفقات... فإن كل ذلك مبني عند جمهرة الناس على معرفة السنين والأشهر والأيام ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلق ذلك بحال من الأحوال إلا متلبساً بحال حق من رعاية مصالح العباد في البلاد ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الكونية المفيدة للبصيرة في رعاية المصالح ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة وأسرار الأحكام.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ نوراً وظلمة، طولاً وقصراً، أو بحسب ما فيها من الوقائع والحوادث، أو في تعاقبهما على وجه الاستمرار ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأشياء البديعة من الحركات البطيئة والسريعة، والأجرام النازلة والرفيعة، والتجاذب من بعض الأجرام مع بعض، وتبعية الحاصلات لاختلاف الفصول الناشىء عن اختلافهما... ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون ربهم وكمال قدرته فيتقونه ويعبدونه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيان لمآل حال الكافرين وسوء عاقبتهم، فيقول: إن الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة لأنهم يكفرون بالبعث والنشور والحساب والميزان وجزاء الأعمال ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والتمتع بها وإيثارها مع خستها على الجنة ونعيمها الخالد ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ وسكنت قلوبهم واستراحت بمباشرة حالها وانتظار مآلها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يعني لا ينظرون إلى الآيات النفسية والآفاقية، ولا يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم، ولا يعتبرون بما يجري فيها من الأحوال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ ومرجعهم ﴿ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بإتباع النفس الأمارة واستيفاء اللذائذ والمشتهيات، والاغترار بالاستراحة فيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وما أتى به من عنده ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ إلى إيثار الآخرة على الدنيا بسبب ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ به وبكتابه المنزل على رسوله. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنات هي ظروف للنعيم ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: هذا الكلام وتقديره: اللّهم إنا نسبحك تسبيحاً لائقاً بكبرياء ذاتك وعظيم صفاتك، والدعوى وإن كانت مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء أيضاً ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيها أي: وتحيتهم لله الذي شرفهم بالجنات ﴿سَلَٰمٌ﴾ أو تحية الملائكة لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: وخاتمة دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والخلاصة: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله مجدوه وعظموه وسبحوه تسبيحاً مناسباً لجلال الباري تعالى. ثم حيتهم الملائكة بالسلام مما كانا يخافون منه قبل دخول الجنة، فلما سمعوا التحية واطمأنوا بها قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ يعني إن الناس الفاسدين المفسدين يستعجلون الشر استهزاء وسخرية استعجالهم بالخير، ويقولون: اللَّهم إن كان هذا القرآن هو الحق فأمطر علينا حجارة! ولكن الله لا يستعجل لهم الشر، ولا يجيب طلبهم ذلك، كما يجيب طلبهم للخير، ولو كان استعجل لهم ذلك ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وماتوا وهلكوا، ولكنه يؤخر عذابهم وعقوبتهم كما قال: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وتجاوزهم عن الحدود ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتيهون ويتحيرون. ثم ذكر الباري وأفاد أن الإنسان مخلوق عجيب إذا جاءته فرصة من الصحة والمنحة والراحة طغى وبغى واستهتر وسخر بالدين واستحقر.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ من مرض وفقر وحقارة ﴿دَعَانَا﴾ وترجانا لكشفه وإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: تضرع إلينا مضطجعاً أو قائماً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ على طريقه السابق المعتاد واستمر على بغيه وعناده غير مبال بما كان ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: إلى كشف ضر مسه ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران لاقتران الناس بعضهم مع بعض في الأعمال والأحوال. وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة. يعني والله قد أهلكنا أهل الأزمنة الماضية من المتمردين عن طاعة الله ورسوله، كقوم نوح وعاد وثمود الذين كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بعصيانهم وطغيانهم ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

أي: بالأدلة الواضحة الموضحة على أن الله حق ورسالة رسله حق ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: وأصروا على كفرهم بحيث ما كانوا على حالة ليؤمنوا بالله ورسوله عليها فهذه التي ذكرناها سنتنا في خليقتنا لا تتبدل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموجودين في الحال أو المستقبل، فكلما جاءهم الرسول بالبينات وعصوا وتمردوا أهلكناهم وجئنا بقوم آخرين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ثم استخلفناكم في الأرض بعد إهلاك أولئك القرون التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثار ديارها المدمرة ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؟ أي: ليتعلق علمنا بأعمالكم وكيفياتها وكمياتها، فيجازيكم عليها كالأولين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: الآيات الدالة على التوحيد وبطلان الشرك دلالة واضحة لا شبهة فيها لمن ليس على قلبه غبار العناد ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: قالوا لرسولنا الذي يتلو عليهم الآيات: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ في الصفة أي: في الدلالة بأن لا يكون فيه نداء إلى التوحيد لله ولا الآيات الدالة على البعث بعد الموت وحساب للأعمال والميزان، وذلك بأن يكون القرآن على ذلك الأسلوب من البلاغة لكن يخلو عن التوحيد والبعث وما يتبعه ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ذاتاً بكلام آخر وأسلوب آخر كالعبارات الاعتيادية ﴿قُلْ﴾ يا رسولي في جواب أولئك المتعنتين في الطلب الذين لا يريدون إلا الإنكار لآيات الله والاستنكار للتوحيد والبعث وجزاء الأعمال ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي: لا يصح ولا يمكن لي تبديل القرآن ذاتاً ولا صفة، فإنه قرآن مجيد في لوح محفوظ نازل إلي بالعناية ومحفوظ إلى الأبد بالرعاية، وليس لي صلاحية في تغييره وتبديله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ بحفظه وكتابته وتبليغه ورعايته، إني لستُ على طبيعتكم وعلى قلوبكم المستنكرة للحق المتجاسرة على الدين القويم، وهذا الذي تقترحونه عصيان يليق باللئيم ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ﴾ لهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا أتلوه على الناس ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم﴾ الله ولا أعلمكم ﴿بِهِ﴾ على لساني والفعل من الدراية وماضي باب الإفعال، وفاعله راجع إلى الله تعالى، أي: ما كنت أتلوه عليكم حتى تستمعوا ألفاظه، ولا أعلمكم الله بمعانيه. وعن الحسن قراءة ولا أدرأتكم بقلب الياء همزة أي: ولا أعلمتكم به أي: لا أسمعتكم أنا ألفاظه ولا فهمتكم معانيه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ هذا كالتعليل لما سبق، يعني أنه لو كان هذا القرآن من مبتكرات فكري كنت تلوت بعضاً منه قبل وقت نزول القرآن لأني لبثتُ فيكم عمراً، أي: مدة قبل هذا

الوقت ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أفلا تتأملون بالعقل حتى تعلموا أن هذا القرآن كلام الله تعالى ولا علاقة فيه لمن سواه من العالمين؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾؟ أي: لا أحد اظلم ممن افترى على الله كلاماً على وجه الكذب في نسبته إليه تعالى، فلو ألفت كلاماً من جانب نفسي ونسبته إلى جانب القدس كنت أظلم الناس حيث افتريت على الله رب العالمين، وكذلك لا أحد أظلم ممن جاءته الآيات البينات من الله على لسان رسوله وكذب بها وعاندها وأنكر نسبتها إلى الله، أو استنكر معانيها وعاندها عاصياً، فلو كان إنسان على ذلك المنهج المعوج لكان مجرماً وما كان ينجو من العذاب الأليم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولا ينجو من المعائب والمصائب في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ استئناف لبيان خصلة أخرى من خصالهم الذميمة وهي أنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، أي: يعبدون أوثاناً جامدة هامدة لا يضرهم بمنع الخيرات عنهم، ولا ينفعهم بجلبها إليهم، فهي أشباح بلا أرواح، وهياكل منحوتة منصوبة، ومن شأن المعبود أن يستقل بالإضرار والإنفاع من كل الوجوه لمن شاء نفعه أو ضره، أو المعنى لا يضرهم إن تركوا عبادتها، ولا ينفعهم إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في مقام التبرير لمواقفهم الضيقة والحرجة في الجدال: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان ﴿شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾! في يوم اللقاء والعرض والحساب ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولي: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بشيء باطل لا وجود له في الكائنات قطعاً حيث لم يتعلق به علمه تعالى، ولو كان موجوداً متحققاً فيه لتعلق به علمه كذلك، أي: أن كونهم شفعاء لكم عند الله تعالى لا أصل له ولا أساس ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم لمن سواه في عبادته وإطاعته مطلقاً فضلاً عن إشراك الهياكل الجامدة المستلزم لتلك المقالة الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ما كان الناس كافة من أول الخليقة إلا متفقين على الحق والتوحيد وعبادة الله تعالى وحده. فقيل من عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، أو إلى زمن إدريس عليه السلام، أو إلى زمن نوح عليه السلام إلى أن توغل الإنسان في مطامع الدنيا الدنية وحصل الاختلاف بينهم، وحدث الخروج عن نظام العدل والمسؤولية وكفر بعضهم وأنشأ عبادة الأوثان والهياكل ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بذلك في الأصول والنظام وفي الكفر والإسلام ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وحكم جرى به القضاء على تأخير العقاب إلى مسافة زمنية في الدنيا أو إلى البرزخ أو إلى يوم الميزان والحساب لهم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التوحيد وغيره بإنزال آيات ملجئة إلى الإيمان، أو بتعجيل العقوبة وإهلاك الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لمذمة أخرى لهم، يعني ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في مقام القدح عن رسالة الرسول ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: آية من الآيات التي اقترحناها كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص من عيسى عليه السلام ومعنى إنزالها إظهارها وإحداثها. وإنما طلبوا إحداثها تعنتاً، وإلا فقد رأوا من الرسول معجزة القرآن المعجز الذي لم يظهر في الكائنات مثله، وقد ظهرت معجزة شق القمر، وتسليم الحجر، ومجيء الشجر إليه، بل وفي ظهور نفس الرسول وما آتاه الله من النجاح في مهمته معجزة عالية عالمية، كما أن أخلاقه من: صبره، وصدقه، وأمانته، وثباته، واستقامته، وترحمه، ووفائه بعهوده... معجزات تدهش العقول. ﴿فَقُلْ﴾ يا حبيبي في جواب أولئك المقترحين: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ أي: الحكم الغائب عن الأبصار وهو التصرف في هذه الأمور وإبداعها وظهورها حسب الميسور ﴿لِلَّهِ﴾ القادر على كل شيء يُظهرها لمن يشاء ويسترها عمن يشاء. أو أن الأمر الغائب عنكم وهو عقوبة الله المنصبة على المتعنتين لله عاجلاً أو آجلاً ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ حدوث ما أراد الله حدوثه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك.

ثم هذه الاقتراحات الواقعة على سبيل التعنت والاستهزاء إنما هي من غرورهم الحاصل من وفور النعمة عليهم ﴿و﴾ إنا ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والجاه والمال والأولاد ووسائل السيطرة في العباد ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: من بعد الحالات المضرة بالعظمة كالفقر والحقارة والمرض والنذالة وقلة الأولاد التي خالطتهم وامتزجت بهم حتى أثرت فيهم وظهرت آثارها في وجوههم... ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ وخديعة ﴿فِىٓ﴾ إنكار ﴿ءَايَاتِنَا﴾ والطعن فيها وتشويه سمعتها ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ومكيدة وانتقاماً ببلايا شديدة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ المراقبين لكم بأمرنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ويكونون شهداء عليكم عندما تحاسبون، فلا محالة تدركون سوء عاقبتكم وأحوالكم في الدنيا أو في مآلكم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ شروع في بيان غَلَبَة محبة الدنيا ومطامِعِها على ذكاء النفس الإنساني وميلها إلى جانب الرشد والزهد وعبودية الله تعالى، ونسيان نعمة الله على ذكرها وشكرها، وتقلبها وتجوالها مع الهوى على ثباتها واستقامتها، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بتسييركم في القوافل الكبيرة والصغيرة إلى أقطار الأرض والبلاد البعيدة ﴿و﴾ يسيركم في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ الواسع بالسفن ذوات الأعمدة الروافع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ملائمة لسيرها ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ لتقريبها لكم إلى الموانىء المقصودة ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: قاهر كاسر موافق للاضطراب ومخالف للاقتراب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ أي: المياه الكثيرة المائجة الهائجة ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ مِن الأمام والخلف والشمال والجنوب ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: الساكنون فيها ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ بجيش البلاء الموجب للفناء، واعتقدوا بالهلاك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ المجيب ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ المصائب ﴿لَنَكُونَنَّ﴾

في مستقبل عمرنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ منها ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ولما ذكر الباري أحوالهم هذه ناداهم بصورة الخطاب ووجه لهم اللوم والعتاب قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وطغيانكم وجسارتكم وعدوانكم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لا على غيركم ولا تريدون بذلك إلا أن تتمتعوا ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... الآية كلام مستأنف نزل لوصف تمتع الإنسان بالحياة الدنيا وقلة مدتها ثم استعقاب التمتع للأخطار والأضرار من جهات شتى. والمثل ما شبه مضربه بمورده ويستعار للأمر العجيب المستغرب، فيقول: إنما مثل الحياة الدنيا في نضارتها ونظارتها أولاً، ثم انتهائها آخراً ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: فكثر بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ من أفراد وأصناف وأنواع كثيرة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من البقول والزروع والعشب والمراعي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: استكملت حسنها وبهجتها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بوجوه الزينة ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: قادرون على الاستمتاع بتلك الأرض وما نبت فيها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: نزل بها حسب صدور أمرنا بالإمحاء والإفناء ما قررنا وقدرنا لها من العذاب في جزء من ليل أو نهار ببردٍ أو بَرَد أو سموم معلوم ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: فجعلنا ثمارها شبيهة بما حصد من أصلها ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأن لم تلبث ولم تكن تلك الثمار بالأمس. وهذا المثل مثل في الوقت القريب، والممثل به زوال خضرة النبات فجأة وصيرورته

حطاماً بعد أن كان غضاً طرياً، وزين الأرض وطمع فيه أهلكه. وحاصله اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس كقول الشاعر:

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ فلما رأوها أقشعت وتجلت

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المثل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مبادئها ليعرفوا مقاصدها ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ المكلفين من الجن والإنس ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمؤبد بإطاعته في مدة وجيزة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ممن توجه بحسن استعداده إلى طريق رشاده وسلكه سلوكاً مناسباً لإسعاده، وهو المراد بقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه بحيث لا يتحير فيه السائر ويسترشد به الحائر، فإن الله بفضله وكرمه قرر أن للذين أحسنوا العقيدة والعمل المثوبة الحسنى. ومعنى إحسان العقيدة والعمل أن يتصف بهما بإخلاص كامل لذات الباري بأن يكون له حضور وشعور كأنه يرى ربه وإن لم يره يعتقد أنه يراه تطبيقاً لتفسيره ﷺ له بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي النظر إلى وجه ربه الكريم، كما روي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ بطرق كثيرة ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: غبار من الغم والحزن ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ من الهوان والحقارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جنسها كبيرة أو صغيرة ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ جزاءً وفاقاً بموجب العدالة الربانية وهذا إذا لم يغفر له بأن كانت السيئة كفراً أو دونه ولم تتعلق الإرادة بالغفران وإلا فله ذلك ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: وتغشى أولئك الكاسبين للسيئات هوان عظيم ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ليس لهم أحد يعصمهم من سخط الله ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: يعلو جوههم يوم القيامة قتر وسوادٌ كأنما أغشيت وألبست قطعاً من سواد الليل مظلماً ذلك الزمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبَدَ الآبدين.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ كلام سيق لبيان بعض ما يأتي عليهم يوم القيامة، وكلمة ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي: خوفهم بذلك اليوم ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المؤمنين والكافرين ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من بينهم: الزموا ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي: الذين زعمتم أنهم شركاء لله في العبادة من جانبكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وفرقنا بينهم لا في الجسم والتواصل الحسي بل في العلاقة المعنوية والوصلة النفسية بينهم لأنه لما تبين الحق من وحدته تعالى وعدم دخالة أحد في العبادة معه صار الفريقان فريقين متعاديين، ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم تعبدون أهواءكم ونزعاتكم التقليدية الفاسدة وهذا القول بإنطاق الله الجمادات إن كانوا من الأوثان والأصنام، وعلى المنهج المعتاد إن كانوا من الملائكة الكرام وعزير والمسيح عليهم السلام وعليه فقوله فقال الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا﴾ أي: إنه قد كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيانا في الدنيا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ غير عالمين لأن الجمادات لا علم لها أو غير راضين وغير مقتنعين لأن الملائكة والأنبياء الكرام براءٌ من الرضا بالكفر والإشراك. ﴿هُنَالِكَ﴾ يوم القيامة وساعة المواجهات ﴿تَبْلُوا﴾ تعلم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ حقيقة ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ ـه من العقائد والأعمال حقة أو باطلة وجزاءها خيراً أو شراً، فيبدو عِزّ المؤمنين وخزي المشركين، ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَضَلَّ﴾ أي ضاع وذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن لهم آلهة دون الله ويشفعون لهم عنده يوم الحساب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: يا حبيبي لأولئك المشركين في مقام الاستدلال على توحيد الباري سبحانه ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يَرْزُقُكُم﴾ رزقاً ناشئاً ﴿مِّن﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالأمطار وإنبات الزروع؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؟ أي: بل من الذي يملك خلق السمع وإبداع قوة الاستماع فيها، ويملك الأبصار وإيجاد قوة الإبصار فيها الجهازين الذين يحار من وقف على تحليلهما والاطلاع على ما أودع فيهما من الدقائق المفيدة للقوتين والمبيدة لما يخالفهما؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي:

الحي بالحياة الاعتيادية الموجبة للحس والحركة الإرادية من مادة لا روح فيها فعلاً وإنْ كان فيها قابلية تعلقها كالإنسان من النطفة والفروخ من البيض؟ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ويخرج النطفة من الإنسان مثلاً والبيض من الطيور؟ أو من يخلق المهتدي من الضال ويخرج الضال من المهتدي؟ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومن الذي يتولى تدبير أمر العالم العلوي والسفلي وعالم الغيب والشهادة فسيقولون بعد رعاية الإنصاف والتفكر الصافي أن المبدع المدبر هو ﴿ٱللَّهُ﴾ جل جلاله وعم نواله فقل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ عذاب الله الذي تعترفون بأنه الملك والمالك وغيره مملوك هالك ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي إليه الأمر كله ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بعد اتباع الحق والإهتداء بنوره ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ والحيرة والهيمان في بيداء الخسران ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أي: فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال وأنتم تدعون العقل والعلم والكمال.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: كما حقت كلمة الربوبية والوحدة لله تعالى حقت كلمة الله وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعته ولم يوفوا حقه ذلك بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويستمرون على التمرد والعصيان. أو أن الكلمة هي ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لصرفهم الاستعداد إلى جانب الهوى والعناد، وابتعدوا عن الهدى والرشاد.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۗ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ استدلال آخر على توحيد الباري سبحانه وتعالى فيقول: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهؤلاء المشركين: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أياً كان ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ والإيجاد وله قدرة إخراج الحقائق العلمية من العلم إلى العين ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ أي: وله قدرة قاهرة باهرة على إبادة أولئك المبدوئين بالوجود وتحويلهم إلى العدم والفناء ثم على إعادتهم إلى الوجود العيني في عالم النشأة الثانية؟ وبعد إلقاء هذا السؤال إلى العقلاء منهم لا يمكنهم الإجابة إلا بسلب الوجود عمن يقدر

على الإبداع ثم الإعادة إلا الله، فإذا اعترفوا بذلك ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قل لهم مرشداً لهم إلى الحق والحقيقة: الله هو الذي يبدأ الخلق أولاً ثم يميته ثم يعيده، ولا أحد غيره قابلاً لهذه المضغة التكوينية والإفنائية والإعادة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ فكيف تصرفون قلباً وقولاً إلى نسبة ما ليس في الإمكان أن يتحقق من غيره تعالى إلى ذلك الغير البريء من الخير وهو عاجز عن رعاية نفسه فضلاً عن التصرف في ما عداه من أجزاء العالمين.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي للاحتجاج على المطلوب: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين تدعون لهم القابلية للالتجاء والاعتماد عليه ﴿مَّن يَهْدِىٓ﴾ الضال ﴿إِلَى﴾ طريق ﴿ٱلْحَقِّ﴾؟ وبحسب الواقع لا تسمعون الجواب إلا بالسلب، وإذا توقفوا فـ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ لا غيره من الخلق لأن الايصال إلى المطلوب لا يمكن إلا منه تعالى، فإن اتفقتم على أن الله هو الهادي إلى الحق قل ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾ وأليق بـ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ ويعبد ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بكسر الهاء والدال المشددة أي: لا يهتدي لنفسه ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾؟ من غيره ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تغفلون عن الحق والواقع و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ بأن الضال يهدي الحائرين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين في معتقداتهم الفاسدة الباطلة ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ واعتقاداً راجحاً غير مستند على سنة يعتمد عليه ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ الموصوف بما سبق ﴿لَا يُغْنِى﴾ الإنسان ﴿مِنَ﴾ اتباع ﴿ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتباع الظنون الفاسدة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قولاه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شروع في الرد على من ادعى أن القرآن المنزل على حبيب الله محمد ﷺ ليس منزلاً من الله تعالى وإنما هو كلام مختلق ومفترى على الله من جانب الرسول، ومعاذ الله وتعالى كتاب الله

أن يكون كذلك، فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: وما صح وما استقام أن يكون ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ مما ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ به على الله تعالى وصادر ﴿مِن دُونِ﴾ جانب ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى لأدلة قاطعة:

الأول: ما أشار إليه بقوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وبيانه أن من أنزل عليه القرآن رجل أمي لم يدرس ولم يصاحب أهل العلم بالتواريخ ولم يخرج من مكة المكرمة بحيث يظن أنه غاب لدراسة الكتب السابقة فلم يطلع على ما في التوراة والإنجيل من العقائد والأحكام مع أنه جاء ببيان أحوال صاحبي الكتابين وهما موسى وعيسى ﷺ وبيان ما جرى وما أيد الله به سبحانه ذينك الرسولين وأحوالهما ونشوءهما في آيات متعددة وسور كثيرة، ولولا أن القرآن منزل من الله تعالى ما أمكن لهذا الرجل الأمي بيان الكتابين وصاحبيهما بذلك الوجه الوجيه السليم.

الثاني: أن هذا القرآن مشتمل على تفصيل الشرائع السابقة المنزلة على الرسل الكرام وبيان أحوال الرسل القدماء السابقين على موسى وعيسى ﷺ من: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط... ولو لم يكن هذا القرآن منزلاً من الله تعالى لم يكن كذلك لأنه يمتنع أن يعلم إنسان غير ممارس لتلك الشرائع في العهود القديمة أن يبحث عنها وعن أصحابها، وعليه يكون المراد من ﴿تَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع وأصحابها. وفي التأويلات النجمية أن المراد بتفصيل الكتاب تفصيل الجملة التي هي المقدرة المكتوبة في الكتاب الذي عند الله لا يتطرق إليه المحو والإثبات، لأنه أزلي أبدي ودلالته على صحة نسبة القرآن إلى الله واضحة لائحة، لأن المراد بالكتاب حينئذٍ هو علمه القائم بذاته، لكنه لابد على هذا أن يراد بتفصيل الكتاب تفصيل نبذة منه.

الثالث: ما أفاده بقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وحاصله أن هذا القرآن مشتمل على قواعد كونية رصينة وعلى عقائد صحيحة حصينة وأمور عقلية من أحوال العالم العلوي والسفلي، ولا يمكن بيانها إلا من عليم خبير، ولهذا ربط هذه الفقرة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أن القرآن جاء بحقائق لا يرتاب فيها أصحاب العقول السليمة، أو لا ينبغي أن يرتابوا فيها، وذلك دليل على أنه نازل من رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم فيه منقطعة وهي مقدرة بكلمة بل الإضرابية والهمزة الاستفهامية الاستنكارية. والمعنى أبل هم يقولون افتراه ويأتون بهذه الدعوى الباطلة؟ وما دام جاؤوا بذلك ﴿فَقُلْ﴾ يا أيها الرسول المبلغ لوسيلة الوصول: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المدعون لذلك ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مثل ما فيه من السور طويلة أو قصيرة حاوية على ما فيه من وجوه الإعجاز بلاغة أو إخباراً عن الغيب، أو مغايرة بأسلوبه لأسلوب كلام الناس، أو مؤثراً بما فيه من الحقائق والأمور الواقعية في قلوب العاقلين المنصفين الصافين عن كدر العناد ﴿وَٱدْعُوا﴾ للمدد والعون وتأييدكم في هذا المطلوب ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعوته من آلهتكم التي ألهتكُم عن ملاحظة الحقائق التي تزعمون أنها تعينكم في النوائب والمهمات، أو من الكُتّاب والأدباء والشعراء وأصحاب البيان حال كونه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين عن الإتيان بشيء من الله، أو المقصود ادعوا غيرَ الله من شئتم من خلقه للتعاون معكم في ما سبق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن القرآن ليس كلام الله وأنه مفترى عليه، وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا الله رب العالمين.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ﴾ إضراب وانتقال من الله تعالى عن إظهار بطلان دعواهم بالتحدي إلى الإتيان بسورة مثلهِ إلى إفادة أن أولئك الجهال ليسوا في مستوى العقلاء المستدلين حتى يناظروا، وإنما كذبوا القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى لأنهم ليسوا في درجة أناس عارفين ولم يحيطوا بعلم ما فيه، وليست الحقائق المندرجة فيه من الأصول والفروع مما يصل إليه عقولهم. فالكلام معهم كلام عاقِلٍ عالم مع صبية غافلين وزاد على ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: لم يقفوا إلى الآن على تأويل معانيه وعواقب أسراره الدقيقة الدالة على علو شأنه ومستواه، وإلا كانوا يتوقفون عن ذلك الهذيان، ووقفوا على قدم الصدق والتصديق به بين الأعيان. أو معناه ولما يأتهم مآل هذا القرآن المنزل لتنبيه الغافلين وتوجيه العاقلين الدال على أنه كلام نازل من رب العالمين الذي يُمْلي للناس ثم يؤاخذهم بغتة ويفاجئهم دفعة، أو لم يأتهم إلى الآن من وقف في مقابل كلام الله تعالى بالتعاند والتخاصم، وسيأتيهم الجزاء يوم لا يوجد فيه خلة ولا شفاعة، وهو يوم عقاب الكافرين وهذه سنة الله تعالى مع الناس في الدنيا، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل تكذيبهم ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وسيأتيهم مثل ما أتى الظالمين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن الناس من يؤمن ويصدق به في نفسه أنه حق منزل من الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق به ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن العلم به. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنون به ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: أصروا على ما هم عليه من الضلال والكفر والتكذيب بك وبالكلام المنزل عليك ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لِّى عَمَلِى﴾ وتبليغي للرسالة ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ من الإفساد والتكذيب ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ ذاتاً وجزاءً ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إذ لا يسري جزاء أعمال أي مكلف إلى غيره.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني ومن أولئك المشركين ناس يستمعون إليك ويسمعون كلامك عند تلاوة القرآن أو في الأوقات الأخرى ولكنهم لا يستفيدون بما يسمعون إذ ليس عندهم عقل وشعور يكتفى بهما، فهم كالصم الغفل ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾؟ والجواب بالسلب لأن الأصم إذا كان عاقلاً أمكن أن يستفيد شيئاً بالفراسة لكن إذا أضيف عدم العقل إلى الصمم فهناك فقدان الفوائد والعوائد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ لكن لا نظر الناقد الخبير بل نظر الجاهل الفاقد فهو والأعمى سواء في عدم إدراك المقصود ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ولو أضيف إلى عماهم في الأبصار عماهم في البصائر؟ والجواب هو السلب أيضاً كما مر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ مما ارتبطت به مصالحهم حسب ما يباشرونه من الأعمال وما يحفظونه من العقائد إن كانت على حسب الواقع السليم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بترك الاستبصار والاعتبار والاستدلال بالآفاق والأنفس، فمن عاند الله ورسوله هو الذي منع وصوله، ومن أساء الاختيار فهو الذي اختار لنفسه الخسران، ومن سلك سبيل الاهتداء إلى الحق فهو الذي ترقى طبقاً عن طبق. فالناس أمام الله سواء، والفارق هو صرف الاختيار إلى جانب الإقبال أو الإدبار. أعاذنا الله من الفساد وهدانا سبيل الرشاد.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يوم منصوب بمضمر، أي: اذكر لهم أو أنذرهم يوم نحشرهم ونجمعهم لموقف الحساب وجملة ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في موقع الحال من مفعول يحشرهم. يعني وأنذرهم يوم يحشرهم الله تعالى للميزان والحساب وأخذ الثواب ونيل العقاب، حال كونهم متأسفين من عدم انتفاعهم بالحياة السابقة، أو قلتها وعدم الاعتبار بها بالنسبة إلى عالم الآخرة الأبدية كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: مقداراً قليلاً منه ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً بالذوات والأحوال والأوضاع التي جرت بينهم. ومعناه أنه ليس ذلك الوقت وقت الغفلة والجهل بما مضى، أو ليس وقتاً وهمياً يدركونه بلا شعور بالحقائق، بل يعلمون أنهم هم الناس السابقون الذين جرى عليهم ما جرى في الدنيا من الطاعة والمعصية، وفي تلك الساعة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ ولم يؤمنوا به فلم يطيعوا رسوله ولم يخضعوا لأحكام كتابه المنزل ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصراط المستقيم. فهذا حالهم في الآخرة. وأما في الدنيا ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من الدمار والهلاك كما أريناك عذابهم يوم بدر؟ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك وإن لم تبصر ما يأتي عليهم في الدنيا وتوفيناك قبل ذلك فلا تظن أنهم يخلصون من العذاب ﴿فـ﴾إنهم ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأعمال السيئة ولا شك أنه يجزيهم عليها.

ثم أتى بمجمل ما يجري يوم القيامة وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يوم القيامة ﴿رَسُولٌ﴾ تدعى باسمه ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ ووقف بين يدي الله ليشهد على أعمالهم ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: يقول الكافرون: متى وفي أيّ زمان يتحقق هذا العذاب الموعود به في الدنيا ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في الإخبار بوقوعه وروده علينا ﴿قُل﴾ في جوابهم ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ بدفعه عنكم ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذّبين ﴿أَجَلٌ﴾ وقتٌ معين لحلول العذاب عليهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقرّر ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيل: إذا جاء أجل العذاب فطلب تأخيره معقول دون طلب تقدمه فما وجه قوله ولا يستقدمون؟ وأجيب بأجوبة:

الأول: إن صيغتي الاستفعال بمعنى صيغة التفعل، فالمعنى لا يتقدم أجلهم ولا يتأخر.

الثاني: إنّ ربط الجواب بالشرط مؤخر عن اعتبار العطف أي: إنه إذا جاء أجلهم فلا مجال للتأخر والتقدم، وكلاهما مستحيل.

الثالث: إنّ جملة لا يستقدمون عطف على جملة الشرط، أي: إنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرونه كما أنه لا يتقدم الأجل على الزمان الموعود المقرر له.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا﴾ أي: وقت بيات أي: في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ عند اشتغالكم بأمور المعيشة ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: أيّ نوع من العذابين يستعجل المجرمون: عذاب الليل أو عذاب النهار؟ أي فالكل مكروه فماذا يريد المجرمون؟ معناه إنّ العذاب الموعود سيتحقق بلا شبهة إما في الليل أو في النهار وكل منهما مكروه لا ينبغي الاستعجال له، والواقع إن الكافر ينكر ورود العذاب، فلا يتحقق في زعمه واستعجاله مبني على الاستنكار لوجوده. والباري تعالى يَرُدّ عليه ويقول: إنّ ورود العذاب عليهم محقق لا شبهة فيه فلا وجه لاستعجاله والسؤالِ عن زمان وروده ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: أإذا وقع العذاب عليكم

آمنتم به؟ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أتؤمنون به الآن، أي: بعد أن خَرج من القوة إلى الفعل ومِنَ العدم إلى الوجود فما هي فائدة هذا الإيمان والحال أنكم قد كنتم به تستعجلون استهزاء واستنكاراً وإنكاراً لوروده؟ والكلام على ما قيل مسوق من جهته تعالى.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بعد ورود العذاب عليهم في الدنيا بلسان الملك الموكل به، أو في الآخرة على لسان المأمورين به: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: تعذبوا بعذاب مؤبد خالد وارد عليكم جزاء وفاقاً لما صدر عنكم، ولا مجال للتعجب من ذلك العذاب الخالد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؟ من الكفر والجحود والعناد إزاء رب العباد ورسوله الآتي بالرشاد والإرشاد ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ يا حبيبي: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾! نعم قسماً بربي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين العذاب وإنه وارد بكم حقاً ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولو أنها ملكت جميع ما في الأرض ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ به عن نفسها للتخلص من العذاب ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ عما صدر عنهم ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكن لا ينفع الندم إذ ذاك ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: وحكم بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ عندما يحكم عليهم بالعذاب.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه تذكير وإرشاد إلى الإيمان بالباري سبحانه وتعالى، وبوجوب وجوده ووحدته من جهة الاستدلال بالآثار على وجود المؤثر وبإتقانها على علمه وباستمرار نظامها على وحدته. فيقول: أيها الناس انتبهوا إن ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً وإبداعاً كل ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجماد والنبات والحيوان، فوجودها الممكن المحتاج إلى المرجح يدل على وجوده تعالى، وإتقان صنعها يدل على علم الباري وقدرته، ونظامها المستمر يدل على وحدته تعالى، وكما أن وجوده بصفاته الكمالية حق كذلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بفناء العالم وموت الأحياء ثم بعثهم وحسابهم، وميزان أعمالهم ﴿حَقٌّ﴾

وكل ذلك مما يرشد إليه الرسول الكريم فهو حق أيضاً وتبليغه حق، والإيمان بما يبلغه حق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق الثابتة لتماديهم في الغفلة وقلة تفكرهم في العواقب ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو الذي يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا، لأن كل عاقل بصير يعلم أن الوجود وفيضه على الممكن من آثار واجب الوجود دلالة من الأثر على المؤثر الغني عما عداه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكما أنه هو الذي يحيي ويميت فهو الذي يبعث الأموات لإيصال جزاء العاملين إليهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وهذه شيمة أعدل العادلين.

ثم يرغب الناس في الاستفادة من ينبوع القرآن ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ هذه الآية الكريمة من الآيات المهمة الدالة على درجات القرآن الكريم من حيث إفادته للعقلاء ما يوجب سعادة الدارين بوجوه:

الأول: إنه موعظة وتنوير وتذكير بوجه لَيّن مُليّنٍ للقلوب يوجههم إلى الخير، فيرشدهم إلى الاعتدال في كل الأمور المادية والمعنوية، يرشدهم إلى اكتساب العلم والمعارف لتحصيل المعيشة من الوجه الحلال، وصرفه في ما ينفعه في الحال والمآل، وإلى صرف بعض الأوقات في طاعة خالق الأرض والسماء الذي أنعم عليهم بما لا يُعَد ولا يحصى. وذلك شكراً للنعمة وجلباً لمزيدها مع الرحمة، وإلى أنّ جزاء الأعمال الحسنة جزاءٌ مؤبد خالد لا نهاية له، فإن الإنسان، وإن كان حادثاً يفنى ومركباً يَبْلى، لكن هذه العوارض مختصة بالدنيا، وأما في الآخرة فالإنسان في نشأة ثانية أبدية ومخلوق في بنية قوية وإدراك شامل وإحساس كامل وروحانية سالمة صافية خالدة أبدية... وهذه الموعظة الوافية الكافية ﴿جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ العليم العظيم.

الوجه الثاني: إن القرآن قرآن وشفاء لما في الصدور من أكدار الجهل والغباوة، ومن أقذار العناد والشقاوة، فإن القرآن حاوٍ على علوم الأولين والآخرين، فمن تعلمه وعمل بما فيه انشرح صدره بعلوم كثيرة وفوائد وفيرة، ومن تنور بأنوار معانيه ومقاصده شُفِي من مرض الكفر والإلحاد والعداوة والعناد، وتوجه بروحه إلى رب العباد، وبقي صحيحاً سالماً إلى يوم الميعاد، وهناك لا يكون فساد وخلل من العرض والمرض.

الوجه الثالث: إن القرآن هَدْيٌ وهِداية وعَوْنٌ وعناية على مستويات معلومةٍ

عند أصحاب الدراية فإن فيه هدى إلى بيان العقائد والأحكام الإسلامية، ومن أخذها على وجه السلامة اهتدى إلى مستوى المسلمين الرابحين، ومن استفاد من الإخلاص في تطبيقها بالإذعان بها ورعاية الأدب والخشوع والخصوصية فيها تَرَقى إلى مستوى الأولياء والصالحين، ومن اعتنى به زائداً على هذه الدرجة وصل إلى مستوى الصديقين، وأي هدي وأي رحمة وفضل أحلى وأعلى من الوصول إلى تلك المستويات الرفيعة والمقامات العالية؟ وكل المؤمنين مشتركون في هذه الهبات الوافرة على حسب درجاتهم في العلم والعمل والإخلاص، ومن حيث عناية الله تعالى بهم، ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله للمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي للناس ليفرحوا ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ وليغتنموا ما في القرآن الذي أنزل موعظة وشفاء وهدى ورحمة من الفضل ومن النور المشتعل في القلوب بتلاوته وحفظه ورعايته والعمل بآدابه ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ لا بغيره من الشهوات النفسية والملذات الحيوانية، ومطامع النفس الدنية ﴿هُوَ﴾ أي: المذكور من فوائد القرآن الكريم ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: يجمعونه من الأموال والأنعام والحرث ونحوها، فإنها سائرة إلى الفناء.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل يا حبيبي أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ من مقام المنعم الرفيع القدر إلى مستوى العباد النازلين ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ لكم من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات وسائر ما تَمتعْتُم به ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ بهوى النفس لا بهدى القدس ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تفترون والجواب الصحيح أنهم افتروا على الله الكريم في ذلك. وحاصل الآية الشريفة أمره برسوله ﷺ أن يستنكر تصرفاتهم الهوائية في نعمة الباري تعالى وتقسيمه إلى الحلال والحرام والاعتراف بأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله، ورجوعهم إلى الإيمان به تعالى في سائر التصرفات والشؤون بدليل تهديدهم على ذلك بقوله الكريم ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: ما هو ظنهم بجزائهم وعذابهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ هل يظنون أن لا عذاب عليهم في ذلك اليوم وهو

ظن مخالف لسنة الله في عباده أو أنهم يعذبون وهذا هو الحق الواقع فلم لا ينتهون عن إجرامهم وآثامهم؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأجيل عذابهم إلى ذلك اليوم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ الآية... نزل تطميناً لخاطر الرسول وتنويراً لقلبه الشريف بأن الله تعالى يراقبه في حالاته كلها، فهو تحت الرعاية والعناية فيقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أنت يا حبيبي ورسولي ﴿فِى شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي يُعْتنى بها ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الشأن ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ وحاصله وأي من شؤونك يتلى وذلك هو القرآن. فالضمير المجرور راجع إلى الشأن و﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ بيان لذلك الشأن المتلوّ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أياً كان ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مُطّلعين حافظين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تشرعون فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الجهتين العالية والسافلة. والمراد بهما دائرة الوجود ﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ من ذلك أي: من مثقال ذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ أي: منه ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: واضح عند صاحبه وهو علم الله الأزلي أو اللوح المحفوظ. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ جمع ولي وهو القريب والمحب والنصير ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات مطلوب. واستشكل بورود نصوص تدل على وجود الخوف والحزن للرسل الكرام الذين هم أكبر الأولياء كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ وقوله حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأجيب عنه بأنه ليس المراد بالخوف والحزن المنفيين الخوف والحزن الغريزيان اللذان يلزمان العقلاء، ولا الخوف من الله تعالى الذي يلزم كل عبد

صالح، ولا الحزن من القصور في حق عبادته، وإنما المراد أن أولياء الله تعالى محفوظون بفضل الله وعونه من الآثام والذنوب التي توجب الخوف يوم القيامة، ومن القصور في أداء الواجبات وترك المحرمات التي توجب الحزن عليها. فهم في يوم القيامة يغْشيهُمُ الأمن والفرحُ من بشرى الملائكة لهم كما أن الناس الغافلين يغشيهم الخوف والحزن من مباشرة الآثام والمعاصي، فهم على مقابلة لهم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وعلى هذا يكون نفي الخوف والحزن عن الأولياء بالنسبة إلى يوم القيامة فقط لا في الدنيا أيضاً لأنهم بشر كسائر الناس.

وقد يقال: إن لأولياء الله تعالى حالتين حالة اعتيادية ناشئة من ملاحظة الأسباب والمسببات حسب جريان سنة الله تعالى، وحالة ربانية أي ذات علاقة بالاستغراق في مراقبة الباري جلّ جلاله. فهم في هذه الحالة في الدنيا لا يأتيهم الخوف ولا الحزن من أية جهة من الجهات، لأن القلب المشغول به تعالى كالعضو المخدر لا يبقى فيه الإحساس بالآلام، ويتبعون الرضا بجريان القضاء، وفيهم حالة نفسية وقوة إيمانية مانعة من ورود الخوف والحزن عليهم من هذه الجهة لرضائهم المطلق بما يجري به القضاء.

والأولياء في الآية الشريفة هم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بجميع ما جاء من عند الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة والبداهة لا مما اختلف فيه بين كونه من الدين أولا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ عما يجب الإتقاء منه من الكفر بأنواعه والكبائر بأنواعها وسائر ما يبعدهم عن الله تعالى، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أما في الحياة الدنيا فبطرق كثيرة منها: الرؤيا الصالحة التي يراها وتوجب رفع الكدر عن قلبه، أو دفع البلايا والأذى وما يوجب ابتلاءه به. ومنها: تيسير أموره وحل مشاكله بسبب الناس المتعاونين معه ولذلك وجوه كثيرة. ومنها: إلهامه ببعض الحلول التي ليس مما يعرفه بذاته. ومنها: إهلاك أعدائهم بدون مباشرتهم لأسباب إهلاكهم. ومنها: تحويل قلوب الأعداء من السخط إلى الرضا ومن القهر والعناد إلى اللطف والمحبة. ومنها: انشراح صدورهم بلطف من الله بحيث تحصل لهم حالة عالية غالبة على مشاعرهم حتى ينمحي عندها كل ما في قلوبهم من الفزع والقلق. ومنها: تهافت الأرواح الصالحة أو الملائكة عليهم عند احتضارهم. ويدل على ذلك ما يخبرون به في ذلك الوقت من مجيء الناس الصلحاء إليه، أو نطقهم بعض آيات أو أبيات أو كلمات

مبشرة بحيث يعلم الحاضرون أنه مبشر بها. وأما في الآخرة فبحشره مع الأخيار الأبرار، وببشارة الملائكة له، وبانقضاء دور الموقف وأتعابه عليه بسهولة وبشرف لقاء الباري تعالى سبحانه وتعالى، وبشفاعة سيد الأنام له برفع درجاته وبسائر وجوه الخير الموجبة لرضاه واستبشاره في دار القرار.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من أقواله الواردة في البشارات للأولياء والصالحين بوجود البشرى لهم في الدنيا والآخرة. ومنها: سائر وعوده بالخير لدرجات المؤمنين، ومنها: كلماته المقررة لثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار، ومنها: إعلان قبول التوبة ممن تاب إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ النيل بالبشرى في الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بالخيرات من الله الكريم ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: قول أعدائك وأعداء دينك في إنكار رسالتك والتقول على الكتاب المنزل عليك ونسبة العزة إلى أنفسهم ونسبة غيرها إليك وإلى أمتك ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بكل أقسامها وطرقها في الدنيا والآخرة من كان يريد العزة فللَّه العزة جميعاً. وقد أخبر الله تعالى بحصرها فيمن يستحقها بقوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. وقد حقق الله عزتك بتخليد دينك ونشره في ربوع العالم ومهابة أهله ما داموا يمشون على منهجه القويم. ونسأل الله أن يجعلنا من أمته الأعزة في الدنيا والآخرة آمين. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنياتهم وأفعالهم، وسيجزيهم يوم الدين.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ يُنبه ويبين أن الله سبحانه وتعالى مالِك رِقاب العقلاء مِن الجن والإنس، فكيف بالحيوان والنبات

والجماد المخلوق لانتفاعهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني وما يتبع الذين اتخذوا شركاء لله طريقاً مستوياً مبنياً على اليقين المطلوب في الاعتقادات ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وليس الظن المتبع لهم ظناً مبنياً على أدلة فيها قدر وقيمة، بل هو ظن موروث من التقليد الباطل المبنيّ على العادة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يَخزرون ويُقدرون أنهم شُركاء بدون دليل مبين ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يعني إن الله تعالى الذي يكلفنا توحيده هو القادر الذي جَعَل لكم الليل زماناً مستوراً هادئاً لتسكنوا فيه بأمانٍ وَرحمة، وجَعَلَ لكم النهار مبصراً أي: ذا إبصار لكم فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الجعل والتصرف وإظهار القدرة القاهرة ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ وبراهين ساطعة على وجوب وجوده وتوحيدِه واتصافه بسائر صفات الكمال ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الأدلَّةَ القاطعة والبراهين الساطعة. وأما من لا يسمعها فلا ينفعه ما في الكائنات من الآيات البينات قطعاً.

﴿و﴾ إنما يتبعون بعض العقائد الزائغة الضائعة المأخوذة من أهل الهوى ومن جملة عقائدهم هذه أنهم ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ لقولهم أن الملائكة بناتُ الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وتعالى عن تلك النسَب الفاسِدة فإنه ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المستغني عن جميع الكائناتِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة دامغة ﴿بِهَٰذَآ﴾ القول المذكور الباطل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ من المختلقات الكاذبة. ﴿قُلْ﴾ لَهُم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فينسبون إليه الولدَ والشريكَ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ من عذاب الآخرة ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تلك الأكاذيب متاع نفساني حقير في الدنيا ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم المستمر.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ يعني واتل على المشركين من أهل مكة وغيرهم نبأ نوح ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن كان يثقل ويشق عليكم شخصي وإقامتي بينكم وتذكيري إياكم وإرشادي لكم بتلاوة آيات الله عليكم لتسمعوها مني ولتؤمنوا بها وتأخذوا طريقكم المستقيم في التوحيد ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فلا اعتماد لي على أحد إلاَّ على الله، لأنه هو الذي يعين الضعفاء وينجي من قوة له من قهر الأعداء ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فاعزموا مع شركائكم على أمركم في مقابلتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا يكن أمركم ومقصودكم مستوراً غير مكشوف عليكم أي: فليكن عزمكم على عداوتي ومخاصمتي علنية ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ثم أتوا عليّ ولا تمهلوني. فإن قَتلتموني فَقَد خلصتم مني، وإن رجعتم عن عدائي وآمنتم فللَّه الحمد والمنة، وإن بقيتم على ما أنتم عليه وتركتموني فما خسرتم في الدنيا ولا خسرت أنا. أما أنتم فما خسرتم شيئاً لأنه ما سألتكم مقابل تذكيري وإرشادي لكم من أجر أطالبكم به حتى تقعوا في المدافعة ومحاولة الخلاص وتخسروا هنالك شيئاً، وأما أني فما خسرت شيئاً فلأني عبد مطيع لله، وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين له تعالى، والواجب عليّ التبليغ وقد بلغتُ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فاستمروا على تكذيبه كما كانوا عليه، فحقت عليهم كلمة العذاب، فأمرنا السماء بالإمطار والأرض بالإنفجار، وحصل الطوفان، وطغى الماء على البسيطة، فأمرنا نوحاً أن يدخل هو وأتباعه الفُلكَ المصنوع لهذا اليوم، فدخلوا ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وكانوا في المشهور أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: دون ذلك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ عمن هلك بالغرق بسبب الطوفان ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم المتمردون من قوم نوح ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ يعني أنه بعد أن أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم زمناً طويلاً، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، وهم عاندوا واستكبروا وكذبوا وكفروا حتى أغرقتهم بالطوفان.. بعثنا رسلاً آخرين إلى أقوامهم، وذلك بعث سيدنا هود إلى عاد، وبعث صالح إلى ثمود، وغيرهما من

الرسل كل إلى قومه، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: فجاء أولئك الرسل الكرام إلى تلك الأقوام بالمعجزات القاهرة، والأدلة الواضحة المتوافرة، لإثبات رسالتهم من الله تعالى ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يعني فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بالحكم الإلٰهي الذي كذبوا به من قبل مجيء تلك الرسل إليهم، وذلك لأن تلك الأقوام لما سمعوا أخبار الرسل السابقين وقصص هلاك الأمم التي أرسلوا إليها لم يؤمنوا برسالتهم، وحملوا هلاك أقوامهم على الكوارث الاعتيادية من البركان والعواصف وغيرها... ولما جاءت الرسل إليهم استمروا على ما كانوا عليه من التكذيب. وعلى ذلك فضمائر الأفعال الثلاثة راجعة إلى الأقوام المرسل إليهم، أي: كما أن الأمم السابقة عليهم لم يؤمنوا بهم كذلك اللاحقة. والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ للصلة هذا. ويحتمل أن يكون سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاء به إليهم الرسل بسبب عناد راسخ في قلوبهم من تكذيبهم بالرسل سابقاً ولاحقاً.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الطبع ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يعني أن مثل هذا الطبع الذي طبعنا على قلوب أولئك الأقوام الضالين بسبب شدة شكيمتهم وعتوهم وعنادهم مع الحق نطبع على قلوب الكافرين المعتدين على الرسل بالتكذيب، وعلى الله بعبادة غيره، فمن اعتدى على الله ورسوله طبعنا على قلبه ومنعناه من وصول الحق إليه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا من بعد نوح عليه السلام رسلاً كراماً إلى قومهم منهم مَن قصصنا عليك كهود أرسل إلى قوم عاد، ثم صالح أرسل إلى قوم ثمود. ومنهم من لم نقصص عليك فإن الرسل بين نوح وإبراهيم كانوا كثيرين. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحة الدالة على رسالتهم، أو بالمعجزات كذلك ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: فاستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد أولئك الرسل عليهم السلام، من هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من بني إسرائيل وغيرهم ﴿مُّوسَىٰ

وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف خواصه الباغين الذين كانوا يجتمعون على رأي من الآراء الدائرة في البين فملأوا أعين الناس رهبة وهيبة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المعجزات القاهرات للأعمال المدهشة الأخرى كعصا موسى، ويده البيضاء، وغيرهما ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الانصياع لرسالتهما ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ شأنهم البغي على الحق والعناد لأهله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: المعجز الحق الثابت في الواقع المنزل من عندنا من المعجزات ﴿قَالُوٓا۟﴾ في تبرير موقفهم العنادي الاستكباري ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمر الذي أظهره موسى لكسر شوكتنا ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح كونه سحراً.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام في الرد عليهم مستنكراً لمقالتهم الباطلة: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ المنزل من الله تعالى لما جاءكم ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ وإنا الحمد لله من المفلحين، فلست بساحر، وليس عملي سحراً قطعاً.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ يعني قال فرعون وملأه لموسى عليه السلام حين قال لهم ما قال: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من الآداب والتقاليد ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: لك ولأخيك هارون الكبرياء أي الملك العظيم في الأرض؟ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أبداً ولا نصدقكما فيما جئتما به ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لما استقر رأيه ورأي أتباعه على أن ما جاء به موسى هو السحر ﴿ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ حاذق في معرفة السحر ليغلبوا على موسى فيه ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ وحضروا في الساعة المقررة للمبارزة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ

﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي: تقدموا بإلقاء ما تريدونه من أعمالكم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا﴾ ما ألقوه من الحبال وغيرها ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ لا غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ لأن سنة الله جرت بإعلاء كلمة المرسلين وتنزيل كلمات المبطلين، لأنهم مفسدون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ سواء كان من الواقعيات أو الأوهام والخياليات ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يؤيده وينصره ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بأوامره النافذة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام مع انتصاره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلا جمع قليل من بني إسرائيل من الذين كانت قلوبهم مشتعلة بنور الحق والتضحية لله وذلك ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الضمير راجع إلى فرعون وملئه، أي: وكان إيمانهم مع خوف من فرعون وأركان دولته العُصاة القُساة ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ مربوط بالخوف، أي: على خوف من أن يفتنهم فرعون. وإفراد الضمير هنا لأنه المبدأ للسيئات، وجمعه في ما تقدم نظراً له وللمباشرين من أعوانه ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستكبر طاغٍ باغٍ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين في البغي والعناد وتعذيب العباد، لأن قسوة قلبه أضاعت خلقه وأدبه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه بعد أن علم ببوادر سيئات اتباع فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ وعليه اعتمدوا ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مطيعين لله رب العالمين ﴿فَقَالُوا۟﴾ له عليه السلام مجيبين مستجيبين ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: محل بلاء ومحنة وفتنة ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فرعون وأعوانه المفسدين الطاغين ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المعاندين المعهودين وغيرهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ الآية... كلمة ﴿أَن﴾ إما مصدرية، أو تفسيريه بمعنى أي، لأن الجملة السابقة فيها معنى القول لا لفظه ﴿تَبَوَّءَا﴾ قيل: إنه يتعدى إلى مفعول واحد، يقال تبوأ القوم بيوتاً، فإذا دخلت اللام على الفاعل فقيل: تبوأت للقوم بيوتاً تعدى إلى ما كان فاعلاً باللام، فيتعدى لاثنين كما هنا. وقال أبو علي: هو متعد إلى اثنين بنفسه واللام زائدة. فقوله تعالى: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ أحد المفعولين ﴿بُيُوتًا﴾ هو المفعول الأخير. أي: اتخذا بيوتاً لقومكما

مباءة ومرجعاً ومنزلاً، وقيل: هو متعد لمفعول واحد ولقومكما متعلق بمحذوف وقع حالاً من البيوت. وقوله ﴿وَٱجْعَلُوا﴾ أي: أنتما وقومكما. ففيه تغليب للمخاطب على الغائب وقوله ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ أي: البيوت المتخذة ﴿قِبْلَةً﴾ أي: منازل يصلى فيها. أو مساجد للصلاة خاصة. فقوله قبلة على الأول مجاز عن المصلى، أي: اجعلوا منازلكم هذه مُصَلّيات لكم. وعلى الثاني مجاز عن المساجد لأنها فيها جهة القبلة. أي: اجعلوا بيوتكم المتخذة للصلاة مساجد متوجهة للقبلة. أي: ابنوها على اتجاه القبلة. والمراد بالقبلة هذه الكعبة فإن موسى عليه السلام كان يصلي إليها.

وفي «روح المعاني»: واعترض القول بحمل القبلة على المساجد المتوجهة إلى الكعبة بأن المنصوص عليه في الحديث الشريف الصحيح أن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع الشمس، ولم يشتهر أن موسى عليه السلام كان يستقبل الكعبة في صلاته فالقول به غريب. وأغرب منه ما قاله العلائي من أن الأنبياء رضي الله عنهم كانت قبلتهم كلهم الكعبة. قيل: وجعل البيوت مصلى ينافيه ما في الحديث: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» من أن الأمم السابقة كانوا لا يصلون إلا في كنائسهم. وأجيب عن هذا بأن محله إذا لم يضطروا، فإذا اضطروا جازت لهم الصلاة في بيوتهم كما رخص لنا صلاة الخوف. فإن فرعون لعنه الله تعالى خرب مساجدهم ومنعهم من الصلاة، فأوحى الله إليهم: أن صلوا في بيوتكم كما روي عن ابن عباس وابن جبير. وقد يقال إنه لا منافاة أصلاً بناء على أن المراد تعيين البيوت للصلاة وعدم صحة الصلاة في غيرها، فيكون حكمها إذ ذاك حكم الكنائس اليوم، وما هو من الخصائص صحة الصلاة في أي مكان من الأرض، وعدم تعين موضع منها لذلك. انتهى.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها. قيل: أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بحصول مقصودهم أي النصر المبين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ الآية... يعني إن موسى عليه السلام لما رأى بوادر فتنة بني إسرائيل من فرعون وملأه أخذ يدعو عليهم، وقال: ربنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ أي: أركان دولته ﴿زِينَةً﴾ مما يتزين به الناس في مرأى غيرهم من: اللباس: والحلى، والنساء، والأسلحة الخفيفة المحمولة، والمراكب العالية الغالية، والقصور والحدائق... إلى غير ذلك ﴿و﴾ آتيتهم ﴿أَمْوَٰلًا﴾ كثيرة من النقود والمزارع والمستغلات في الحياة الدنيا ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ واللام إما لام الأمر والأمر للدعاء والفعل مجزوم، أو لام العاقبة والصيرورة والفعل منصوب. ومعرفة عاقبتهم كانت بالوحي، أو لام التعليل. ومعناه إخبار موسى عليه السلام بأنه تعالى إنما زوّدهم بالزينة والأموال الكثيرة استدراجاً لهم ليزدادوا إثماً وضلالاً كقوله تعالى إنما نملي لهم. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلكها فإن الطمس هو الإهلاك أي: أمْحِها من الأساس بالإبادِة أو أخرجها عن أن ينتفعوا بها بحيث تجعل تناولها وأكلها وشربها ولبسها أسباب أمراض وأتعاب ودمار ونغص في العيش، وتعب في الحياة حتى لا يستفيدوا منها لأنفسهم، فضلاً عن جعلها وسائل للسيطرة على المستضعفين وإبادتهم ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعلها مشدودة قاسية عاصية لا تتفتح لدخول روح الرحمة فيها حتى لا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ويعاينوه بحيث لا ينفعهم الإيمان.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى في جواب هذا الدعاء الناشىء من موسى وهارون المحكي بلسان الأول منهما لتقدمه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وإني قضيتُ بإبادة فرعون وجنوده وغرقهم في الماء ثم عرضهم على النار غدواً وعشياً إلى قيام الساعة وإدخالهم في أشد العذاب في الآخرة خالدين، وقضيت بحرمانهم من أموالهم وزينتهم وحدائقهم وشوكتهم إلى يوم يبعثون ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ واثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزام الحجة والصّبر على ما تلقونه من سواد الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنةالله في العالمين بإمهال الظالمين إلى وقت معلوم ثم الإنتقام منهم أشد الإنتقام كما آذوا الرسل وأتباعهم الكرام.

فإن قيل: كيف ساغ لسيدنا موسى عليه السلام الدعاء على فرعون وأتباعه بالكفر المستلزم لاستحبابه والرضا به والمشهور أن الرضا بالكفر كفر؟ أجيب بأن المطلوب منه عليه السلام بدعائه قضاء الله تعالى وحكمه وتأثيره في قلوبهم بذلك، والرضاء بفعل الله تعالى وقضائه جائز بل واجب، فللكفر والمعاصي الكبائر

والصغائر أيضاً جهتان: جهة الإبداع والإيجاد والتأثير، والرضاء بذلك واجب على أهل الإيمان بلا شك وشبهة، وإنما المنهي المنفور المحرم الرضا بكفر الإنسان وارتكابه للذنوب من حيث إنه صفته وأثر ثابت عنده وهو واضح. فسيدنا موسى عليه السلام دعا عليهم بذلك وتأثير الله تعالى فيهم لينتقم منهم جزاءً لما ارتكبوه من دعوى الربوبية والألوهية والطغيان والبغي والاستكبار وذبح الأولاد الصغار وسائر ما ارتكبوه من الجرائم الشنعاء... وليس في ذلك إلا طلب الإنتقام من الكفرة اللئام.

وقد يجاب بأن المذموم الدعاء بالكفر على من جهلت عاقبته، لا من علم موته على الكفر بالوحي وموسى علم ذلك بذلك.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية... أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أنه أجيبت دعوته ودعوة أخيه على فرعون وملئه وجاء وقت أخذ الإنتقام منهم فأخرج ببني إسرائيل واعبر النيل، فأطاع الله سبحانه وتعالى، وأمر بني إسرائيل بالخروج من مصر ليلاً، وكانوا ستمائة ألف نسمة فخرج بهم على حين غفلة من فرعون وجنوده، فلما أحس بذلك خرجوا إثرهم مسرعين فالتفت القوم، فإذا الأعداء الكفرة وراءهم، فقالوا: يا موسى هذا فرعون وجنوده وراءنا، وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص؟! فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق اثني عشر فَلْقاً كل فرق كالطود العظيم، وصار لكل سبطٍ طريقٌ، فسلكوا ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه فرعون بمن معه أجمعين، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: جعلناهم متجاوزين من النيل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي:

للبغي والعدوان على بني إسرائيل حصولاً أو تحصيلاً للزائد على ما كان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ﴾ أي: فرعون ﴿ٱلْغَرَقُ﴾ مع الغارقين ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين انقادو الله وأسلموا نفوسهم له.

فقال الباري سبحانه إظهاراً لما استنكروه من إيمان فرعونَ حال اليأس بعدما جرى منه ما جرى من دعوى الربوبية والبغي والعدوان على من خالفه، ولا سيما على بني إسرائيل قبل مجيء موسى وهارون عليهما السلام إليه وبعده، وعلى لسان الملك المأمور بذلك القول، أو على لسان موسى بعد اطلاعه على ما قاله بوحي من الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يعني أتؤمنُ الآنَ حين اليأس من كل معين، ونزول البأس عليكم أجمعين ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ بنفسك وبزبانيتك، ويتحمل كبير القوم كلَّ ما فعلوه ﴿وَكُنتَ﴾ أنت وإياهم ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في العالم بشتى جهات الإفساد في العباد؟! ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ يا فرعون ﴿بِبَدَنِكَ﴾ الهامد الهالك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من الباقين بعد غرقك من معاصريك وَمَن يأتي في المستقبل ويطلع على أمرك ﴿ءَايَةً﴾ وحجة قاطعة على أن الله تعالى ينصر الحق المبين ويقهر الباغين، وقادر على كل ما أراده بالعالمين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الناسون لله تعالى وقدرته القاهرة الباهرة ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، وكذلك الإنسان على مَر الأيام والأزمان.

يروى أنه بعدما أغرق الله فرعون ومن معه ونجا موسى وأتباعه قال بعض الغلاة الضالين: إن فرعون لم يغرق وذهب إلى رب السماء للتفاهم معه في قضية بني إسرائيل. فأظهر الله بدن فرعون وجعله على شاطىء النيل، فوجده الأقباط وعرفوه وأخذوه وحنطوه على ما هو المرسوم لملوك الأقباط فبقي بدنه إلى يومنا هذا. فصار آيةً لمن رآه في ذلك الزمان أو بعده، على أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم أخذ الباري تعالى يستأنف لبيان إفاضة نعمه الكثيرة على بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون، فملكهم ما عاشوا فيه على تَرْفِيهٍ ويَقول: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلناهم بعد أن أنجيناهم مُبَوَّأً ومنزلاً مرضياً يقال له المبوأ بالصدق ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ من اللحوم والشحوم والحلاوى وبقوا فيه متنعمين منفقين ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ﴾ في أمور دينهم وكانوا متبعين أمر رسولهم عليه السلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بأمور دينهم أصلاً وفرعاً اعتقاداً وعملاً. أو لم يختلفوا في بعث

محمد العربي ﷺ على ما توارثوه من أسلافهم حتى جاءهم العلم ببعثه ﷺ من بشارات التوراة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أحكام دينهم في تلك الأوان أو في بعث محمد ﷺ رسول آخر الزمان.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ الآية... الخطاب للرسول ﷺ على سبيل العرض والتقدير لأن تحقق الشك منه محال عادة، والمعنى إن كنتَ في تردد ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من قصص إهلاك فرعون وجنوده أو غير ذلك ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ المنزل من الله تعالى من قبل بعثك فإن ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم، وكذلك نزول الأحكام الإلهية الأصلية أو الفرعية محققة عندهم ﴿لَقَدْ جَاءَكَ﴾ القول ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ العالم بالحقائق كلها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين والمقصود إن الشك في آيات الله تعالى لا ينبغي تحققه من أي عاقل عالم مؤمن بذات الله تعالى وصفاته الكمالية التي من آثارها ما يمكن أن يوجد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بشيء منها من الاعتقاديات أو العمليات أو قصص الماضين أو المستقبل مما هو آت ﴿فَتَكُونَ﴾ بالتكذيب ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ حالاً ومآلاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حكمه وقضاؤه لسوء ما يسوقه إليه نزعاته وهواؤه بل غوايته وهواه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبداً ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ تدل دلالة قطعية على وجود الباري وكرمه وجوده ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بالإهلاك فلا ينفعهم الإيمان إذ ذاك.

وبيان ذلك: إن أفعال العباد بأسرها معلومة له تعالى ومرادة له، ولا يكون إلا ما أراده سبحانه وتعالى وتعلق به علمه، وهما متوافقان بالوجه الواقع، ولكن الإرادة تابعة للعلم كما أن العلم تابع للحياة تبعية ذاتية. والعلم المتعلق بأفعال

العباد يحكي صورة ما يتوجه إليه قصدهم وعزمُهُم في ما لا يزال على حسب علمهم بما يَرَونه مناسباً لهم، سواءٌ كانت طاعةً أو معصية، فكلما توجهت إليه إرادتهم خلقها الله لهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إنهم لا يريدون إلاّ ما أراده الله في الأزل إرادة تابعةً للعلم الحاكي لأفعالهم، وتوجهت قدرتهم بعد تعلق إرادتهم التابعة لعلمهم فلما كانت إرادة الله تابعة لعلمه وعلمه حاك للصورة اللايزالية ظهر أنّ أساس خلق الباري لها إرادتهم لها المعلومة للباري أزلاً والمرادة له بالوجه المذكور، فليس معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إلا أن يشاء الله أن إرادة الله الأزلية موجبة ومقتضية وعلة لإرادته تعالى متبوعة لإرادتهم ومقدمة عليها تقدم الحاكي على المحكي وتقدم ظهور صورة المرآة على ذي الصورة، لأن إرادة الباري تعالى لشيء تابعة لعلمه به، وعلمه يحكيه كما يحصل من العبد في المستقبل، وذلك واضح لائح. والحمدلله رب العالمين.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكت هلاك الاستئصال آمنت قبل نزول العذاب فنفعها ذلك، وكان سبباً لنجاتها منه. وعلى هذا يكون قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطعاً لعدم اندراجهم في الهالكين الذين لم يؤمنوا حتى حل بهم العذاب، لأن المروي إنه لما غاب سيدنا يونس عن القوم تذكروا وتابوا فكشف اللَّهُ عذابَ الدمار عنهم ولم ينزل عليهم. وأما إذا أريد من القرية القرية العاصية المستعدة للاستمرار في العصيان وعدم الإنابة والتوبة إلى الله المنان فتكون كلمة ﴿لَوْلَا﴾ في معنى حرف النفي والاستثناء متصلاً، والتقدير وما كانت قرية عاصية رجعت عن عصيانها وآمنت بربها فنفعها إيمانها إلا قوم يونس فإنهم تابوا عن العناد وآمنوا بالله وبرسوله و﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: بعد كشف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقرر عندالله تعالى.

وكان من قصة قوم يونس على ما روي من غير واحد أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده وتركِ ما يعبدون من الأصنام، فأبَوا عليه وكذبوه، فَأخبرهم أنّ العذاب مُصَبحهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل... وجاءَ أنّه غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخِنُ دخاناً شديداً، فهبط حتى غشي

مدينتهم واسودت أسْطِحَتُهُم، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وفرقوا بين الوالدة وولدها من الناس والدواب، فحنَّ البعض إلى البعض، وعَلَت الأصوات وتَضرَّعوا إليه تعالى وآمنوا وأخلصوا النية، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءَهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب، وكان ذلك يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة. ولما خرج يونس ودخل السفينة وتوقفت ورموه في البحر وابتلعه الحوت ثم نجاه الباري... رجع إلى أهل نينوى فآمنوا به وأكرموه، فعادت الراحة في الأمة جميعاً وعاشت الأمة خير عيش... وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ بيان وإعلان لدوران إيمان المكلفين كلهم على مشيئته سبحانه وتعالى وجوداً وعدماً، فمن شاء إيمانه آمن ومن لم يشأ إيمانه لم يؤمن، كما أن من شاء كفره كفر، ومن لم يشأ كفره لم يكفر، فلا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكن مشيئته مبنية على علمه، وعلمه ناظر إلى ما له ثبوت فعلي ماضياً أو حالاً أو مستقبلاً، والثبوت الفعلي مبني على تحقق الحكمة فيه، وهذه الحكمة مقررة بالنسبة إلى آثار المكلفين في ما توجه إليه استعدادهم واختيارهم المرتب على علمهم حتى يتناسب فعل الخير للمثوبة الحسنى وفعل الشر للعقوبة، وإلا فلو أراد أن يجبر المكلفين كلهم على الإيمان لآمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ فإذا كان الأمر كذلك أي: إن الله تعالى لم يشأ إيمان جميع المكلفين لعلمه بسوء صنيعهم واختيارهم ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ بعد أن لم يتعلق مشيئته بإيمانهم ﴿و﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: ما صح لها ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي:

بمشيئته وإرادته. والأصل في الإذن بالشيء الإعلام بإجادته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ويقرر الكفر ويحققه على قلوب الذين لا يعقلون الخير والسعادة لهم في الإيمان، بل يعقلونهما فيما يوافق الهوى والملاذ النفسية الفاسدة، فأولئك الناس ناس لا عقل لهم أساساً أي: إن عيون قلوبهم عُمْيٌ عن إبصار الخير وتمييزه عن الشر، أولهم العقول وإحساس الحواس وإدراك الحقائق لكن أهواءهم غلبت عليها حتى عاندت الحق الواضح الأبلج واختارت الطريق العوج الموجب لكل زلة وحرج.

وخلاصة الأمر: إنه ليس لك ولا لسائر الهداة في أمتك إلا تبليغ الآيات البينات والاستدلال بما في الأرض والسماوات، والجهد بقدر الإمكان في توجيه القلوب إلى طريق السعادة وسبيل العبادة، وما عليك إيمانهم وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسولي الجليل لمن تنذره: ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ من عجائب الآثار المكشوفة أو المكتشفة الدالة على أنها كائنات ممكنة الوجود وتحتاج في ترجيح وجودها على عدمها إلى واجب الوجود، ووجوب وجوده يدل على قدمه ووحدته وبقائه وعدم مماثلة الحوادث واستغنائه عما سواه واتصافه بجميع الكمالات الذاتية والفعلية بحيث لا ترى نقصاً وفتوراً أمامه أو وراءه وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون. فإن اعتبروا بقولك البليغ ونظروا واستفادوا فللّه الحمد على الإنعام ولك الأجر على إرشاد الأنام، وإن لم يعتبروا فأولئك هم الخاسرون.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ وما ترفع حجاب الغفلة ﴿عَن﴾ قلوب ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن أصروا على الكفر والعناد ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل الوقائع التي وقعت والفظائع التي نزلت على الذين خلوا ومضوا من قبلهم، فإن انتظروا ذلك جهلاً وعناداً ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ذلك ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ له فالانتظار واحد والمنتظر واحد، وجهة الانتظار متعددة، فإنكم تنتظرونه جهلاً للدمار، وإنا ننتظره لتحقيق وعيده تعالى على الكفار الأشرار، فإذا نزل العذاب بساحتهم نُهْلِكُ المستكبرين ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد، كأنه قال نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلين إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بهم معهم وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورتها

وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك ليتصل به قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية... يعني ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لجميع الناس الذين في شك وتردد في دينك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أدين به وأعامل عليه وأدعو الناس إليه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإني متيقن في أن دينكم باطل لا أساس له، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ولكني أعبد الله الذي يليق بالعبودية له، لأنه هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي يتوفاكم عند انقضاء أجلكم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من الله تعالى ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: وأمرت بإقامة وجهي وتوجيهه إلى تطبيق الدين الذي شرعه الله، حال كوني مائلاً عن الباطل إلى الحق ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تكونن منهم بحال من الأحوال اعتقاداً وعملاً ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالاً ولا اشتراكاً أي: ولا تعبد ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إذا دَعَوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركته ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بتوجيه الطلب إلى ما لا يستحق ذلك.

ومما يجب أن يعلم أنه لا يندرج في ذلك طلب الإنسان من الرجل الصالح الدعاء له بدفع البلاء، أو رفعه أو بجلب خير ونعمة سواء كان الرجل حياً حياة اعتيادية أو ميتاً، لأن أي طلب يتوجه إلى أي إنسان فإنه يتوجه إلى روحه، والروح باقية خالدة، ومن فرق بين روح الإنسان الحي المرزوق والميت فهو لم يعرف معنى الروح. ونسبة التأثير والإيجاد إلى الحي دون الميت كفر وخروج عن دين الإسلام إذ لا تأثير إيجاداً وإبداعاً لغير الله تعالى مطلقاً ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ وطلب الطالب ليس لتأثير المخاطب بل للدعاء وتوجه همته إلى المقصود ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من المرض أو الفقر أو الذل ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ولكنه قد يكون كشفه بتيسير الله أسبابه كوجدان الطبيب الحاذق للمرضى، والصديق الوفي للسعي في بعض أمور نافعة، وكبذل المال صدقة في سبيل الله أو غيرها ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي أراده لك لأن تخلف المراد عن الإرادة محال ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يصيب بذلك الخير من يشاء ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: بعد أن وفيت بواجب التبليغ وأتعبت نفسك في سبيل الله تعالى قل للناس المكلفين ﴿قَدْ جَآءَكُمُ﴾ الكتاب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المطابق للواقع من ربكم يرشدكم إلى ما فيه سعادة الدارين علماً وأخلاقاً ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى المتابعة بذلك القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ ونفعه يعود إليها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريق ولم يأخذ بعمل التطبيق ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه ومضرة الضلال تعود إليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظ موكول إليّ أمركم ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ على سبيل الاستمرار ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ﴾ ما ينوبك من المصائب ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنصر والغلبة لك عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يوجد الخطأ في حكمه.

وفي هذه الآية تسلية للرسول ﷺ ووعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين محمد وآله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

سورة هود

مكية، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ اسم للسورة أو القرآن الكريم، أو إشارة إلى اسم من أسمائه تعالى، أو صفة من صفاته. وقيل: إنها من المتشابهات. ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر لها على تقدير ابتدائيتها، أو لمبتدأ محذوف، والتنوين للتعظيم ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: أنزلت آياته من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، ومنه إلى رسولنا محمد خاتم النبيين والمرسلين إنزالاً متقناً مَحفُوظاً منْ تطرقِ الخلل إليها مِن شياطين الإنس والجن، حتى استقرت في صدره المنشرح ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ وبُيّنت ما يحتاج منها إلى البيان، وجُعِلَت سُوراً مرتبة ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ ذي حكمة في أقواله وأفعاله ﴿خَبِيرٍ﴾ بمواضِعها بحيث لا يأتيها الباطل لفظاً ومعنى ومَقاماً، وهكذا تبقى إلى أبد الآبدين.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ في موضع العلة للفعلين السابقين على تقدير اللام على أن المصدرية. أي: أحكمت آياته وفصلت لتفهموها ولا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما فرط منكم من القصور عن أداء حق عبادته ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ وترجعوا إلى الله أدباً وإخلاصاً له تعالى، فإذا استغفرتموه وتبتم إليه ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يرشدكم إلى التخلق بأخلاق حَسَنَة تَنبعث منها أعمالٌ حسنة تُوجبُ تمتعكم في الدارين متاعاً حسناً، أو يمتعكم متاعاً مقروناً بنور في القلب يطمئن به ويرتبط

بربه فيشكر على نعمته ويصبر على عذابه ونقمته، لأن المؤمن وإن كان غالباً في الأذى والتعب كما روي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». و«إن أشدّ الناس بلاءً الأمثل فالأمثل» لكنه لما استقر في قلبه الإيمان بالجزاء يوم اللقاء يفرح بما آتاه كائناً ما كان. وذلك التمتع إلى أجل مسمى معلوم مقرر عند الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ﴾ الباري تعالى بفضله ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي: زيادة في العمل الصالح ﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي: جزاء فضله في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا أي: تستمرّوا على العناد وتركِ سبيل الرشاد ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بمقتضى الرأفةِ بكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ لكبرِ ما يقع فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعاً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على جزاء أعمالكم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ استئناف لبيان جواب ما يقال: ماذا يعمل المشركون بَعْد إلقاء الرسول عليهم أَحْسَنَ الكتاب وفصل الخطاب؟ وحاصله إنهم لفرط جهالتهم ووفرة ضلالتهم ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ويتحولون بوجوههم عَن الرسول ﷺ ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يستتروا منه ويخفوا عنه ظنّاً مِنهم أنّهم إذا استخفوا منه عليه السلام يَستْخفون عن الملك العلام ﴿أَلَآ﴾ أيها الغافل عن شمول علم الله تعالى للكليات والجزئيات ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ وغشوا وجوههم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله تعالى ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما دام حين الاستغشاء والاستخفاف يعلم أحوالهم فهو يعلمها حين الاستجلاء، لأن من يعلَم فيه يعلم في غيره بالطريق الأولى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالخفايا المستترة فيها، فكيف بغيرها!.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نص قاطع في أنه تعالى لم يزل عالماً بكل ما يمكن أن يُعْلَم عِلْماً مناسباً لذلك المعلوم، فهو يعلم الممتنعات بصورة أنها ممتنعة والممكنات المعدومة بصورة أنها ممكنات معدومة، والممكنات الموجودة بصورة أنها ممكنات موجودة، فالعلاقة التي بين الله وبين المعلومات ثابتة مستمرة أزلاً وأبداً، وهي تعلق تقتضيها حقيقة العلم، وهو قديم لأن أشباح الموجودات وأمثالها معلومة بالذات فإن الله يعلم ذاته أزلاً ويعلم أنه علة فاعليةٌ لجميع الموجودات الممكنة ويكفي ذلك لعلمه بها مطلقاً، ولا يلزم منه قدم

المعلومات ذاتاً وشخصاً لأن تلك المعلومات صورٌ يكفي في علمه بها علمه بذاته الجليلة، وهُناك تعلّق آخر لِلعلم بذات المَعلومات التي تحدث في المستقبل، وهذا التعلق أيضاً مَوجُودٌ عند حدوث كل موجود بقدرته تعالى عيناً أو عرضاً أو أمراً اعتبارياً كإمكان زيد وحدوثه، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض وما بينهما وما وراءهما وذلك على الله يسير.

الجزء الثاني عشر

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والدابة اسم لكل حيوان ذي روح ذَكَر أو أنثى، عاقِل أو غيره، تدبّ على البطن أو القوائم مطلقاً واختصاصها بالفرس أو بذات القوائم الأربع عُرْفٌ طارىء. وإنما خص الدابة الأرضية بالذكر لأنها محط أنظار الناس الذين يهمهم الرزق أو أن المراد بالأرض المستقر أرضاً كانت أو لا. ومعنى على الله التزامه له لا وجوبه عليه، لأنه لا يجب عليه ولا عنه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قالوا: المستقر موضع قرارها في الأصلاب، والمستودع موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه. فالمستقر والمستودع اسما مكانٍ، ويجوز أن يكون المراد بالمستقر محل القرار الغالب كدار الوطن، وبالمستودع محل القرار الغير الثابت كمنازل المسافر والمستشفيات ونحوها.

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كل ما ذكرنا من الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها مثبت في كتاب واضح وهو اللّوح المحفوظ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إظهاراً لقدرته ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إعلاناً لتدريجه حسب سنته لأنّ من كان قادراً على إخراج الصّور العلمية إلى الأعيان قادر على تصرفه وقوته وإمكان إيجاده لما يشاء وجوده باللحظات واللمحات، ولكن كان حكمه بالتدريج فيما مضى وما هو آت لِحكم لا يعلمها إلا أصحاب المواهب والبينات.

وتلك الأيام أيامٌ عند الله وإن يوماً عند ربك كألفِ سنة مما تعدون. فالمراد باليوم الوقت لا ما هو المتعارف عند الحكماء أي: مقدار حركة الفلك الأعظم، أو ما هو عند العامة كمقدار دورة يومية، إذ لم يكن هناك فلكٌ ولا حركة ومقدار ولا الدورة اليومية والليل والنهار.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ والمراد بكون عرشه على الماء اتصاله به وعدم وجود حائِلٍ بينهما، لا أنه كان موضوعاً على سطح الماء، لأن كل موجود أمهات الموجودات له جاذبية خاصة يحفظ نفسهُ بنفسه، ولا يحتاج إلى الاعتماد على شيء آخر، ولا دَخل لشيء فيه سوى قدرة الباري سبحانه وتعالى ما دام لم يكن الموجودان مُمتزجَيْنِ كشيء واحِدٍ مثل الكرة الأرضية مع الماء. والمقصود هنا أن العرش والماء من أسبق المخلوقات، وإن كانا حادثين، فإن الأدلة القطعية والبراهين العقلية حاكمة بأنه لا قديم ذاتاً وزماناً إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ومن هنا يفسر العلماء الراسخون قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ بقولهم: الرحمٰن على العرش استولى لبداهة بطلان استواء الباري على العرش بالمعنى المعروف، فإنه تعالى ليس بجسم ولا جسماني، وإلا لزمت الحاجة إلى غيره، ومُساواة المتمكن للمكان وتجزي المتمكن بقدر أجزاء مكانه واستغناء الباري عن المحل قبلَ خلق العرش وحاجته إليه بعده... وكل ذلك مستحيل بقاطع الدليل، وإنما خلق السماوات والأرض وما فيهما ومنه البشر ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيجازيكم على حسبه.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾. أي: وَبعدَ أن بيَّنَّا أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وَأوجَد العالم العلوي والسفلي مع النظام البديع والشكل العجيب في مدة وجيزة، وبعد أن ذكرنا أن عرشه كان على الماء، وأن الغاية من خلقها وخلق البشر هو الإبتلاء لكم في شؤونكم وأعمالكم ليجزيكم الجزاء الوافي، ومع أن هذا الوضع دليلٌ جلي قاطع على أن الله قادر على كل شيء ﴿و﴾ الله ﴿لَئِن قُلْتَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ﴾ قبوركم ﴿بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ يوم المعاد والنشور ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله وقدرته على التصرّف في الكائنات: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا القول الذي أنت تقوله ﴿إِلَّا﴾ شبيه بالسحر الواضح. ووجه الشبه بينهما التأثير في قلوب العقلاء العارفين

بأمور الدنيا حيث ينقادون لك، أو أنّ وجه الشبه بينهما هو البُطلانُ وعدمُ حصول أثر واقعي منه، ومقصودهم من كلامهم ذلك نفي البعث وإنكار الحشر.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ المترتب على بعثهم يوم القيامة، أو العذاب المتوعد به لهم ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى زمان قليل في المستقبل ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: ليقولن من جهالتهم وضلالتهم أيّ شيء يمنع ذلك العذاب الموعود في الدنيا، أو لماذا لا يأتي بيوم العذاب حتى نرى ذلك العذاب؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك العذاب الدنيوي أو الأخروي ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ يعني إنه عذاب محتم جرى به القضاء ولا مجال لدفعه قبل الورود، ولا لرفعه بعده ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وورد ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به. وعند ذلك يعلمون أن العذاب حق وارد على سنة الله في عباده.

ثم استأنف الباري سبحانه وتعالى لبيان بعض أحوال أخرى للناس من ضجره وضيق صدره فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ لحكمة منا ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان حينئذٍ ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ أي: قانِطٌ قُنُوطاً زائداً وكثيراً لكفره ما سبق له من نعم رَبه حَتّى أنه إذا سئِل عنها أنكر ورودَها عليه ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ قبل ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مِنْ قوة البطر عنده ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: ذهبت المصائب التي كانت تردُ عليَّ لبعض الأسباب ولا تعود إليَّ بعد أبداً ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: إنه كثيرُ البطرِ ومُفرحٌ ومغتر بالنعم، وينظر إليها من زاوية الاستحقاق الذاتي بدون حجة ودليل، وفخورٌ متكبر متعاظم على الناس بدون أي سبب لتكبره وتعاظمه يجعله موصوفاً بتلك الصفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على ما أصابهم من الضراء إيماناً بأنها وردت عليهم من الله كفارَةً للسيئات أو ترفيعاً للدرجات ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفاءً بالأمر بها من الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ جميل وثواب جليل لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ عند الله، لأنه فائض من

إرادة الرحمة السرمدية به، وعند أهل الإدراك لأن توفيق الله سبحانه وَجَّهَهُم إلى أسبابِها.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فيه ترجٍّ لتركِ بعض مما يُوحى إليه فرضاً استهزاءً بمن تَرَجى ذلك، ومثل ذلك واقع في المحاورات كثيراً. ومعنى ظاهره لعلك يا رسولي تارك بعض ما يوحى إليك من ربك من التوحيد والاعتماد على الله تعالى وحده ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ حيث تتتابع آيات التوحيد القاصمة لظهور المشركين، ولا ينزل شيء مما يناسب طبائعهم المطبوعة على الكفر والإشراك، وأنت مأمور بتبليغها إليهم مخافةَ ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ أي المشركون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾! أي: مال نافع كثير يصرفه في الناس لينتصر أتباعُهُ وتزداد الرغبة في اتباعه، وعند ذلك يتحقق صدقه ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾! أي: لولا جاء معَه ملَك ليعلنَ أنه رسول الله إعلاناً بالرهبة الملكوتية حتى تزداد رغبة النفوس في رسالته وجلالته وقبول آياته ودعوته والتزام شريعته. فيا أيها الرسول المختار لحمل أعباء الرسالة لا تضق صدراً برغبة أهل الضلالة أو الجهالة، وبلغ ما أنزل إليك بكل عزة وجلالة، ولا تهتم بأحوال المشركين ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ بما أوحي إليك، وليس عليك إلا الإنذار ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ مراقبٌ، فتوكل عليه وارجع في كل مضيق إليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقولون إن هذا الكلام الذي يبلغه افتراه على الله وليس بكلامه، وإذا كان ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا۟﴾ أنتم وتدعون أنكم من العرب العرباء ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في بيان ملكوت السماوات

والأرض والاحتواء على المغيبات، وإرشاد الناس إلى الحقائق وتزهدهم عن زخارف الدنيا مشتملة على أسرار البلاغة ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ كما أن ما عندنا مفتريات بزعمكم ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للتعاون معكم في ذلك الأمر ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعوته ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من آلهتكم المزعومة والكهنة المدعومة والأدباء، وأهل القصص وغيرهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى الافتراء. ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: أولئك المُدَّعون لافتراء ما عندك في دعوة الناس القادرين عل سبك الكلام وما دعوهم للإتيان بالعشر من السور. أو المعنى: فإن دعوتموهم أيها المدعون للافتراء أي: دعوتم من استطعتم دعوته للتعاون في الإتيان بها ولم يستجيبوا لكم، فخبتم في دعواكم وخابوا في الاستجابة لكم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ الكلام الموحى به إليك ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي لا عجز فيه لشمول المعلومات، وقدرته التي لا تعجز عن السيطرة على الممكنات ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وإن التوحيد الذي أمرتَ بتقريره في قلوب العاقلين حق لا ريب فيه ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ بعد ذلك التهالك في معارضة القرآن والعجز عن الإتيان بمثل بعض منه في البيان ﴿مُّسْلِمُونَ﴾؟ ومنقادون لله وداخلون في الإسلام ومُصَدّقون بما جاء به النبي الأمي العربي محمد ﷺ من الدين وقواعد الحق واليقين.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ أي: بأعماله الصالحة ظاهراً ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما يزينها من النساء والبنين وغيرهما، ولا يريد غير ذلك من ثوابها في الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا إذا شئنا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: وهم في الحياة الدنيا لا ينقصون من الأجور. وهذا كما مر آنِفاً مربوط بالمشيئة بقرينة آيات أخرى في الموضوع. كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ وإلاّ فكثير من الكفار لاحَظَّ لهم في حياتهم إلاّ الفقرُ والمسكنة والمرض وغيرها من الأتعاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ لأن الجزاء منوط بالعمل والنية، وما داموا متوجهين إلى الزخارف ومنحرفين عن الطاعة وكفروا بربهم لا يبقى لهم إلا النار في تلك الدار ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ أي: وسقط عن الاعتبار في الآخرة ما صنعوا في الدنيا لأخذ لذائذها ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ في الآخرة لا طائل تحته ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في دنياهم لأنه وإن كان ظاهره الخير لكن لما لم يكن بنية رضاء الله تعالى بل مع إنكار وجوده أو وحدته فكأنه لم يعمل شيئاً.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال الشهاب فيه وجهان:

أحدهما: أنه مبتدأ والخبر محذوف، تقديره أَفمن كان على هذه الأشياء كغيره؟ كذا قرره أبو البقاء، وأَحْسَنُ منه أَفمن كان كذا كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ وحذف معادل الهمزة ومثلُه كثير. والهمزة للتقرير أي: لحمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه في الموضوع ويجده موافقاً للحق عنده سلباً أو إيجاباً، كأن يقول في مثالنا هذا «لا يستويان» مثلاً.

والوجه الثاني: وهو الذي نحاه الزمخشري أنه معطوف على مقدر تقديره: أَمَنْ كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة سواءٌ أو يعقبونهم في المنزلة أو يقاربونهم؟ لما بينهما من التفاوت البعيد. وهو أحدُ المذهبين في مثله، والاستفهام على هذا إنكاري. انتهى.

قلت: لأن الاستفهام وارد على المعطوف، وهو جملة أفمن كان على بينة من ربه يعقبونهم في المنزلة ويقاربونهم، فيكون الاستفهام إنكارياً إبطالياً، لأن ما بعده غير واقع ومُدَّعي قُرْب مَن كان على البينة المذكورة عمن يُريدُ زينة الحياة الدنيا فقط كاذب، لا إنكارياً توبيخياً، وهو ما كان ما بعده واقعاً ويُلامُ فاعله عليه نحو ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟ والموصول على هذا الوجه أيضاً مبتدأ خبره محذوف وهو قوله سواء، أو يعقبونهم أو يقربون منهم في المنزلة كما ذكر سابقاً.

والبينة: الدلالة الواضحة عقلية أو محسوسة. وتطلق على الدليل. وهاؤها للمبالغة أو النقل، وهي وإن قيل: إنها من بان بمعنى ظهر واتضح لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له. وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة، والتنوين فيها للتعظيم أي: بينة عظيمة الشأن، والمراد بها ما في قلب الرسول ﷺ من نور الرسالة الكاشف الشارح لصدره الشريف الهادي له إلى التوجه إلى الله تعالى بكمال قوته والإخلاص له والاعتماد والتوكل عليه. وباعتبار هذا النور الذي يكون بُرْهاناً للرسول على ما يَسْعى له ذلك الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ والمراد

بالشاهد هو القرآن المعجز للجن والإنس النازل من حضرة القدس؛ لأن الشاهد إنما يؤتى به على الشيء الخفي، والرسالة ونورها أمر معنوي خفي والقرآن بإعجازه وبيانه شاهد على صدقه في دعواه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ والمراد بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هو من كان على بينة من ربه كسيدنا محمد وأتباعه وهم المؤمنون بنور الرسالة أو بالقرآن الكريم، والمراد بالأحزاب أهلُ مكة من المشركين ومن تحزّب معهم على رسول الله.

وحاصل الآية الشريفة ومعناها ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ونور رسالة ﴿مِّن﴾ فضل ﴿رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبعه ويؤيده ويثبته ﴿شَاهِدٌ﴾ نازل من ربه وهو القرآن المعجز ﴿و﴾ كذلك يتبعه ويثبته ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل هذا الشاهد ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة حال كون ذلك الكتاب ﴿إِمَامًا﴾ للناس الموجودين إذ ذاك ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، وحال كون ذلك النور أن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الناس الذين ذكرناهم وهم محمد ﷺ وأتباعه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: مشركي أهل مكة وأعوانهم ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ المقرر لأخذ عقابه ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الموعد أو النور أو القرآن الكريم. ومعادل الهمزة هو كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها محذوف. وحذف ذلك كثير. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم أو لتعاميهم عنه. ويجوز أن يكون المراد بالبينة القرآن، وبقوله يتلوه يقرأه، والتذكير باعتباره، وبالشاهد جبريل عليه السلام والمعنى ظاهر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسب إليه تعالى ما لا يليق به، كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناس المفترون على الله ﴿يُعْرَضُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الحاكم العدل عند محاكمتهم على سيئاتهم. ومنها: افتراؤهم على الله ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عليهم وهم الحفظة من الملائكة أو الملائكة والأنبياء وسائر المؤمنين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وافتروا عليه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالافتراءات وبالتكذيب للآيات البينات، وعلى أنفس الناس الآخرين بمنعهم لهم من الإيمان بالله وبرسوله وبالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: الظالمين الذين ﴿يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو دينه القويم دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها انحرافاً ويصفونها بذلك ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ﴾ لله تعالى عن أن يأخذهم وينتقم منهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يناصرونهم ويعاونونهم في مهماتهم أو يدفعون عنهم العذاب النازل عليهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: في يوم القيامة لأنهم ﴿مَا كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للحق الذي جاء به الرسول ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ آيات الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناس الموصوفون بتلك القبائح ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء الإشراك بالتوحيد والعصيان بالطاعة والشقاوة بالسعادة ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم يشفعون لهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ في كلمة جرم أقوال كثيرة منها: أنه بمعنى المنع فالمعنى لا منع ولا مانع من أنهم في الآخرة هم الأكثرون خسراناً. وتستعمل في معنى القطع والجزم بما بعدها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدَّقوا بكل ما جاء به الرسول من عند الله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أفعالاً وتروكاً ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ واطمأنوا إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون مستمرون.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من الكفار والمؤمنين ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فالكافر كالأعمى لتعاميه عن إبصار آيات الله الواضحة، وكالأصم لِتَصامِمه عن استماع كلام الله تعالى وتمانعِه عن التدبر فيه. والمؤمن كالبصير الذي يبصر ما أمامَهُ مِن المنافع فيستفيد منها، ومن المضارّ فيبتعد عنها، وكالسميع الذي يَسْمَعُ نداءَ المنادي ودعوة الداعي فينتبه لما فيه خيره، فكل منهما مشبه باثنين باعتبار

وصفين، أو مشبه بشخصٍ واحد جامع بين وصفين، فالمؤمن مشبه بمن جمع بين السمع والبصر، والكافر مشبه بمن جمع بين العمى والصمم ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: الفريقان المذكوران ﴿مَثَلًا﴾؟ أي: حالاً وصفة. والجواب: كلاّ. فالاستفهام إنكاري إبطالي ومُدعي المساواة كاذب ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾؟ لتفهموا أن الفريقين متباينان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الواو ابتدائية، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، ويقدر حرفه بالباء أي: ﴿و﴾ بالله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ لا بالواو لئلا يجتمع واوان.

وقد أنزل الله تعالى في هذه السورة سبع قصص: **الأولى**: قصة نوح مع قومه. **الثانية**: قصة هود مع قومه. **الثالثة**: قصة صالح مع قومه. **الرابعة**: قصة إبراهيم مع الملائكة. **الخامسة**: قصة لوط مع قومه. **السادسة**: قصة شعيب مع قومه. **السابعة**: قصة موسى مع فرعون. وذكر هذه القصص على حسب الترتيب الزماني. ونوح عليه السلام في المشهور أنّه ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وأنه أول نبي بعث بعده. وفي مولده ومدفنه أقوال قيل: مولده في دمشق، وقيل: كرك في أصل جبل لبنان، وقيل: الكوفة. وكان التنور الذي فار منه الماء أول الطوفان تنور داره. وأمّا مدفنه فقيل: في الكوفة وقيل: في الموصل، واسمه عبدالغفار،

ولقب بنوح لكثرة بكائه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث عليه السلام على رأس أربعين سنة من عمره، ولبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: نذير موضحٌ لكم ما يوجب عذابكم من الإشراك والطغيان والعدوان على الحقوق وما يوجب نجاتكم منه من التوحيد والاستسلام لأوامر الله تعالى. وإنما خص صفة الإنذار بالذكر مع أنه كان مبشراً أيضاً لمن أطاعه لكثرة تمردهم، فإن قومه كانوا مثلاً في الغباوة والقساوة والعناد، بحيث كانوا يسخرون من نوح ومن كل نصيحة ينصحهم بها ﴿أَن لَّا نَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا إلا الله. على أنّ أنْ متعلقة بأرْسَلْنا أي: أرْسلنا متلبساً بنهيهم عن الإشراك ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ علة للنهي، وذلك إنذار خاص من جملة إنذاراته لهم، والمراد باليوم الأليم الطوفان، أو يوم القيامة، أو كلاهما، أو سائر أيام عذابهم إن أريد باليوم الجنس، وتوصيفه بالأليم مجاز لأن الأليم هو العذاب الواقع فيه ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وليس فيك مزية تخصك من بيننا كالرسالة من الله التي تدعيها ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وأن تتميز بمن تبعك من العامة فليس ذلك بمميز معتبر حيث ما نداك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا المحقرون المسخرون في الأعمال البسيطة، وليس عندهم شوكة وشأن، وكونهم من الأراذل ظاهر في أول التفكر بدون تعمق، وكان معتمدهم في ذلك القول أنه لم تكن عند أتباعه ثروة هائلة ولا قوة طائلة ولم يكونوا من أصحاب السلطة المعتادة عندهم، وذلك هو المثار لاستكبار الناس بعضهم على بعض، غافلين عن أن العزة لله، وأن الغلبة بأمره المتين ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ خطاب له عليه السلام ولأتباعه أي: وما نرى لك ولأتباعك الذين تعتمد عليهم ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: زيادة تؤهلكم لاتباعنا لكم ونحن أولو قوة ومنعة وجاه ومال ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في دعوى العلاقة الشريفة المميزة لكم كالرسالة لك وتصديقها من أتباعك. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: شريعة وتعاليم واضحة في ذاتها وموضحة طريق السعادة للغير ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ومنشأ تلك الشريعة والتعاليم أنه آتاني الله رحمة من عنده موهوبة لي لا مكسوبة، وهي الرسالة السماوية المقدسة وأرسلني إليكم بها، أي: وأنتم بهذه الحالة السيئة من العناد والعدوان ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وأخفيت ووقعت في غطاء ظلمات جهلكم

وغباوتكم الشديدة أخبروني ماذا أقول لكم وكيف أتمكن من إفادتكم من هذه البينة والرحمة الربانية؟ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنجبركم على التزامها والإيمان بها والاستفادة منها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ والحال أنكم تكرهونها ولا تختارونها وتعاندتم بالاستكبار عن قبول الحق والاستماع لي في بيانه.

ولما كان قومه يتوهمون أن قصد سيدنا نوح عليه السلام هو استفادة ثروة مادية منهم حتى يصعد إلى مستواهم، وظهر له من عنادهم واستكبارهم أنهم لا يستمعون لكلامه ما دام أتباعه من الأراذل الذين يستنكف عن محاورتهم ومجاورتهم رفض كلا الأمرين فقال عطفاً على ما قاله لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: لا أسألكم على تبليغ تعاليم الله إليكم مالاً تؤدونه إلي بعد استسلامكم وإيمانكم بأن يكون أجراً لي على ما أقوم به ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو يثيبني من فضله بما يشاء فلا تتوهموا أن لي أملاً في أموالكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بربهم وأخلصوا له دينهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ علة لقوله وما أنا بطارد الذين آمنوا، أي: لأنهم مقربون عند الله تعالى لحسن تلقيهم لأوامره ونواهيه ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ كل ما ينبغي أن يعلم في الإلهيات جهلتم ربكم، وجهلتم وجوب وجوده ووحدته وكماله، وجهلتم قوته وجلاله، وجهلتم أن نسبة المؤمن إلى ربه نسبة المحب إلى المحبوب وبالعكس، وجهلتم أن شرف الإنسان بالإحسان لا بالأموال والجاه عند أهل الزمان، وجهلتم ما سيرد عليكم من عذابه في الدنيا والآخرة. ثم رجع إلى بيان عزة المؤمنين التابعين له وشرفهم عند الله وأنه ناصرهم فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: من يصونني ويحفظني من عذابه ويدفع عني حلول سخطه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: أبعدتهم ﴿عَنِّى﴾ وهم المقربون عند الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾؟ أي: أفلا تتفكرون في الحقائق الثابتة حتى لا تغتروا بما عندكم من العزة المادية.

ثم لما قال قومه في مقام الاستكبار عن قبول تبليغاته ودعوته ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وأرادوا أنه ليس لك اختصاص بمميزات تميزك عنا فليس عندك أموال طائلة دنيوية، ولا علم بالمغيبات والمعنويات حتى تسيطر به علينا، ولا أنت ملك ومن غير نوعنا حتى تكون لك قوة وغلبة علينا، وإنما وسيلة الجرأة علينا بتفنيد ما عندنا من الشعائر أتباعك وهم أراذلٌ لا فضل لهم وليس لهم شأن في الدنيا أو في الآخرة يسَلَّم لَهم كلَّ ما أرادوا من قولهم إلا بعضاً منها مع ما يستلزمه فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ من الماديات أو المعنويات ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ إذ لا يعلم

الغيب إلا الله، وإذا علم شخصٌ شيئاً منه فإنما هو بإعلامه تعالى له لا من ذاته ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فإن المَلك نوع خاصّ ممتاز بفصل خاصّ يمتاز به عن الإنس والجن وغيرهما ﴿و﴾ لكني ﴿لَا﴾ أسلّم كلامكم الأخير في حق من تبعني من المؤمنين فلا ﴿أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تستحقرهم أعينكم وتنظر إليهم بعين الرذالة والدناءة لفقدهم بعض الميزات المادية التي تعتمدون عليها: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في هذه الدنيا أو في الآخرة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من النيات ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المعتدين على حقوقهم إذا قلت ذلك، فإن لله سنته المقررة إن من أطاعه وأطاع رسوله فله في الآخرة جنات ودرجات ورضوان وإحسان، وأما في الدنيا فيختص برحمته من يشاء.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملأ الذين كفروا من قومه: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ في إثباتِ مطلوبك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي: أتيت بنوع واحد وأطلْتَ الكلامَ أو بأنواع كثيرة فلا نستمع لجدالِك بعدُ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استحقاقنا له، أو في نزوله علينا ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فليس الإتيان به مِنْ شأني ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى ومانعين له من إنزاله أو الفرار منه لخلاص أنفسكم ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ أي: إخلاصي لكم في الإرشاد، فإن النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للمنصوح له، وهو كلمة جامعة، وقيل: هو إعلام مواقع الغي لتُتَّقى، ومواضع الرُّشْدِ ليقتفى، وهو من قولهم نصحت له الودّ أي: خلَصْته ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه وليس ذلك جواباً لامتناع تقدم الجواب على الشرط على الأصح. أي: إن أردتم أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. والجملة كلّها دليلُ جواب قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نُصحي. والآية من باب ورود الشرط على الشرط. وادعى ابن مالك رحمه الله أن الشرط الثاني مقيد للأول بمنزلة الحال، فكأنه قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام:

إن أردت أن أنصح لكم في حال إرادة الله تعالى إغواءكم فلا ينفعكم نُصحي ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: خالقكم ومالِكُ أمرِكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بَلْ أيقول قوم نوح إن نوحاً افترى ما جاء به وأسنده إلى الله عزّ وجلّ ﴿قُلْ﴾ يا نوح: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ فرضاً ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي: وبالُ إجرامي واكتساب ذنبي لا يتعدى إليكم ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾. ولكن الواقع أنكم مجرمون بنسبة الافتراء إلي، وأنا مُحق في ما بلغته إليكم ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهذا إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: فلا تحزن ولا تلتزم البؤس بما يباشرونه من تكذيبك فيما تبلغه إليهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ الأمر للوجوب بناء على أن صيانة الروح واجبة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن السفينة وسيلة النجاة من الغرق، واللام في الفلك للعهد، وإشارة إلى ما أوحي إليه عليه السلام أنه سيهلك قومه المعتدين بالطوفان، وينجي أتباعه المؤمنين بالفلك. وقوله: بأعيننا أي: برقابة عيوننا وحراستها عن الكفار القاصدين لكسرها. وقوله: ووحينا أي: بوحينا إليك كيف تصنعها بحيث تصلح للاستعمال والبقاء ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: ولا تشفع إلي في إنجاء الذين ظلموا منهم كلهم أو بعضهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: محكوم عليهم منا بالإغراق.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها. وروي أن طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وارتفاعها ثلاثون. وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وصنع لها باباً في وسطها، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين، وعلى كل

فوسعتها لما حمل فيها كانت بلطف من الله تعالى. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: استهزأوا به في عمله، إما لعدم سماعهم لكلامه وعدم معرفتهم لها، أو لأنهم ينكرون رسالته من الله تعالى، وأن عمله ذلك على علم منه وتعليم ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي: إن تسخروا منا باشتغالنا في صنع السفينة الوسيلة للنجاة فإنا نسخر منكم في غروركم وعدم مبالاتكم بأمر داع من الله لكم إلى الحق ثم إصراركم على حالكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ والتشبيه صوري، وإلا فسخريتهم كانت عن جهل وغرور، وسخريته عليه السلام عن علم وشعور ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يذله ويفضحه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم في الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله: ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو ابتدائية وهي التي يبتدأ بعدها الكلام ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ ونبع الماء منه وارتفع بقوة، وكان التنور تنور الخبز وفي داره عند الجمهور. فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها، ثم حذفت تخفيفاً، وشددت النون عوضاً عما حذف. وقيل: منقول من

تنور ماضي باب التفعل من النور ثم غيرت بنقل التضعيف والتشديد من الواو إلى النون. وقيل: أعجمي ولا اشتقاق له. والمشهور أنه مما اتفق فيه لغة العرب والعجم كالصابون والسَّمور ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في الفلك وتأنيث الضمير باعتبار معنى السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين أي: من كل نوع من الحيوانات التي تريد بقاءها ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنية زوج بمعنى الفرد الواحد المزدوج بآخر من نوعه، فالمراد به فردان من نوع، ولذا عقبه بقوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ وحاصل المعنى احمل ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات ﴿وَأَهْلَكَ﴾ معطوف على زوجين، أي: احمل أهلك. والمراد بأهله امرأته المسلمة وبنوه منها.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين لكفرهم وظلمهم، ومنهم: زوجته الأخرى وتسمى واعلة بالعين المهملة وابنه منها. وهو كنعان ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ معطوف على الأهل أي: المؤمنين والمؤمنات من غير أهلك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ والرواية الصحيحة أن عدد غير أهله وعائلته اثنان وسبعون نفراً.

﴿وَقَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ مصدران ميميان أو اسماً زمان أي: اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها أي: حركتها واستقرارها ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن أراد أن يغفر له و﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن أراد أن يرحمه ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ﴾ أي: والسفينة تجري في موج من الماء، والموج ما ارتفع منه عند اضطرابه، واحده موجة ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ صفة للموج أي: في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع كالجبال. وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ استئناف لبيان حال سيدنا نوح مع ابنه الداخل في من سبق عليه القول، فيقول: ونادى نوح أي: قبل ركوب السفينة وانقطاع علاقتها بالبر ابنه كنعان ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته، ومن آمن من قومه، والمراد بعده عنهم ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ وبني بضم الباء وفتح النون والياء المشددة وحذف يائه مصغر ابن مضاف إلى الياء، وكل من التصغير والإضافة لإفادة الرحمة واللطف به باقتضاء الغريزة الأبوية وظناً بأن فيه إيماناً بقرينة قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أنت مؤمن وهم كفار، فلا تكن معهم ﴿قَالَ﴾ معلناً لانقطاعه عنه وعدم مبالاته بندائه وبالطوفان ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ مرتفع ﴿يَعْصِمُنِى﴾ ويحفظني ﴿مِنَ﴾ الغرق بـ﴿ٱلْمَآءِ﴾ ﴿قَالَ﴾ نوح موضحاً له حقيقة الأمر: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا حافظ اليوم من نفاذ حكم الله بالطوفان وغرق الناس به ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: رحمه الله بنجاته

من هذا البلاء. ﴿و﴾ بينما يتحاوران إذ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: حال بين نوح عليه السلام وابنه الموج من الماء ﴿فَكَانَ﴾ ابنه ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ والحكم لله رب العالمين.

﴿وَقِيلَ﴾ من جانب القدّوس ربّ العالمين: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ والبلع يستعمل للمأكول والمشروب. قال الليث: يقال: بلع الماء إذا شربه، والمراد هنا انشفي وتَيَبسي ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر. يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿و﴾ التزم كل منهما الأمر المقدس فـ﴿غِيضَ﴾ الماء ونقص ونضب. قال الجوهري: غاض الماء إذا قل ونضب، وغيض الماء فُعِل به ذلك. والمآل النقص والنضوب ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: نفذ ما وعد الله به عبده نوحاً عليه السلام من إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي: استقرت السفينة ورست على الجبل المشهور بالجودي، وهو جبل بالموصل. وقيل: بالشام. والمشهور الأول. وكان استواؤها عليه يوم عاشوراء عاشر محرم الحرام. أخرج أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ فقيل: هذا اليوم أنجى الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله تعالى. فقال النبي ﷺ: «**أنا أحق بموسى عليه السلام وأحق بصوم هذا اليوم**» فصامه، وأمر أصحابه بالصوم. وأخرج الأصبهاني في الترغيب عنه رضي الله عنه أنه اليوم الذي ولد فيه عيسى عليه السلام أيضاً، وأن صيامه يعدل سنة.

وكان ركوبه عليه السلام السفينة فيما روي عن قتادة، في عشر خلون من رجب ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم، واللام صلة المصدر ثم ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ عند امتناع ابنه من الركوب معه وقبل علمه بغرقه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ بنجاة أهلي ﴿ٱلْحَقُّ﴾ كسائر وعودك، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في الحكم بنجاته أو بهلاكه. ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: ذو عمل غير صالح ناشىء من كفره بربه فلا يناسب الشفاعة وقبولها ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: فلا تسألني مطلباً لا تعلم يقيناً أنه صواب وموافق للحكمة ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ أي: أرشدك وأمنعك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بما يجوز وما لا يجوز وعفو الكافر المصر غير

جائز. ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وأكرره وأعود عليه ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: وإن لا تغفر لي ما فرط مني من السؤال لنجاة ابني وترحمني بالتوبة والتفضل عليّ أكن من الخاسرين أعمالاً. وتأخير ذكر هذا عن مناسبه، وهو قوله تعالى ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ لأنه أمر مستقل بالعناية والرعاية حيث إنّ فيه موعظةً عامةً هي أنّ قرابة النسب لا علاقة لها بقرابة العقيدة والحسب، وأن المعتمد في أصول الدين هذا.

وسياق ما يأتي دليل على أن الله تعالى أكرمه وأنعم عليه بزيادة لطف وإحسان. ولذلك خوطب من جانب الحق ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ روي أن السفينة استوت على الجودي في عاشر ذي الحجة فأقام بمن معه هناك شهراً، ثم قيل له: اهبط فهبط بأرض الموصل، وبنى قرب الجبل قرية يقال لها (قرية الثمانين) أي: قيل له بوحي من الله يا نوح اهبط من السفينة إلى الأرض متلبساً بسلام وأمان من جهتنا، وبركات وخيرات نازلة عليك وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم أولاده، فالعبارة من إطلاق العام وإرادة الخاص، فالناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ والله قادر على ما يشاء وقوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ جملة مستأنفة ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ حذفت صفته المخصصة وقوله تعالى: ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ خبره أي: وأمم منهم سنمتعهم أو مبتدأ وسنمتعهم صفته، والخبر محذوف أي وأممٌ سنمتعهم تبقى في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ فيها أو في الآخرة ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاءً لما اقترفوه من الأعمال السيئة والعقائد الفاسدة.

هذا ومما يحسن الإطلاع عليه أنه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الأرضية أو اختصاصه بالإقليم الذي كان فيه سيدنا نوح عليه السلام، ونحن إذا نظرنا بدقة إلى النصوص القرآنية علمنا عمومه لها وذلك من وجوه:

الأول: إن سيدنا نوحاً عليه السلام دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ودعوة الأنبياء مستجابة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الآية... بالحصر المعلوم منها.

الثالث: إن الطوفان كان قوياً وصاعداً وهائجاً جداً بنص قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فإن الموج المشبه بالجبال بصورة الجمع وعدم العهد ظاهر في أن ارتفاع الماء كان متصاعداً فوقها.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ النص في ارتفاع الماء فوق مستوى جبل الجودي ونزوله فوقه بعد نضوب الماء.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ الآية... فإن ظاهره يدل على أن الماء كان نابعاً من جميع بقاع الأرض ونازلاً من جميع أقطار السماء.

فوجود هذه الأدلة يرشدنا إلى عموم الطوفان جميع الكرة ولا محيد عنه إلا إذا كان هناك برهان قاطع يُجبرك على تأويل تلك الآيات بما يوافقه وأنّى ذلك.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح التي مَرَّتْ عليها القُرون ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ بعض من أخبار الغيب التي لها شأن واعتبار، فهي قصة نَتَجَت من سوء معاملة الأمة العاصية القاسية التي اغترت بنفسها، ولم تُصغ لأوامر الله تعالى ونواهيه. وعلاوة عليه قد تمردت وتجاسرت على رسولِهِ الكريم.

وقد ذكروا أن الغيب قسمان: غيب مطلق؛ وهو الذي لم يتعلق به علم مخلوق أصلاً كمبدأ حدوث العالم، ونهايته، وأمور كثيرة مما وراء الطبيعة، منها سر القضاء والقدر... وغيبٌ مضافٌ؛ وهو الذي للعلم به سبيل إما على صورة خرق العادة كما للأنبياء والمرسلين بالوحي، وللأولياء بالإلهام، ولسائر الناس بالأسباب والأجهزة كالعلم بما في رحم المرأة من الجنين وأمثال ذلك... فليس علم الغيب أبداً صفة ذاتية لغير الله، وما يمكن علمه هو الذي أعلم الله به بعضاً ممن ارتضاه وأعلمه، أو وفقه لتحصيلِ أجهزةٍ تكون وسيلة لاستكشاف المجهولات.

﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ لتعلمها ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: من قبل هذا الوقت ولما علمت بما جرى على نوح عليه السلام ﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت أيضاً على مشاق التبليغ وأذى القوم الظالمين ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الحميدة بالظفر في الدنيا والفوز بالنعيم

والرضوان الأتمين الأكملين ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الحائزين أعْلى درجاتِ التقوى، وأنت من المتقين.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم في النَّسب وواحداً منهم لا أجنبيّاً لا يعرفونه أو غريباً لا يحترمونه ﴿قَالَ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا قال لهم؟ فأجيب بأنه قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده حيث كانُوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ إذ ليس لكم إلٰه تعبدونه ويستحق العبادة غيره ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ عليه تعالى بارتضاءه شريكاً أو شركاء له في العبادة تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا التبليغ ﴿أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقني وأبدعني من العدم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فتقبلوا نصيحة الناصح الأمين.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك الذي هو أعظم الجرائم عندالله ولا خلاص منه إلا بالرجوع إلى التوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بالطاعة والسعي في امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وإذا استغفرتم وتبتم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ بالمطر ﴿مِدْرَارًا﴾ كثير الدر والخير لكم ولأنعامكم ومزارعكم وبساتينكم وسائر ما يحتاج إلى الماء ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ بزيادة الأحفاد على الأولاد وزيادة الحجم والقوة في الأجساد، وبتكثير المعدات الحربية لطرد الأعداء عن البلاد ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تستدبروا عن طاعة الله حال كونهم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على الإجرام والآثام.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ في جواب نصيحته الصافية الواضحة: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بدليل ساطع وبرهان قاطع على دعواك، لأن الماديين لا يقبلون إلا الملموسات المادية، ولا يقتنعون إلا بالشهوات العادية ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: بتاركي عبادتها التقليدية ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ بسبب قولك المجرد عما نريده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل ﴿إِن نَّقُولُ﴾ لك أي ما نقول لك ﴿إِلَّا﴾ أنه ﴿اعْتَرَىٰكَ﴾ أي: أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ وهو إزالة الشعور عنك، ولما أدرك هود منهم تلك الردود الفاسدة، وعلم أنهم لا تلينُ عريكتُهم لعبادة الله وحده، بل أحس منهم نية السوء ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ تعالى وكفى به شهيداً، ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من عبادة الآلهة التي تشركونها لله، أو من إشراككم لله تعالى ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: إن صح ما أشرتم إليه من قدرة آلهتكم على إضرار الناس فاستعملوا عليَّ طرق الكيد بجميعكم أنتم وشركاؤكم، ثم لا تمهلوني أحيا وأبقى زماناً ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى وحده ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقي وخالقكم ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: قادر عليها يصرعها متى شاء وأين أراد ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن ربي ليس برب يعبد بالتقليد والاصطناع والأوهام والابتداع، وإنما هو خالق للحقائق وجارٍ على صراط مستقيم، وهو طريق سنته الكَوْنية التي لا تبديل لها، يخلق من يشاء كما يشاء ويكلف العقلاءَ منهم بالشرائع، فإن أطاعوه بها فبها ونعمت، وإلا دمرهم وقهرهم ونَصر جنوده عليهم. وهذه سنة الله في العالمين.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ بحذف إحدى التاءين أي: تتولوا فلا بأس عَلي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿و﴾ اعلموا أنه ﴿يَسْتَخْلِفُ رَبِّى﴾ عنكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ بأن يقهركم ويغلب عليكم بعض جنوده ممن يعاديكم، أو يدمركم ببلاء خارج من الأرض أو نازل من السماء فتهلكون، فيأتي بقوم من غيركم بجعلهم في محلكم. وكم فَعَلَ مثلَ هذا بالأقوام الأولين؟ والحالُ إنكم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾ من الضرر ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ حافظ وشهيد.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: ولما وقع أمرنا بالعذاب، ونزل العذاب على عادٍ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلافٍ، وقيل: ثلاثة آلاف، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ مختصة بهود وَمَنْ آمن به وسببها الإيمان ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهي الريح التي كانت تهدم المساكن المستحكمة، وتحمل الظعينة، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم. ﴿وَتِلْكَ﴾ القبيلةُ الهالكة بذلك العذابِ ﴿عَادٌ جَحَدُوا۟﴾ وسبب نزوله عليهم أنهم جحدوا ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ النازلة بالوحي على هود وجحدوا الآيات الآفاقية التي تدل على عظمته وَوَحْدَته وقدرته على الإنتقام، وبالآيات التي ترد على الكفار المعاندين من أنواع العذاب ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ من هود ومن سَبَقَه لأنه كان يذكر لهم هلاك قوم نوح وغيره نتيجة الطغيان، أو لأن تكذيب رسول تكذيب رسل لأن مبادئهم المهمة متحدة ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والجبار هو الذي يجبر الناس على ما يريد. أو العظيم في نفسه المتعاظم على غيره، وقال الراغب: هو المعجب بما عنده. والجوهري: هو من خالف الحق ورده. والمقصود أنهم اتبعوا أمر رئيسهم وكلَّ مَن كان يبلغ أوامره ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: طرداً وإبعاداً عن رحمة الباري ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: وفي يومها فهم المتبعون باللعنة في الدارين ﴿أَلَآ﴾ أيها العقلاء الناظرون ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: كَفَروا وَحْدَته وأنكروا نعمته وعاندوا رسوله ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ومن تفكر في صياغةِ الجمل المتوالية تنور بمعرفة أبعادِ إبعاد الذين يَجْحدون بالله ورسوله ويحيدون عن سُبُله في الدين.

ذكر الزمخشري في الفجر أن عقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح يقال لهم عاد كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم تسميةً لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة. هذا.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ

﴿٦١﴾ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: وأرسلنا إليهم أخاهم نسباً يعرفون حاله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وابتدأ خلقكم منها، والخالق هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ الاستفعال بمعنى الإفعال يقال: أَعْمرتُهُ الأرض واستعمرته إياها إذا جعلته عامِرَها، وفوَّضت إليهِ عِمارتها. وقال زيد بن أسْلَم: إن المعنى أَمَرَكمْ بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء المساكن، وحفر الأنهار وغرس الأشجار... فالسين للطلب، أي: طَلَبَ منكم إعمار الأرض.

واستدل بها على أن العمارة منها واجبة، وهي ما يحتاج إليها لحفظ النفوس، وأداء العبادات الواجبة، والسير عليها لتحصل الأرزاق كالقناطر والجسور، ومنها مندُوبة كعمارة المساجد فوق الحاجة الضرورية، ومنها: مباحة كعمارة المنازل للترفّه، وإضافة الواردين. ومنها: محرمة كعِمارة المَنازل التي تشرب فيها الخُمور ويَطربُ فيها أهل الفجور.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: فاطلبوا منه أوّلاً مغفرة الذنوب والجرائم المكتسبة ثم ارجْعوا إلى طاعته وملازمة عبادته ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ كَرَماً ورحمةً لمن استغفره ودعاه و﴿مُّجِيبٌ﴾ للدعاء والإنابة والتوبة. ﴿قَالُوا۟﴾ متأسفين على ما قاله لهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: فاضلاً كريماً يرجى منك الخير لقومك ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: قبل هذا الوقت الذي باشرت بدعوتنا إلى ترك ما كنا عليه ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟ وهذا لا يتصور من رجل يُرْجى خيره ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد وترك الإشراك والاستغفار والتوبة ﴿مُرِيبٍ﴾ لنا وموقعٍ لنا في الريبة والقلق. وليس المراد بالشك ما هو المعروف من تصور طرفي النسبة على المساواة، بل المراد به التوهم أو التخييل حيث كانوا مذعنين بخلاف ما يدعوهم إليه ومعتقدين اعتقاداً متيناً بما هم عليه من الكفر والإشراك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبِروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة واضحة تدلكم على أني مُحِقّ في دعواي، وتلك البينة أتتني ﴿مِّن رَّبِّى﴾ أي: من وهبه لا من مفتعلات كسبي ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: نبوة منه ثم خالفته وما بلغت ما أمرت به ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ ويمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾؟ بالكسل في تبليغ أوامره ومنع الناس عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: فإن كان الأمر كذلك فما تزيدونني شيئاً غير تخسيري وإيقاعي في الخسارة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ واقع بعد قصةٍ مقدرة مقررة في غير هذه السورة بيانها: أنهم طلبوا منه معجزة تقهرهم على الإيمان، بطلب من الله تعالى خلق ناقة معها فصيلها من صخرة معلومة لهم في محل بروزهم لمراسم الأعياد، وقالوا له: إن خَرَجَتْ مِنها ناقة كذلك آمَنا بك، فطَلَب صالح ما أرادُوه فخلق الله لَهُمْ نَاقةً من الصخرة وخرجت منها مع فصيلها. وبعد ذلك قال لَهم صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يقدر على خلقها إلا هو خرجت حال كونها معجزة ﴿لَكُمْ﴾ وآية دالة على أني صادق في دعوى الرسالة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ بنفسها بدون مؤونة عليكم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ﴾ منصوب بأنّ لوقوعه جواباً للنهي بعد مسها ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ لا يتأخر عنه إلا قليلاً ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فخالفوا نهيه وعَقَروها. والعقر النحر. ويجيء بمعنى الجَرح، وقيل: قطع عضو يؤثر في إزهاق الروح. والعاقر هو قدار على وزن هَمام صيغة مبالغة، ويقال: إنه أحمرُ ثمود، أو أشقرُ ثمود. وبه يضرب المثل في الشؤم ونُسِب الفعل إلى القوم لرضاهم بفعله ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾ أي: في بلدكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط ثم يأتيكم عذاب الدمار ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير مكذوب فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: أمرنا بنزول العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بسببها، أو متلبسين بها ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم من خزي يومئذٍ لأن المعمول لا يعطف على عامله فهو متعلق بمحذوف هو المعطوف، وقيل: الواو زائدة والمقصود نجاتهم من الهلاك بالصيحة مثل القوم. واعتقد أنه لا حاجة إلى تقدير العامل لأن المقصود من قوله تعالى ﴿نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أن الله تعالى وفقهم على خُروجهم من ديار القوم مع أنه كانوا يقتلونهم إذا انتبهوا أنهم يخرجون للخلاص من العذاب للعداء الواقع بين الفريقين. فالتقدير: نجينا صالحاً والذين آمنوا معه من تعرض القوم لما خرجوا من الديار برحمة منا ومن خزي يومئذٍ، فما دخلوا في الهلاك بالصيحة. فقوله تعالى ﴿وَمِنْ خِزْىِ﴾ معطوف على مقدر، أي: تعرض القوم ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُم﴾ أي: ونجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو عذاب قوم هود الكافرين في يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من تعرض القوم ومن الهلاك بالصيحة كذلك نجيناهم من العذاب الوارد على القوم يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا حبيبي يا محمد ﷺ ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر على كل شيء والغالب عليه في كل وقت ومكان.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: قوم هود الكافرين ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحة جبريل، أو صيحة سماوية فيها كل صاعقة وصوت مفزع ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ﴾ أي: في منازلهم وديارهم ﴿جَـٰثِمِينَ﴾ هامدين مَوْتى لا يتحركون ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: فانقَطع تمتعهم بها، كأنهم لم يقيموا بها ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ومن منع ثمود عن الصرف نظر إلى القبيلة، ومن صرفه نظر إلى الحي أو الأب الأعلى المسمى بثمود.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المراد بالرسل الملائكة الكرام. روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر ملكاً أرسلهم الله تعالى بالبشرى له بالأولاد ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: سلمنا أو نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ﴾ إبراهيم في جوابهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: وعليكم السلام، وقد حياهم بالجملة الاسمية وهي دالة على الدوام والثبات ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن مجيئه إليهم بعجل سمين أو بعجل مشوي فوضعه بين أيديهم للأكل فامتنعوا عنه ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: لا يمدّون الأيدي إليه، والمقصود أنهم لا يأكلون ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكر ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أضمر ﴿فِى نَفْسِهِۦ﴾ منهم ﴿خِيفَةً﴾ أي: خوفاً، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكرهُ الله تعالى، فلما أحسّوا بخوفه أمّنوه و﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ عليه السلام خاصة ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وهي سارة بنت هاران بن ناحور وهي بنت عمه ﴿قَآئِمَةٌ﴾ في الخدمة. قال وهب: كانت قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ وكان الضحك سروراً بزوال الخوف عن إبراهيم، وقيل: كان سروراً بهلاك أهل الفساد. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ أي: عقبنا سرورها أتمَّ مِنهُ، وذلك على ألسنة رسلنا.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ من الويل وهو الخزي ويستعمل في كل أمر فظيع، والمراد بها هنا التعجب وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء، والألف بدل عن ياء المتكلم، قيل: إنها كانت إذ ذاك ابنة تسعين سنة ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تشاهدونه ﴿بَعْلِى﴾ أي: زوجي وأصل البعل القائم بالأمر، فأطلق على الزوج لقيامه بأمر الزوجة ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة سنة، ونصبه على الحال عند البصريين والعامل فيه معنى الإشارة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمر المذكور من حصول الولد من هَرِمَين ﴿لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ لم تَجْرِ به عادة الله تعالى في عباده ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟ أي: من قدرته وحكمته ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ المتوالية ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ منصوب على

الاختصاص أو على النداء ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ في كل فعاله ﴿مَّجِيدٌ﴾ كثير الإحسان والخير ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: زال عنه الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد والحفيد ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: يجادل رسلنا في حالهم وشأنهم وربما يقول لهم في جدالِهِ: كيف يأتيهم هذا العذاب الشامل وفيهم الصبيانُ المعصومون والرّجال البعيدون عن تلك الأفعال، والنساء العفائف وغيرهن من الأجانب من النساء والرجال؟ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الإنتقام ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى، ولهذه الأوصاف كان يجادلهم ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: قالت الملائكة: يا إبراهيم ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ﴾ الشأن ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وصدر المرسوم الإلٰهي به ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ لا شك في إتيانه في وقته المحدود، وذلك العذاب ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بجدال ودعاءٍ وغيرهما، لأن القضاء المبرم لا يَدْفَعُه شيء.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ أي: انطلقوا من عند إبراهيم عليه السلام إلى قرية لوط عليه السلام، وكان بين القريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه في صورة غلمان حسان الوجوه، وذلك ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ لخوفه من قومه الفساق المتعرضين للواردين بالسوء ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقةً وجهداً، وهو في الأصل مصدر ذرع البعير بيديه في مسيره إذا سار مادّاً خَطْوَهُ، مأخوذ من الذراع، وهي العضو المعروف، ثم توسع فيه فاستعمل في محل الجهد والطاقة ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: يوم شديد. وأصله من العصب بمعنى الشَّدِّ. قال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر.

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ أي: لوطاً وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُۥ﴾ الفساق ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يستحثونَ إليه كأنه يَحُث بعضُهم بعضاً أو يَحُثُّهم كبيرهم ويسوقهم، أو يسوقهم

الطمع في الفاحشة، والعامة على قراءته مبنياً للمفعول، والجملة في موضع الحال من القوم. ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جاء لبيان أنهم كانوا مُتَعودين على فعل المنكرات، ولذلك سلبوا جلباب الحياء، فلذلك أسْرعوا لطلب الفاحشة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن من قبلُ ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، فجاءته المصيبة من القوم الفاسق، وكان يرضى بأن يداريهم لعلهم ينتهون ثم يتفاهَمُونَ على قواعِدِ الزواج المشروعة في شريعتهم الثابتة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي: واتقوا الله بترك الفواحش، ولا تخزوني بسوء المعاملة مع ضيفي فإن إخزاء الضيف إخزاء المضيف ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق وَيَرْعَوي عن الباطل؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي قومه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ما لنا ﴿فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: قضاء الشهوة، أو مالنا في بناتِك الآن رغبة في زواجهن بالصورة المشروعة عندك ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من عمل الفحش بهن ﴿قَالَ﴾ لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لو ثبت أنّ لي قوةً متلبسة بكم بالمقاومة على دفعكم بنفسي لفعلتُ ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾! أي: أو أنضمّ إلى قوي أتمنع به عَنكُم وأنتَصِرُ به عليكم. فالمراد بالركن وهو في الأصل الناحية من البيت أو الجبل هو الملاذ القويّ من رئيس عشيرةٍ أو مَلك جبار. وهذا بحسب ما يجري في الدنيا من امتناع الإنسان عن المخازي بقوة نفسية أو بالإلتجاء برئيسه.

روي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافِهِ، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوّر الفساق الجدار لدخول الدار.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: لما رأت الملائكة ما على لوطٍ من الكَرب قالوا: يا لُوطُ إنّا رسل ربكَ أي: إنا ملائكة مرسلون من ربك لإهلاك قومك الفاسقين فَلَنْ يصلوا إليك بضرر ولا مكروه، فافتح الباب واتركنا وإياهم، فَفتحَ الباب فدخلوا فأذهب الله نور أعينهم، فانطلقوا

عمياً يركب بعضهم بعضاً، وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سَحَرةً! ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقطع الهمزة من الإسراء ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بطائفة منه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه قراءة عبدالله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ وضمير إنه للشأن «وما أصابهم» مبتدأ «ومصيبها» خبره. والجملة خبر إنّ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ﴾ موقع العذاب، وإنما جعل ميقات عذابهم لأنه موقع الراحة وما من أحد إلا ﴿ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم الصبح ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟! تأكيد للتعليل المأخوذ من الجملة السابقة. فإن قرب الصبح داع للإسراع بالتباعد عن وهو نائم في ذلك الوقت، فيكون العذاب أشملَ، أو لأنه وقت الراحة ومجيء العذاب في وقتها أفظعُ وأشد وقعاً ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: أمرنا بالعذاب أي: وقته ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وضمير عاليها سافلها لمدائن قوم لوط المعلومة من السياق وهي المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة، وصَعْره، وعَصره، ودَوْما، وسَدوم، وهذه أعظمها وكان فيها لوط عليه السلام.

والمروي أن جبريل عليه السلام قلع المدائن بيده بالقدرة المودعة له، في صورة بركان هز المدائن وقلعها من محلها وطيرها إلى ارتفاعٍ بقدرٍ ما شاء الله، فَقَلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على المدائن أو على شذاذ أهلها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل الطين المتحجر، وذلك زيادة في تفظيع حالهم أي: إنه لم يكتف بقلبها بل زيد عليه مقدار آخر حتى لا يتوهم خروج شيء من آثار القوم الهالكين ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: نضد ووضع بعضها على بعض مهيأً لعذابهم، أو نُضدَ في الإرسال ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: مُعْلَمَة للعذاب. وقيل: مُعْلَمَةً ببياض وحمرة. أو بما تتميز بها من حجارة الأرض، أو باسم من يرمى بها. ولا شك أن التسويم كان من الله سبحانه وتعالى، أي: في خزائنه الغيبية العلمية، أبْدَعَها متى شاء، أو في خزائنه الحسية المغيبة عنا ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإن الطريد يرمى بالحجارة زيادة في التحقير والخسارة. والمواد الحديدية من الحجارة جنساً، وإن لم تكن من نوعها وإمطارها على الناس الظالمين تطبيق للمقررات الإلٰهية كما يراها الناس في عصرنا.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرْسلنا إلى أولاد مدين ابن إبراهيم ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ نسيبهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فلا تشركوا به أحداً ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ عند المُعاملة أي: لا تنقصوا حجم المكيال والميزان أو لا تنقصوا الناس من المكيال والميزان بأن تكيلوا الناس وتزِنوهم مخسرين وتكيلوا وتزنوا منهم مستوفين ﴿إِنِّي أَرَاكُم﴾ أي: متلبسين بمال زائد وثروة واسعة فلستم في حاجة إلى أمثال هذه اللّجاجة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: عذاباً في الدنيا أو في الآخرة لا يُخلص منه أحدٌ منكم إن خالفتموني فيما نصحتكم به.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: وأتِموهما بالعَدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: ولا تُخسروا الناسَ في ما يتعاملون عليه مكيلاً أو موزوناً أو معدوداً أو مذروعاً ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ولا تفسدوا فيها بتنقيص الحقوق حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ لها ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ أي: ما أبقاه الله لكم من الحلال ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون من المال بالغش والخديعة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحْفَظُكم مِن القبائح بَل عليكم حفظ أنفسكم منها. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾؟ أو أن نترك فِعْلَنا ما نَشاء في أموالنا من التطفيف وغيره ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على ما علمنا من صفاتك سابقاً فكيف تأمر وتنهى على خلاف ما يقتضيه الحلم والرشد. أو جملة خبرية واستعارة تهكمية كما تقول للضعيف أنت قوي عزيز. أو قدر فيها الاستفهام الإنكاري أي: أإنك لأنت الحليمُ الرشيدُ؟ وليس غيرك موصوفاً بهما حتى تتحامل علينا بهذه العبارات.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: كنتُ على حجة دالَّةٍ على صدقي في دعوى الرسالةِ واستحقاقي لنُصحكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ أي: ورزقني منه النبوة والرسالة والحكمة وانشراح الصدر، هل يصح لي أن أترككمْ ولا أبلغكم رسالاتي والأحكام التي أُمرت بتبليغها ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ يعني ولا أريد على عادة الحيالين الذين يَنهَوْنَ الناسَ عن بعض الأمور، ورأيهم على خلافِ ما يقولون ويرتكبونها غياباً، فأنا لا أريدُ أنْ أخالفكم في تلك الأمور وأميلُ غياباً إلى ما أنهاكم عنه، بل عقيدتي وإيماني على أنّ ما ترتكبونه فاسد ولا ينبغي للعاقل ارتكابه، ولستُ بمرتكب له بتوفيقِ الله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي: ما أريد بما أقوله لكم إلاّ إصلاحَكُم وإصلاحَ عقيدتكم مِن الإشراك إلى التوحيد، ومن الخيانة إلى الأمانة والإنصات ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ أي: مدة استطاعتي لذلك ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ أي: وما تيسير الأسباب لي موافقاً لما يرضاه ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ وعونه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾ واعتمدت في كافة شؤوني ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجعُ في تحصيل ما أعْمَلهَ أو أنا راجع إليه بكل قواي بالمعنى الكامل للإنابة.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أي لا يَحملنكم ولا يُكْسِبَنَّكم شقاقي ومعاداتي لكم ووقوعي في شق مقابلٍ لشقكم أي: استمراركم في العناد والكفران وعبادة الأوثان ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ مصيبة ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق بالطوفان ﴿أَوْ﴾ أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ من الهلاك بالريح العاصفة ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ﴾ من الهلاك بالرجفة والزلزلة والصيحة المفاجئة. فكلمة لا للنهي و﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بمعنى يكسبنكم من باب الإفعال و﴿شِقَاقِيٓ﴾ فاعله، ونسبة الفعل إليه

مجاز عقلي و﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في تأويل المصدر ومنصوب بنزع الخافض أي: على أن يُصيبكم، ومثل فاعل له ومُضاف إلى ما بعده ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ زماناً وهلاكهم معلوم لكم، ولم يكن إلاّ من ارتكاب الفواحش والتمرد على النظام الإلٰهي.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الذي خلقكم من عبادة غيره ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ واختَصُّوا به بكل قلوبكم ليغفر لكم ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ وربكم ﴿رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة جسيم النعمة ﴿وَدُودٌ﴾ كثير الود والمحبة فيتوب على من تاب ﴿قَالُوا۟﴾ أي: أولئك المتمردون لشعيب مع سلاسة كلامه وسهولة معناه واشتماله على غاية الرقة والموعظة، استهزاءً وسخريةً، أو استهتاراً وتعنتاً به ﴿يَشْعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ والمقصودُ إنك تتكلم معنا كثيراً، وكثير من كلامك غير مفهوم لنا وما لا يفهم كثيره لا يفيد يسيره ﴿وَإِنَّا﴾ إذا استمعنا لكلامك استمعنا له تَرَحُّماً مِنّا وشَفَقَةً عَليك لا تَرَهُّباً منك لأنا نَراكَ ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا مَنَعَةَ لك ولا قُدرةَ وراءك تَنْصُرُك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ ورعاية جانبهم لبعض الاعتبارات ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ بالحجارة حتى تموت محقراً ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومحترم حتى نتأسف عليك بعد موتك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام بعدما استفاد من كلامهم المبني على سلب جميع وجوه المنع من رعايته إلاّ رعاية رهطه وملاحظة عزتهم عندهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أن العزة لله جميعاً ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ لعدم اعتدادكم به وبرسوله الذي لا يبلغ إليكم إلا ما أمر به ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾؟ أي: شيئاً منبوذاً إلى ما وراء الظهر لا يُنْظَر إليه وكادَ أن يكون منسياً؟ والظهري منسوب إلى الظهر، وأصله المرمي إلى الظهر، والكسر من تغييرات النسب، كما يقال في النسبة إلى أمس إمسي بكسر الهمزة. وإلى الدهر دُهري بضم الدال. ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم بكل ما فيه من الطغيان والتمرد والغرور والتباعد من الحق وقد جرت سنته على نصرة دينه والقائمين به بحق.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ

أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا بكل قوَّةٍ على قَدَر مكانتكم واستطاعتكم ولا تقصروا في ما تريدون من التمرد على الله وقضاء ما يقتضيه طبعكم وإيذائي و﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني ربي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إخزاءً أفظع مما هَدَّدتمُوني بِهِ مِنَ الرجم بالحجارة فإن رَجمَ شعبٍ أخزى من رجم شخص ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ هل أنا كما كان يظهر من نسبة دعواي إلى الهراء والهذيان وغير المفهوم، أو أنتم وأنتم أهل الافتراء والكذب على الله كما هُو معلوم؟ ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا﴾ لِما يجري في المستقبل ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ لما يجري فيه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بتعذيبهم ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وهو الإيمان الذي كانوا مختصين به بين القوم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك والانهماك في الشهوات ﴿الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبرائيل الأمين على القوم الخارجين على الرسول الأمين، فهي كانت صيحة على الحقيقة، وكذا إذا كانت الصيحة صيحة صاعقة نارية سماوية عليهم. وما جوزه البلخي مِن أن المراد بها نوع من العذاب، والعرب تقول صاحَ بهم الزمان إذا هلكوا مجازاً، مأخوذ من هذه الحقيقة فافهم هذه النكتة فإنها دقيقة.

﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي: قوم شعيب عليه السلام ﴿فِى دِيَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ هامدين ميتين، وهنيئاً بموتى القلوب مَوْتُ القوالب وصاروا في انمحاء الآثار ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ أي: في تلك الديار. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ والكفارُ كلهم مَصيرُهم النار.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي الآيات التسع: العصا واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص في الأموال والأنفس ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: المعجزات الباهرة التي قهرت أشدَّ الناس في الديار ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ينهى فرعون عن الجريمة العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها من أنه رب الناس وآلهتهم وملؤه من أتباعه فيها، وعن سائر المعاصي التي كانوا يرتكبونها من إيذاء المستضعفين، ويأمر بإطلاق سراح بني إسرائيل من القسر والأسر ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اتبعوا أمر فرعون ببقائهم على الكفر وإطاعة نفسه والتمرد على موسى ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: براشد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يتقدم على قومه يوم القيامة إلى جهنم فيورد قومه النار السعير الملتهبة وهو أمامهم و﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وبئس الشراب الذي يتناولونه نار جهنم. فإن الورد عبارة عن شراب يؤتى به لتسكين التهاب العطشان. والنار تزيد من الالتهاب وتفتت الأعضاء والأكباد ﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ أي: فرعون وملؤه ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم الصالحة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيضاً حيث يلعنهم أهل الموقف ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العطاء المُعْطى لهم. والرفد بمعنى العطية ويأتي بمعنى العون. وفي الآية استقباح وتحقير فوق التحقير ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما قصصنا عليك من أنباء الأمم السابقة ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهْلكَة بالعذاب ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ لننورك بالعلم بها وتبليغها كاملة إلى الناس كي يتعظوا فيسلكوا مسلك الخير وهو الإسلام الموجه إلى دار السلام ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ لم يحصد بالخسف ﴿و﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد خُسِف ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: أهل القُرى ﴿وَلَٰكِن﴾ هُمْ ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بترك اتباع الرسل في بيان السبل ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيئاً من الإغناء أو شيئاً من الأشياء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: وقت ورود العذاب عليهم من أمر ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير وجعلهم في الخسارة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ وكالأخذ للأقوام السابقة أخذ الأقوام إذا أخذهم الله تعالى في حال ظلمهم واستغراقهم في ظلمات جهالاتهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي: أن أخذ الله للفرد وللأمة وجيع لا يرجى منه الخلاص ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النبأ المقصوص عليك ﴿لَءَايَةً﴾ وعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فإنه هو الذي يتعظ بأخبار الهالكين بالعذاب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: يوم القيامة المفهوم من عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يجمع فيه الناس كلهم الجن والإنس للمحاسبة على المكاسب وأخذ الجزاء على المراتب ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يوم القيامة يوم مشهود فيه، يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: وما نُؤخر ذلك اليوم الملحوظ بعنوان الجمع والشهود إلا لانقضاء مدة محدودة في علمي ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلكَ اليَوْم بانقضاء أجله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي: لا تتكلم نفسٌ بما يفيدها النَّجاةَ من الحساب أو الميزانِ أو الشفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: إلاَّ بإذن الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فَمِن أهل الموقِفِ إذ ذاك صنف شقيّ وصنفٌ سَعيدٌ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ والزفير: إخراج النَفَسِ، والشهيق: ردّه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في تلك النار ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ والمراد بالسماوات والأرض سماوات الآخرة وأرضها لأن كل مسلم عاقل يعلم أن عالمي الجنة والنارِ عَالمان عينيان مَوْجُودان محققان، وكل موجود عيني من الممكنات التي تدخل في حيطة الزمان والمكان، له أرض تقله وسماء تظله، ألا ترى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ الآية... ولا

شك أن من تبوأ في الجنة حيث شاء له سماء حيث كان، وكذلك أهل النار له محل للاستقرار بالنسبة إليه أرض وفوقه شيء يظله وغيره وهو السماء. وصحة إرادة ذلك مما لا ينبغي أن يتنازع فيه مؤمنان. وقد يقال: إن ذلك الكلام عبارة عن التأبيد وعَدَم الانقطاع على نَمط قول العرب. «لا أفعل كذا ما لاح كوكبٌ وما أضاء الفجرُ وما اختلف الليل والنهارُ» إلى غير ذلك من كلمات الاستمرار والتأبيد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الضمير المستتر في خالدين وتكون ما واقعة على نوع من يعقل كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أو واقعة على من يعقل على مذهب من يرى وقوعها عليه مطلقاً. والمراد بما شاء بمعنى من شاء فُسّاقُ المُوحدين فإنهم من الأشقياء بالمعنى العام ويَدْخلونَ النارَ، ولكنهم يُخْرَجُون منها بعد مدة عذابهم كما نطقت الأخبار. وذلك كاف في صحة الاستثناء وإن لم يشمل أحداً من أشقياء الكفار لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض أو يراد الكفار أيضاً، والاستثناء لانتقالهم من النار إلى الزمهرير. والحق الذي لا يجوز غيره هو أن الاستثناء في الآيتين مبني على مذهب أهل الحق المقرر في العقائد من أن الله تعالى لا يجب عليه شيء وهو المختار في كل أفعاله فيجوز له أن لا يعذب الكفار أبداً، كما يجوز له أن لا يثيبَ المؤمنين. فالاستثناء معناه استثناء من شاء أن لا يعذبه من الأشقياء لكن ذلك لا يقع لإخباره تعالى بأنه لا يغفر أن يشرك به، فالاستثناء حينئذٍ في قوة التعليق بالمحال لأنه أخبر بأن مشيئته لذلك لا تتحقق أبداً. ويناسب ذلك جداً قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لأخرج الكفار من النار، لكنه لا يشاء ذلك لما تواتر من الآيات والأخبار.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: ما دامت سماوات الجنة وأرضها، أو أنه مبني على ما جرت به عادة العرب، وإن قلت في الإيجابيات كقول القائل: أنا خادمك ومحبك ما دامت السماوات والأرض. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: إلاَّ من شاء الله تعالى أن يخرج عن الجنة ويسيح في ملكوت العالم الموجود أو يتشرف بلقاء الله المعبود، فإن أهل الجنة طلقاء في عالم البقاء. ويناسب ذلك قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: عطاء غير مقطوع عنهم ﴿فَلَا تَكُ﴾ الخطاب للحبيب، أو لكل مخاطب يخاطبه ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: فلا شك في أن عبادتهم لهم ضلالة وجهالة ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم

مِّن قَبْلُ﴾ أي: ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم المبنية على تقليد فاسد وهَوىً كاسد ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي: وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب بلا نقصان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في أنه من عند الله أو من موسى نفسه، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، فلا تبال باختلاف قومك في القرآن الكريم، فإن الناس ناس، والشيطان لباس. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ولولا كلام سبق من ربك في القضاء بتأجيل العقاب على المستحقين ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المختلفين في التوراة، وكذا في القرآن الكريم. ولكن القضاء سبق فلم يقض بينهم عاجلاً. والمقدم والتالي متساويان فصح إنتاج رفع المقدم لرفع التالي ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفار قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم في الريبة. ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: وإن كلاً من الفريقين المختلفين المؤمنين والكافرين لمن جمع والله ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ببواطن أعمالهم خبير فلا يفوته الجزاء ولا مقداره. فكلمة إن مشددة، وكلا اسمه منصوب والتنوين عوض عن المضاف إليه، أي: كل الفريقين. وأصلُ لما بالتشديد: لمن ما باللام المفتوحة، ومِنِ الجارة، وما الموصولة، بمعنى الجمع أو الفريق، قلبت النون بما لتوالي الأمثال، وحذفت إحدى الميمات، وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى، فما موصولة، وجملة ليوفينهم قسمية صلة الموصول، وهو وصلته خبر إن هذا.

وإنما فسرت الآية الكريمة على هذه القراءة أي: بتشديد إن ولما لأنها قراءة ابن عامر وحمزة وحفص وأبي جعفر وهي القراءة الدائرة عندنا. ومما يحسن هنا نقل عبارة الصاوي لإيضاحه المقام ونصها: والإعراب السالم من ذلك كله أن يقال إن القراءات السبعية أربع تخفيفهما وتشديدهما (أي إن ولما) وتخفيف إن فقط وتخفيف لما فقط مع نصب (كلا) في الجميع.

فعلى الأول: إن مخففة من المثقلة وكلا اسمها واللام الأولى لام الابتداء وما اسم موصول، واللام الثانية موطئة للقسم محذوف، ويوفينهم جواب القسم، وجملة القسم وجوابه صلة الموصول، والموصول وصلته خبر إنْ.

وعلى الثانية: إن عاملة ولما أصله لمن ما بدخول اللام على مِنِ الجارة قلبت النون ميماً لتوالي الأمثال، وحذفت إحدى الميمات، وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى، فما اسم موصول، وجملة ليوفينهم قسمية صلة الموصول، وهو وصلته خبر إن.

وعلى الثالثة: فإن المخففة عاملة، وأصل لما لمن ما فعل بها ما تقدم.

وعلى الرابعة: إن المشددة عاملة، واللام لام الابتداء، وما اسم موصول، وليوفينهم جملة قسمية صلة الموصول وهو وصلته خبر إن، فتحصل أن إن عاملة، وما اسم موصول في جميع الأوجه كلها، واللام الثانية موطئة للقسم، والأولى لام الابتداء فتأمل. وما قررناه زبدة كلام طويل في هذا المقام فليحفظ.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الآية... لما أطنب الباري سبحانه وتعالى في ذكر أحوال الأمم السابقة وتمردها، ثم إهلاكها في الدنيا والتوعد على تعذيبها في الآخرة، وأن ذلك داء عضال لا دوام لها إلا إطاعة الباري سبحانه وتعالى بإخلاص كامل في الاجتناب عن المحرمات والأداء للواجبات، وأن ذلك لا ينفع إلا مع الاستقامة والاستمرار.. قال تعالى خطاباً لسيد العابدين المجاهدين المجيبين بقوله الكريم: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ إعلاناً لأن ملاك النجاة من أهوال الدين وعذاب الآخرة هو الاستقامة على فعل الواجبات وترك المحرمات، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والزمان والمكان، وإن كان هناك قدر مشترك بين الكل من أركان الإيمان والإسلام وترك المحرمات. فالاستقامة بالنسبة إلى الرسول ﷺ

على تبليغ الأحكام الاعتقادية والعملية والقيام بوظائف الرسالة وإلى غيره بما هو فيه ومكلف برعايته كما قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» وهناك حديثان شريفان مرويان:

أحدهما: قوله ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها**» وليس في الأخوات الأمر بالاستقامة. وإنما فيها ذكر الأمم وإهلاكها، ولكنه يضاف إليها في سورة هود قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ فكل من الموضوعين أي: موضوع إهلاك الأمم والاستقامة في الدين من أهم المهمات، وإن كان الثاني أهم.

والثاني: «**شيبتني هود**» وما روي أنه ﷺ سئل: هل شيبك منها إهلاك الأمم؟ فقال: «**لا بل قوله تعالى**: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾» ليس معناه أن إهلاك الأمم لا دخل له في التشييب، بل أراد أن الاستقامة هي أشد ما يخاف منها لأن الاستقامة تنشأ عن صفة نفسية وهي مراقبة عظمة الله تعالى وأهمية مخالفته والانحراف عن شريعته، وذلك أمر عظيم وخطب جسيم كاد أن تذوب منه الجبال لو كان عندها إدراك الحال قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: وليستقم من رجع معك إلى الله تعالى بالإيمان به وبوحدته والتزام الإمتثال للأوامر والاجتناب عن المناهي.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ أي: ولا تنحرفوا عن حدود الله تعالى وراعوها حق الرعاية ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: كل ما تعملونه من الخفايا التي لا تدرك بالعين فإنه عند الله مشهود، ويبصره الباري، فبصره وإن كان للبصارة لكنه يعمل عمل البصيرة أيضاً، فيجازيكم على كلها خفيها وجليها ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: لا تميلوا أدنى ميل بالمحبة والوداد إلى الذين ظلموا أنفسهم بالإشراك وارتكاب المعاصي، والمراد بالموصول المشركون كما روى ذلك ابن جرير. وقد يفسر بما هو أعم من ذلك ويشمل النهي حينئذٍ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة وتعظيم ذكرهم ومجالستهم بلا موجب شرعي، وقوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: سواء عملتم بما عملوا به أم لا، وذلك لأن الميل القلبي والمحبة المكسوبة بالنسبة إليهم محبة من حيث أنهم ظلموا، ومحبة الظالم من حيث أنه ظلم محبة لظلمه فتوجب عذاب النار. نعم إن الميل الغريزي كميل الوالد إلى ولده الظالم لا

من جهة ظلمه فلعله مسموح به، وإلا لم يخلص كثير من الناس عنه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ من أنصار يمنعون عذابه عنكم، ويبقى عون الباري لكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ميلكم إليهم ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ من جهته تعالى لمخالفتكم له في ذلك.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أد الصلوات المفروضة أداء حسناً ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ منصوب على الظرفية للأمر أي: أوله وآخره، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والزلف جمع زلفة والمعنى ساعات قريبة من النهار، والمراد بطرفي النهار وقتا الصبح والعصر، وبصلاة الزلف المغرب والعشاء، فلا يدخل الظهر هناك. وارتضى بعضهم تفسير طرفي النهار بالصبح والمغرب، أما الصبح فبالحقيقة وأما المغرب فلأن الطرف القريب من الشيء كأنه منه، وزلف الليل بالعشاء والتهجد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوة التعليل لما قبله، يعني إن الصلاة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات، والنتيجة، إن الصلوات يذهبن السيئات، والمراد بالسيئات الصغائر بدليل مورد النزول وهو أبو اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت لها: إن في البيت تمراً أطيب من هذا. فدخلت معي البيت فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر ذكرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسِك وتب ولا تخبر أحداً. فأتيتُ عُمَر فذكرتُ ذلك له فقال: استُرْ على نفسك وتب ولا تخبر أحداً. فلم أصبر حتى أتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال: «أخُنْتَ رجلاً غازياً في سبيل الله في أهلِه بمثل هذا؟!» وأطْرَقَ طويلاً حتى أوحِي إليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فقرأها رسولُ الله ﷺ. فقلتُ: ألِيَ هذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

وللمفسرين هنا آراء كثيرة يمل ذكرها. والقول الفصل أن اللام في الحسنات والسيئات إما للاستغراق أو للجنس المتحقق في ضمن البعض الغير المعين المفسر بالعهد الذهني، أو للجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية أو للعهد الخارجي، ولا شبهة في أنها ليست للاستغراق، لأن كل حسنة مهما كانت لا تُذْهِبُ كلَّ سيئة، ولا للجنس المتحقق في ضمن البعض الغير المعين لأنه بديهي تقريباً نظراً إلى الأدلة الدينية العامة ولا يحتاج إلى الذكر، وليس للعهد الخارجي إذ لا جمع معهوداً هنا. وإنما هناك في مورد النزول حسنة خاصة أذهبت سيئة خاصة، فتعين أنها للجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية، كما في قولهم الرجل خير من المرأة، أي: ما من مرأة إلاّ وفي الرجال من هو خير منها.

ومعنى الآية على هذا: إنه ما من سيئة إلا وتُذْهبها حسنة في مقابلها، فالكفر يذهبه الإيمان، والمعاصي التي عليها الحدود تذهبها حسنات إجراءِ الحدودِ، فإنها كما أن تطبيقها من جانب الإمام حَسَنَة كذلك التزامُها من جانب الجاني حَسَنة والأموال المغصوبة تُذهبها حسنة ردها، أو الاستعفاء من الغاصب والعفو من المغصوب منه. وترك الصلاةِ والصيام والزكاة يذهبه قضاؤها. والذنوب الصغائر تُذهِبها مكفرات كثيرة منها: اجتنابُ الكَبائر، ومنها: الوضوءُ، والصَلَوات النافلة، وصيام الأيام المحبوب صيامها. فإن السيئة في مورد النزول أذهبتها صلاة الرجل، وذلك لأن الأدلة القطعية دلت على أن حقوق الناس لا بَراءةَ منها إلاّ بردها أو الاستعفاء والعفو من الجانبين. والأحاديث الواردة في تكفير بعض العبادات لجميع ما تقدم من ذنب العابد محمولة على ما إذا اجتنب الكبائر كما صَرَّحَ الرسولُ ﷺ بهذا الشرط في كثير من الأحاديث.

والتوبة الماحية للذنوب مشروطة بشروطها من: ردّ المظالم بقدر الإمكان، أو الاستعفاء من أصحابها وعفوهم عنها، وكذلك الواجبات الفائتة من الصلاة والصيام وغيرها يكفرها قضاؤها. نعم من ارتكب المعاصي أو كان عليه حقوق الناس، أو عليه حقوق الله تعالى ثم تندم عليها متأسفاً تأسفاً عميقاً وعزم على عدم العود إليها، ثم حال دون أدائها الأجلُ أو الهَرَم المُفني والفقر المُدْقعُ بحيث لم يتمكن من أدائها وتوفاه الله فالمرجو من رحمته الواسعة العفو عن جميعها، وذلك أيضاً للأدلة القاطعة الدالة على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعَها. وهذه هي الطريقة السليمة الجامعة بين الروايات والأقوال الكثيرة المتضاربة في هذا الموضوع والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: ذلك البيان الشافي المذكور ذكرى وموعظة للذاكرين المتعظين فإنهم هم المُنْتَفِعُون بإلقاء الآيات البينات. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أيّها الرسول على مشاق امتثالِ ما كُلفت به من التبليغ، والصبر على أذى المبلغين كما صَبرَ أولو العزم من الرسل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والصابرون هم الصف السابق منهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟

مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفجع أيّ فهلا كان! أي: لم يكن ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من أهل القرون الفائتة من قبل زمانكم ﴿أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قوم ذَوُو خصلة باقية واقية من العقل وحصافة الرأي يَنهَوْنَ الناس عن الفساد في الأرض ويعاونون الرسل في مهامهم الصعبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين هديناهم برحمتنا وجعلناهم متظاهرين على الحق واتّبَعُوا المرسلين، وأما الكثيرون منهم فكانوا ظالمين غير ناهين عن الفساد بل كانوا آمرين به وناهين عن سلوك سبيل الرشاد ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنْفسَهم بعدم النهي عن الفساد ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: ما أُنْعِموا فيهِ مِن الثروة والعيش الناعم والشهوات الدنيوية ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مرتكبي الجرائم مما لا يعلمه إلا العليم الخبير.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: وما صحّ وما وافق حكمة ربك حسب جريان عادته أن يهلك أهل القرى والمجتمعات بدوية أو حَضَرِيّة حال كونه تعالى متلبساً بظلم وأهلُها مُصلحون. أي: في حالِ أنَ أهلها مُصْلِحون لِعقائدهم وأعمالهم ومُراعون لنظام العدل الإلٰهيّ. والمراد بها تنزيه الله تعالى عن ذلك على أبلَغ وَجْه، وإلا فلا ظلم منه تعالى فيما يَفْعَلُهُ بعبادِه مطلقاً. أو المراد بالظلم التجاوز عن مُوافقَة العادةِ والأنظمة؛ فقتل الإنسان القاتل قصاصاً ليس بظلم، وقتل الإنسان السالم ظلمٌ أو المراد بالظلم الشرْكُ. والمعنى أن الله لا يُهلِك القُرى بَسببِ إشراك أهلها إذا كانوا هُم مصلحين في أعمالهم، ولم يتجاوزوا حُدُودَ الحق في النظام حَتى خَرَجوا عنها وأضافوا إلى شركهم فُسوقاً وفجوراً وطغياناً وغروراً. ولذلك يقال: (الدنيا تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الجور) وهذا ضعيف لأن الإشراك بالله تعالى أفسدُ المفاسد. ومنه تتبع المنكرات والبغي والفحشاء فلا يكون الأهل مع الإشراك من المصلحين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجتمعين على الدين الحق، كما أنه لو شاء لجعلهم أمة واحدة مجتمعين على الكفر والضلال، ولكن مع إدخالهم في دائرة القسر والإلجاء، ولا فضلَ عند ذلك في إيمان المؤمن كما لا نقص في الكفر، لأن الاختيار لا يبقى مع الإلجاء وإنما يبقى ذلك الفرق في هذه الطريقة الجارية وهي أن الله تعالى خلق الإنسان على الاستعداد للجانبين، وأرشده إلى الخير وميزه عن الشر برسالة رسله، ووهب لهم العقول المميزة لهما، فمن صَرَف طاقته في الخير فهو فاضل ومن صرفها في الشر فهو سافل ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في اختيار أحد الطرفين في كل شيء، وتوحيد الناس إنما هو في الفترات المعينة بالقوة الغالبة عليهم قدسية كنور الأنبياء أو نفسية كسطوة الأمراء ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا من رحمه الله ربك بتوجيه قلوبهم إلى اتباع الحق، فهناك يتفقون عليه ويؤيد بعضهم بعضاً، وعلى هذا الاتفاق نتج ما نتج من الخير والرحمة في أي عصر من العصور، فإن الناس إذا اتفقوا ملكوا وإذا اختلفوا هلكوا.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولصيرورة حالهم وتوجهها إلى الاختلاف خلقهم لكن على معنى العاقبة لا على معنى الغاية، أي: إن عاقبة أمرهم ذلك وهو الذي يعلم عواقبهم، وذلك لآيات كثيرة دالة على أن الحكمة في خلق العالم العلوي والسفلي والإنس والجن السعادة والعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ والحقيقة أن الله تعالى خلق الإنسان والجن للعبادة والسعادة والخير ويحبها ولا يحب غيرها، إن الله لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه عالم بأعمالهم وصرف استعدادهم، فيريد كلّ ما صرفوا فيه الاستعداد، ولكنه يحب الخير منها لا الشر. نعم إذا خص بعض عباده برحمةٍ فهو أهلها يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: نَفَذَ قضاؤه وعلمه إذ يستحيل جهلُ الباري بشيء من الأشياء. وهذه الجملة متضمنة لمعنى القسم ولذا جيء باللام في قوله الكريم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد، ويطلق كل منهما على الواحد والجمع وتاء الجنة للمبالغة. وإذا كان الجنّ يقع على الواحدِ فالجِنة جمعُه على ما قاله ابن عطية رحمه الله تعالى.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: ونقص عليك كل نبأ من أنباء الرسل الدّارجة مَعَ أمتِهم إجابة ورداً. وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ عَطفُ بيانٍ للأنباء

ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وهو ما نُثبت به فؤادك على التزام ما أودِعَ إليك ورعايتهِ بقدر الإمكان. ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجاءَك في هذه السورة الأمر الثابت المطابق للواقع، وهو أن الله واحد لا شريك له وأنه أرسل الرسل لبيان السبل، وأن من تمرد عليهم وعاندهم فعاقِبته الهلاكُ، وأن الله قادر على كل شيء ومريدٌ لكل ما كان ويكون. وأنّ مَنْ عَمِل الخير فجزاؤه خير ومن عمل الشر فجزاؤه شرّ، وأن الله يجازي المكلفين بالجنة والنار حسب الاستحقاق ولا شك أن ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين المتثبتين في اعتقادهم وأعمالهم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: قل لهم: اعملوا كلّ ما تريدون عمله في معارضة الرسالة الإلٰهية على كل إمكانيتكم وجهات قدرتكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على مكانتنا وجهات قدرتنا في تبليغ رسالتنا ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن يحيق بكم ما يُبيدُكُم. والأمر للتهديد، وقد حاق بهم ما لم يترك لهم أثراً إلا في الحكايات. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ وفي قبضة قدرته كل ما غاب عنكم وثبت في السماوات والأرض وفي دائرة علمه، وهو قادر على أن يتصرف فيها ويَجعلَ بعضها وسيلةً لإنماءِ البَعض أو لإمحائه. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ والقضاء والقدر بالسلب والإيجاب ﴿كُلُّهُۥ﴾ فيرجع بلا شبهة أمرك وأمرهم إليه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فاعبده وحده وتوكل واعتمد عليه في منع الأعداء ورد البلاء وجلب النعم والآلاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم ويعملون هم.

سورة يوسف

مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ الكلام فيه كما في أشباهه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وتلك إشارة إلى آيات السورة المعلومة لله المنزلة لنا منزلة المحسوس. و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ من أبان بمعنى بان أي ظهر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتاب حال كونه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: مقروءً على الألسنة عربياً باعتبار المفردات وأساليب التركيب، ولا يقدح في ذلك التوصيف أمثالُ التنور والسجيل، إما لأنّها من أصل اللغة العربية، وإن وافقتْ سائرَ اللغات، وإما لأنها مُزِجت وأدرِجت في التركيب المفهوم المعنى بحيث لا يتصور عربي أنَه غير عربيّ.

والقرآن: اسمُ جنسٍ يقع على الكثير والقليل، فكما يُطْلق على الكل يطلق على البعض، نعم إنه غَلَب على الكلّ عند الإطلاق معرفاً لتبادره. وهل وصلَ بالغلبة إلى حد العلمية أو لا؟ فيه خلاف، والحق أنه يستعمل للكل ولكل جزء مركب منه، فالقول بالوصول إلى حد العلمية للكل بعيدٌ. وقد يقال إن له وضعين

وضعاً للكل ووضعاً لما يعمه. والبعض أعني اللام المنقول في المصحف تواتراً كما ذكر في كتب الأصول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بدقائق أسراره البلاغية، أو تعقلوا أن هذا الكلام المنزل باللغة العربية ليس من كلام البشر، فإن البشر لم يتكلم بهذا الأسلوب لا من حيث المجموع، ولا من حيث تركيب سورة من أقصر سُوره كما تحدى بها ربُّ العالمين الجن والإنسَ، فلم يأت أحد بما يدانيه. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: نحكي ونذكر لك أحسن حكايةٍ وذكرٍ إن كان القَصَصُ مصدراً بمعنى الاقتصاص. أو أحسن ما يُقَصّ ويُحكى إن كان صفَةً مشبهة على فعل كالقبض بمعنى المقبوض.

ووجه كونه أحسنَ اشتمالُه على العجائب الكثيرة: منها أن الحسد غريزة وقلما يخلو منه أحد. ومنها: أن الرؤيا حق، وأنّ كتمها عن الحاسدين مستحب. ومنها: أن أثر النجابة والكرامة يبدو من أوائل نشوء الإنسان. ومنها: أن الأولاد قد يتجاسرون على الآباء فيما كان هناك تصور منافع مادية. ومنها: أنهم لا يهتمون بقدسيتهم وذلك لمزيد الألفة وارتفاع الهيبة عن صدورهم. ومنها: اتقاء مواضع التهم بقدر الإمكان. ومنها: اختيار النَّصب على زوال الحسب. ومنها: اشتمالها على سير الملوك والمماليك ومكر النساء. ومنها: دفاع الله سبحانه وتعالى عن كرامة أهل العفة وإظهار براءتهم عن التهم. ومنها: العفو بعد الإقتدار. ومنها: وهو أهمها، أن لا ينقطع رجاء البائس عن رحمة ربه مهما بلغ الأمر. ومنها: أن للأمور المقدرة أسباباً مقررة لا يعلمها إلا الله. ومنها: أن الله غالب على أمره وإذا أراد إعزاز عبدٍ أعَزّه أو أراد إذلاله أذله... إلى غير ذلك من الأمور.

ولا يلزم أن يكون أحسن القصص مطلقاً لجواز اعتباره بالإضافة إلى بعض أوجه الاقتصاص إذا كان القصص مصدراً، وإلى بعض قصص وحكايات إذا كان صفة مشبهة، أو أن يعتبر بالنسبة إلى هذا الموضوع بالذات، وإن كان موضوع ذكر الإلٰهيات ذكر الإلٰهيات مثلاً أرفَع وأحْسَنَ من كل ما يقص ويحكى.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: وإن كنت قبل حكايتنا لك من الغافلين عن هذه القصة ولم تخطر ببالك ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ منصوبٌ بإضمار اذكر، أو بدل من أحسن

القصص بَدَلَ اشتمال لاشتمال الظرف على المظروف ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله يا أبي فعوض عن ياء المتكلم تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ رأيت من الرؤيا الحلمية لا من رؤية البصر بدليل قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ روي عن جابر رضي الله عنه فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت، فنزل جبريل فَأخبَره بذلك فقال ﷺ: إذا أخبرتك فهل تُسلم؟ قال: نعم. قال: جَرِيّانُ، والطّارق، والذيّال، وقابِس، وعمودان، والفَليقُ، والمِصْبَحُ، والضَّروح، والفَرْغ، ووثّاب، وذو الكتفين. رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له. فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها. وهذا الحديث، وإن أنكره أبو زرعة وابن الجوزي، وقال إنه منكر موضوع، لكن قال الحاكِم: إنه صحيح على شرط مسلم. وجملة ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ إما تأكيد للأولى لطول العهد، وإما استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها يوسف عليه السلام ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير ابن صغره لصغر سنه إذ ذاك لكونه ابن ثنتي عشرة سنة، أو للشفقة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على دفعها، أو دقيقة لا تعلم بها حتى تدفعها ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة فلا يقصر في تمويل إخوتك وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على ما لا تُحمد عواقبه لا سيما وأن إذلال أهل بيت النبوة يحصل به فجوة واسعة لشياطين الإنس وبث السموم في قلوب المسلمين البسطاء.

وفي حقيقة الرؤيا أقوال وآراء في حاشية السيالكوتي على شرح المواقف ما نصه: في الطيبي شرح المشكاة قال المزني: مذهب أهل السنة أن حقيقة الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة، ويخلق هذه الاعتقادات علائم على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال كالغيم عَلَماً على المطر انتهى. والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونها خيالاً باطلاً أو حقاً. انتهى.

وفي روح المعاني بعد نقل ما تقدم وقيل: هي أحاديث الملك الموكل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة، ونسب هذا إلى المحدثين وقد يجمع بين القولين بأن مقصود القائل بأنها اعتقادات يخلقها الله

تعالى في قلب النائم أنها اعتقادات تخلق كذلك بواسطة حديث الملك أو بواسطة وسوسة الشيطان، مثلاً المسببات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقة له عند الأسباب لا بها فتدبر، وقال غير واحد من المتفلسفة: هي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك. والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك. ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة. ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت إليه.

والذي أعتقده: هو أن عالم المثال الذي يقول به الأولياء الكاملون موجود، سواء كان هو اللوح المحفوظ أو غيره، وفيه صور جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، بل وما يجري فيه من صورة البعث والحشر والنشر والحساب، والعبور على الصراط، والجنة والنار، وما ناسبهما. ووجودها فيه بحيث لا يعلمها إلا من كوشف بإدراكها والإطلاع عليها، والنفس الناطقة الإنسانية كيفما كانت مشغولة في حال اليقظة بتدبير البدن وما يحتاجه عادة. وإذا فرغت عنه بواسطة النوم تفرغت وتعلقت بذلك العالم وعلمت وأدركت ما شاء الله إدراكها له من الصُّور، فإن كانت النفس صافية عن الموانع والأكدار في تلك الحالة رأتها وحفظتها كما هي، وبعد الانتباه يستحضرها واضحة لا تحتاج إلى التعبير، وإذا كانت مكدرة بالعوارض والموانع من أي جانب كان أدركتها بصور تناسبها، وتحتاج إلى التعبير والتفسير، وقد لا تدركها لا بعينها ولا بالصور المناسبة، بل تدركها إدراك الجاهل بالجهل المركب، فلا يستفيد هو منها مطلقاً. ومثال ذلك ملاحظة طلاب العلوم للكتب العالية: فمنهم: من يفهمها حق الفهم، ومنهم: من يفهمها أدنى من ذلك، ومنهم: من لا يفهم منها شيئاً إلا ما سولت له نفسه وعبرت له بالعلم وهو الجهل المركب المشهور.

وسر النهي في قول يعقوب عليه السلام ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ أنه علم بالوحي أو فهم من حسن صورته وسيرته أن له حظاً من النبوة والرسالة وأنه إذا قص عليهم رؤياه فهموا ذلك لظهور تعبير رؤياه واحتالوا عليه بما يخاف منه. والرؤيا مصدر كالرؤية ولكنها مختصة بالرؤية الحلمية فميز بينهما باختصاص كل بعلامة من علامتي التأنيث وهي

التاء للبصرية والألف للحلمية كالفرقِ بين القُربَة بمعنى التقرب إلى الله، والقُرْبى للقرابة النّسبية.

والإخوة جمع الأخ والمراد بهم الإخوة الذين يخشى عواقبهم وغوائلهم. و﴿يَكِيدُواْ﴾ منصوب بأن مضمرة لوقوعه في جواب النهي وعدي باللام مع أنه متعد بنفسه لتضمنه معنى الاحتيال. والتأكيد بالمصدر وتعليل الحكم بالجملة بعد للاهتمام.

ومما ينبغي أن يعلم هنا أن الذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء أصلاً، وليس في القرآن الكريم، ولا في ما روي عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم أن الله تعالى نبأهم. والمراد (بالأسباط) في آيتي البقرة والنساء ذرية يعقوب عليه السلام لا أولاده من صُلبه. وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ صريح في أن المراد بالأسباط هم الأمم من بني إسرائيل من ذرية يعقوب لا أولاده من صلبه. وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وإنما سموا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ولم يذكر الأسباط. ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نُبيء لذكروا كما ذكر.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: وكما اجتباك واختارك لهذه الرؤيا الدالة على عاقبة حسنة لك يختارك ربك للنبوة والملك ولأمور هامةٍ تقوم بها. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ ربك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تأويل غوامض كتب الله تعالى، وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء والآراء الواقعة في إدارة الملك وسياسة الأمة من الأصول الجارية المحكية المحتملة لوجوه كثيرة فتفهم الحق منها وتطبقها. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بأن يضم إلى نبوتك واجتبائك لها الملك والاحترام وكثرة الذرية والنسل ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بالخلاص من المكاره من القحط والبلاء وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فأتم النعمة على إبراهيم بانتصاره في المناظرة مع نمرود، وإنجائه من النار، ومن سيطرة أعوانه على أتباعه المهاجرين، ومن ميلان قلب ملك مصر إليه بعد الهجرة، وإلهامه أن يذهب بإسماعيل وأمه إلى أرض مكة وحفظ الباري لهما حفظاً لا يدانيه حفظ، وبإنجائه من ذبح إسماعيل، وبتوفيقه لبناء الكعبة الشريفة... إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا

الله، وعلى إسحاق بإخراج يعقوب من صلبه وتكثير الذرية الكبار في الدنيا والدين من نسله أو غير ذلك مما هنالك. ولا يلزم من إتمام النعمة على آل يعقوب اختيار أولاده من صلبه للنبوة غير يوسف لأن المراد بالآل معنى عام يشمل أولاده الصّلبية وغيرهم من الذرية القريبة أو البعيدة، وكان فيهم ما كان من المُلْك والنبوة ويكفي ذلك لإتمام النعمة عليهم، ولا يلزم من التشبيه اشتراك الطرفين في كل ما يتحقق به المناسبة والمشابهة وذلك واضح لدى كل ذي بصيرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء و﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعله.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى ما ذكر من رؤيا يوسف عليه السلام وحكايته لها عند أبيه ونهيه عن بيان القصة عند إخوته علم الناسُ أن هناك وقائع هامة وانتظروا بيانه. فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ المذكورين من أبيه ﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات عظيمة في الدلالة على قدرته القاهرة الباهرة على حفظ مَن شاء وتدريجه على مدارج الصعود إلى حيث يشاء بحيث يعجز عن الإحاطة بأسراره قلوب العارفين. وتلك الآيات نافعة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الطالبين لكشفها المعتبرين بها، وإلا فالكلام مع من ليس له طلب واهتمام كالكلام مع القوم النيام. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ حيث يألفهما ويخصهما بالكلام والدّلال وحُسْنِ المقال وبذل المالِ وغيرِها من الأحوال ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا أولادَ يعقوب من غير أم يوسف جَماعَةٌ أقوياء على العمل لكسب المعيشة وقادرون على حماية البيت وخدمة الضيوف وطرد الأعداء. والعصبة عشرة فما زاد ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح إذ يخصه وأخاه بمزيد العناية ونحن أحق بها منهما. ومن جملة مقولهم ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ حتى لا يبقى له أثر مّا ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة من العمران، مهجورة عن العبور عليها حتى يموت ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ مجزوم بحذف اللام على أنه جواب الأمر، أي يصْفُ لكم ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ولا يزاحِمُكُمْ في التوجه إلينا غيركم،

أي: وأمّا بنيامين فنظره إليه بالتبع لا بالأصالة ﴿وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بَعْدِ موته، أو بعده عن أبيه ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله، ومسامحين مع أبينا بجلب قلبه إلينا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: أحد الإخوة المجتمعين للتآمر عليه وإبعاده عن وجه أبيهم ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ لأن القتل جريمة كبيرة وهو أخونا ومعصوم ويُورِث قتلهُ موتَ أبينا من الأسف، وفي الغائب أمَل. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في قعر البئر وغوره. والظاهر أن الجبَ كان معهوداً بينهم، ولم يكن ماؤه مُغْرِقاً، وإلا فهو قتل بغير المحدّد. وقال الهروي: الغَيابة في الجبّ شِبْه كهف أو طاقٍ في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون. والجُبُّ الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: يأخذه على وجه الحفظ والصيانة عن الضياع بعض جماعة تسير في الأرض ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على تفريقه من أبيه واتفقوا على هذا الرأي كما سيظهر من النص.

﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ولما اتفقوا عليه ﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: شيء حصل لك حال كونك لا تَجعلُنا أمناءَ على يوسف مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا؟ وظاهر الكلام أنه سبق منهم سؤال أن يخرج معهم فلم يرض أبوهم به ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾؟ نريد به الخير والنمو في الجسد والعلم والأدب ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي: يتسع في أكل الفواكه أو المواد الصحراوية ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بوجوه الألعاب الدائرة إذ ذاك ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي: قال: لا أرضى بذلك لأمور. منها: أنه يحزنني بالتأكيد أن تذهبوا به إلى الخارج ويفارقني، لأن مفارقته أصعب شيء على نفسي. ومنها: أنه أخاف أن يأكله الذئب. والمشهور

أن الأرض كانت مَذأبةً ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بألعابكم، أو لذهابكم إلى الاصطياد، أو لغير ذلك. وجاء بهذه الجملة تنبيهاً على أنه لا يتهمهم بالخيانة، وإنما يخاف عليه من السباع الضارية في وقت غفلتهم عنه.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: قالوا: والله لئن أكله الذئب والحال أنا جماعة مُستعدة لمراقبته حتى لا يتعدى عليه الذئب، وإن تعدى عليه فمن شأننا أن ندفعه عنه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: ضُعفاء مغبونون، أو واقعون في الخسارة المادية والمعنوية بإضاعة أخينا وإزعاج أبينا وتشهيرنا لأنفسنا بالضعف وعدم الإفادة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ الجبُ: البئر التي لا حجارة فيها من الجب وهو القطع، وغيابتها حفرتها وقرارها. وسميت الحفرة غيابة لغيبتها عن النظر. وهو مصدر مفرد على وزن فَعالة بفتح الفاء كزهادة، وقرىء بالإفراد وهو ظاهر، وبالجمع لأن كل جانب منها غَيابَةٌ، قيل: هو بئر على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من الأردن. وجاب لما محذوف إيذاناً بظهوره وإشعاراً بأن تفصيله لا يحويه فَلَكُ العبارة. ومجمله فَعَلوا ما فَعَلوا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى يوسف بالمنام كما قيل، أو بالإلهام، أو بإرسال مَلك والموحى إليه ما بعده من قوله تعالى ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أوحينا إليه أنك تخلص من هذه البئر وسيكون لك شأنٌ ومقام، ويأتيك إخوتك محتاجين إليك فتخبرهم عند ذلك بأنكم فَعلتُم بأخيكم يوسف كذا وكذا وهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف. وكان الإيحاء إليه مقصوراً على ذلك، ولم يكن إيحاءً به وبالشريعة لأنه كان مراهقاً عند ذلك ولم يبلغ الحلم، وغالبُ الأنبياء بل جمهورهم آتاهم الله النبوة في الأربعين من أعمارهم. ولقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. نعم أوحى إلى عيسى ويحيى عليهما السلام في الصغر.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي: وجاؤوا إلى أبيهم يَعْقوبَ عليه السلام في

عشاء اليوم الذي ذَهَبُوا فيه، أو في عشاءِ يوم آخر. والعشاء لغة من صلاة المغرب إلى العتمة، أي: ظلام الليل، وتخصيصه بالوقت المقرر لصلاته عرف الشرع. والحاصل أنهم بَعْدَ أنْ فعلوا ما فعلوا لطخوا قميص يوسف بدم سخلة ذبحوها في الصحراء. وقوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ أي: متباكين لأنهم كانوا في غاية الفرح من عملهم ولم يكن عندهم أي خوف لكنهم تكلفوا في البكاء ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: إنا لما وصلنا محل اللعب المقرر ذهبنا متسابقين في العَدْوِ على الأقدام، أو في الرمي بالسهام، أو في أعمال نتوزعها من سقي ورعي واحتطاب، أو في الصيد وأخذه كما قيل: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي: ما نتمتع به من الثياب والأزواد ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد، فكأنهم قالوا إنا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته، وتركناه في مجمعنا بمرأىً منا وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة، فصار ما صار ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ما أنت بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا صادقين في الواقع. وذلك لفرط محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا، فكيف إذا كنا كاذبين فيه وغير متثبتين في كلامنا كما هو شأن الكَذَبَة؟ ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ﴾ أي: قميص يوسف ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: بدم معه دعوى كاذبة، وهي أن هذا الدم دم جسد يوسف من عَضّ الذئب وتمزيقه له. ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام بعد السماع لكلامهم والنظر إلى ارتباكهم في البيان ولهجة التقرير، وسلامة القميص من أثر عض الذئب، وتجربة أعمالهم السابقة السالفة مع يوسف وغيره: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ التسويل: تفعيل من السول أي: الأمنية. ومعناه تزيين النفس لِما تحرص عليه وتصويرُ القبيح بصورة الحَسَن أي: بل زينت لكم أنفسكم أمراً منكراً وهو إفناء يوسف أو إبعاده عن أبويه بشبهة استيلائكم على أمنياتكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل على قضاء الله بدون التشكي إلى الناس وتفويض الأمور داءً ودواءً إلى الله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: والله هو الذي يطلبُ منه العون على كشف ما تذكرونه، أو على الصبر على أكل الذئب ليوسف. وإنما أحال الأمر إلى الله تعالى مع أن الرضاء بالقضاء وإن كان واجباً فالسعي في إزالة المقضي بطريق مشروع أيضاً واجب أو مستحب أو مباح؛ فإن من انكسرت رجله وجب عليه أن يجبر كسرها، ومن هاجمه العدو استعان بمن ينجيه من العدو، لأمور منها احتمال أن الله سبحانه وتعالى ألهمه بما استراحت به نفسه من أن يوسف حيّ

مرزوق ويعود إليه ولو بعد زمان، كما ذكر بعد بيان يوسف لرؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ومنها: أنه أراد وهو رسول من الرسل الدّوام على الصبر في المحنة لزيادة المنحة من الله. ومنها: أنه لو كان يستعين بأتباعه المؤمنين في القضية لكانوا يفتشون أطراف المحل لأثر من آثار جسد يوسف، وبعد التحقق من أنه لا أثر هناك كانوا يقتلون أولاده المحتالين، وهم وإن كانوا مبغوضين لسيدنا يعقوب على عملهم المنكر لكنهم كانوا محبوبين على اقتضاء الغريزة الأبوية. ومنها: خوفه منهم لو كان يعمل شيئاً من هذا القبيل لأنهم بعد ارتكابهم هذه الجريمة كانوا مستعدين لقتل أبيهم وابنه بنيامين وأمه وغير ذلك من المحذورات. ومنها: أنه بما علم من شريعة البيت وكرامة أهله وسعادتهم وصبرهم وتوجيه الأمور إلى الله لم يشأ أن يأتي بأعمال انتقامية حتى يتجاسر أعداؤه بإطالة اللسان وإلقاء الكلمات الفاسدة إلى الناس، فأراد أن تنطفىء النار في المنار ولا تسري إلى إحراق الدار، والله أعلم.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجبّ. والسيارة جمع سائر أي: مسافر، سموا بذلك لسيرهم في الأرض وكانوا رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر. وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن إلقائه. وقيل: في اليوم الثاني. والظاهر أن الجُبّ كان في طريق سيرهم المعتاد لأن إخوته في القرار الأخير قرروا أن لا يقتلوه ويلقوه في جب ليلتقطه بعض العابرين ﴿فَأَرْسَلُوا۟﴾ أي: السيارة ﴿وَارِدَهُمْ﴾ وهو الذي يرد الماء ويسقي لهم، وكان ذلك مالك بن زعر الخزاعي. والتأنيث في جاءت والتذكير فيما بعد باعتبار اللفظ والمعنى ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: فأنزل هذا الوارد دلوه إلى محل الماء من الجب ليخرج الماء فلما

ملئت، وأخذ الوارد يرفعها تعلق يوسف عليه السلام بعلاقتها فرفعه معها، ولما وصلت الدلو إلى حافة البئر ومعها يوسف عليه السلام ﴿قَالَ﴾ الوارد: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ والبشرى: البشارة ونوديت على سبيل الاستعارة، أو المنادى محذوف أي: يا أصحابي بشرى لكم. والغلام الولدُ الطارُّ الشاربِ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي: أخفاه الواردُ ومن معه مِن سائر القافلة حال كونه بضاعةً لهم أخذوها من بعض الناس ليبيعوه في مصر، وكان إذ ذاك بيعُ الغلمان معتاداً. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه إشارة إلى الوعيد للوارد وأصحابه على أنهم جَعَلوه كبضاعة مُسلمة إليهم ليَبيعوه، ولم يُعلِنُوا أمره حتى يعلم الناسُ به ويرجعوه إلى أبيه، لأن المسافة بين البئر والقرية كانت قليلة. أو على أنه ما أظهروه بين الرفقة ليعيش معهم عيشاً رغداً في مدة السفر، أو على أنه قَرَعت سمعهم حادثة البيت، ولكنهم لم يهتموا بها.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: ولما وصلوا مصر باع الوارد وأصحابه يوسف عليه السلام بثمن ناقص لا يعبأ به، وأبدل عنه دراهم معدودة، أي: والثمن كان دراهم لا دنانير، وكانت قليلة حيث كانت العادة وزن الكثير وعد القليل ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: وكان الوارد وأصحابه من الزاهدين أي: الراغبين عنه وعن بقائه في أيديهم. والحاصل أنهم نظروا إليه نظرة السارق للمال المسروق، وأرادوا خلاصهم منه ولو بثمن تافه وذلك إمّا لإخفائه عن أهل القافلة، أو لأنهم عرفوا أنه هو ولد يعقوب عليه السلام وأنه لو بقي عندهم لأمكن أن يعرفه بعضُ الناس ويقعوا في بعض محنة وبلاء. وبعد بيعه بذلك الثمن البخس أخذه المشتري وَعَرَضه للبيع في السوق، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ وزنه مِسكاً، ووزنه وَرِقاً، ووزنه حريراً! فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر، أي: مثل وزير المالية في عصرنا هذا واسمه (قطفير).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ أي: هذا العزيز الوزير على المالية، فهذه الصفقة غير الصفقة السابقة، وذلك لأمرين:

الأول: أن الأولى كانت بثمن بخس وهذه كانت بمال محترم.

والثاني: أنه لو كانت عين الأولى لم تبق لقوله: (من مصر) فائدة كثيرة، لأنّ القافلة وردت مصر، وكان البيع الأول هناك بلا شبهة، وكان الملك يومئذٍ الريّان

ابن الوليد العمليقي، وآمن يوسف عليه السلام، ومات في حياته فَمَلَك بعده قابوس ابن مصعب فدعاه إلى الإيمان فأبى ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ وهي راعيل بنت رعابيل المشهورة بزليخا على هيئة المصغر، ومقول قوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: اجعلي محلَّ ثوائه وإقامته كريماً حَسَناً مرضياً، وذلك كناية عن إكرامه، إذ المقصود أحْسِني تَعَهُّدَه والنظر في شؤونه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: في قضاء حاجاتنا ورعاية مصالحنا ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ أي: نتبناه ونقيمه مقام الولد، لأنه كان عقيماً وذلك لِما تفرس فيه من الرشد والكمال، علاوةً على حسن الصورة والجمال. ولذلك قيل: أفرسُ الناسِ ثلاثة: عزيزُ مصر حين تفرس في يوسف وقال لامرأته أكرمي مثواه... الآية. وابنة شعيب حين تفرست في موسى الأمانة علاوةً على قوته في رفع الحجر ووضعه على رأس البئر. وأبو بكر الصديق حين تفرس في عُمر العدلَ والقوة والأمانة واستخلفه.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وكما مكنا ليوسف في قلب العزيز حتى وصى امرأته بإكرامه واحترامه مكنا ليوسف في أرض مصر في أيامه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ عطف على مقدر مفهوم، أي: ليتصرف فيها بالأخلاق العالية ونعلمه من تأويل الأحاديث من تعبير الرؤى أو إدارة أمور الناس ورعاية العدالة وفهم أسرار الكتب ووقائع العالم ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: أمره المراد له أن يحققه فلا يمنعه عنه أحد، ولا ينازعه في ما يريد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: بلغ زمان انتهاء اشتداد جسمه وهو ما فوق خمسٍ وثلاثين إلى غاية أربعين ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ الحكم يكون بمعنى الحكمة وهو في لسان الشرع العلم النافع لكن بشرط العمل ويضعفه قوله: ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ والظاهر أن المراد بالحكم نفوذ الأمر حين جعله الملك مأموراً على خزائن الأرض، وبالعلم علم النبوة والرسالة وفهم إدارة الأمور وشؤون الناس، وتعبير الرؤى وسياسة المدن. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الحكم النبوة، والعلم الشريعة، وتنكيرهما للتفخيم، أي: حكماً وعلماً لا يقدر قدرهما ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الجميل نجزي الذين يُحسِنون أفكارَهم وأعمالهم، فإن وصلوا فيهما إلى درجة استحقاق النبوة والرسالة أعطيناهم، أو إلى درجة المحبة والولاية أَولَيناهم، أو إلى درجة صفاء القلب والأخذ باللب أصفيناهم. وفوق كل درجةٍ درجةٌ، ولا ينافي ذلك أن النبوة موهوبة لا مكسوبة لأن الحصول على الإحسان في

تلك الدرجات ليس على منهاج اكتسابي مقرر لنيلها إنما هم يحسنون، والله يجزيهم على إحسانهم بالإحسان.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ والمُراودة المطالبة لأمرٍ ما برفقٍ ولطف من راد يرود إذا رَفَقَ. والموصول وصلته لإفادة وصول يوسف عليه السلام إلى قمة العفة والكرامة لأن مراودة امرأة معروفة بالجمال مع شاب في باكورة الشباب والإقبال في بيت مختص بها لا يدخلها غير من أرادت دخوله فيها بأمر من مقتضيات الغريزة الإنسانية مع صيانة المقابل للعفاف... أمرٌ فوق طور المدح بالأوصاف، أي: وطالبته بغاية الرفق واللطف والدلال المرأة التي هو في بيتها ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ومن أجل الوصول إلى المأمول من نفسه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ بناء الباب للتكثير أي: غلقت أبواب جميع الغرف والمجازات حتى لا يرد عليها أحد ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾! أي: ولما غلقتها وسدت الطرق واطمأنت بالخلوة قالت ليوسف عليه السلام: هَيْتَ لك أي: أسرع في المجيء، فهي اسم فعل أمر مبني على الفتح كأين ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية أي: قال يوسف عليه السلام في جواب أمرها معاذ الله بمعنى عذت معاذاً مما تريدين مني. وعلله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي: أن الله ربي ومولاي، وأحْسن مثواي، وأكرمني بأن جعلني من بيت النبوة فلا أرتكب ما يخالف دينه. أو أن الشخص الذي أنا في بيته رباني وأحْسَنَ مثواي فلا أخُونه ولا

أسيء إلى كرامته. وإذا خالفتُ فقد ارتكبتُ الخيانة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والجملة تعليلٌ بعد تعليل أي: أنه أحسن مثواي وجزاءُ الإحسان هو الإحسان لا الإساءة. ثم قال: إنه لا يفلح الظالمون أي: إن ارتكبت ما تطلبين فقد ظلمت نفسي بالعصيان ولا يفلح الظالمون والضمير للشأن.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: والله لقد همت امرأةُ العزيز بمخالطته. قال الأشموني في كتاب الوقف والابتداء: ومثله وهمت به (أي: الوقف هنا وقف كاف كما فيما قبله) وبهذا الوقف يتخلص القارىء من شيء لا يليق بنبي معصوم، وهو أن يهم بامرأة، وينفصل من حكم القَسم قبله في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ويصير ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مستأنفاً إذ الهم من سيدنا يوسف منفيّ لوجود البرهان والوقف على برهان ربّه، انتهى المقصود نقله.

ولما كانت جملة وهمّ بها مستأنفة منقطعة عما قبلها كانت جواباً لكلمة لولا. والتقدير على الترتيب لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، لكنه رأى البرهان فَما هم بها قطعاً. وقد ذهب إلى جواز تقديم الجواب على أدوات الشرط الكوفيون وأبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد من أعلام البصريين. ويجوز أن نقول: إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت كذا. فيقدرونه إن فعلت كذا فأنت ظالم. والحاصل إنه كان يوجد همه ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لكنه رأى برهان ربه فما وجد الهم منه.

وفي البرهان أقوال منها: أنه رأى جبريل عليه السلام. ومنها: أنه تمثل له يعقوب عاضّاً على أنامِلِه. ومنها: أنه نزلت سكينة على قلبه الشريف ورهبة ربانية شملت قواه النفسية بحيث لم يبق عنده مجال أي: خيالٍ كالولد المعصوم. ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: فعلنا مثل ذلك التثبيت وأريناه برهاننا لنصرف عنه السوء أي: خيانة الرب، والفحشاء أي: الزنا، ولما كان الفحشاء هو الزنا والسوء خيانة الرب الشاملة لمقدماته من النظر بشهوةٍ، والقبلة، والخلوة المحرمة، والهم السيىء عُلِمَ براءته من كُل كَدرٍ هنا. وأوضح دلالة على نزاهته من الهم وما فوقه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من الذين استثناهم الله تعالى من إغواء الشيطان الذي ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأنه نص قاطع دال على أن العباد المخلصين لا يقدر

الشيطان على إغوائهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ نص قاطع أيضاً يؤكد على أن يوسف عليه السلام من العباد المخلصين؛ فيرتب برهان من الشكل الأول وهو أن يوسف من العباد المخلصين، وكل من كان منهم لا يستولي الشيطان عليه ينتج أن يوسف لم يستول عليه الشيطان، فإذا شهد الباري سبحانه وتعالى بعصمته وبراءته من هم الفساد لم يبق أدنى رَيب في قلوب أهل الرشاد، والله الهادي إلى سواء السبيل.

ولما تبرأ يوسف من الهم المؤسِف وتنازعا فر يوسف من يدها متجهاً إلى الخارج، وكلما اقترب من باب مغلق انفتح له بسلطان الإله الحق، وتَعَقَّبتْهُ المرأة وتمسكت بقميصه من الوراء فقدتْه فلم يتوقف يوسف، وهذا هو الذي يقول الباري سبحانه ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي: ركض يوسف إلى الباب ليخرج والمرأة إليه لتمنعه وترده وتمنعه عن الخروج حتى لا تفتضح عند الناس ﴿و﴾ بينما هما في هذا الأمر إذ ﴿أَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: زوجها أي: وجد يوسف وامرأة العزيز سيدها أي: زوج المرأة ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: عند الباب الخارجي يريد أن يدخل مع ابن عم لها فبادرت المرأة إلى الكلام شاكية إياه عنده ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ عملاً سيئاً يستقبحه العقل السليم تعني الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ أي: ليس جزاؤه إلا أحد الأمرين على طريقة منع الخلو. فكلمة ما نافية ويجوز أن تكون استفهامية، أي: ما الجزاء الذي يليق به ويستحقه إلا أحد الأمرين؟

وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام دفاعاً عن كرامته وبياناً لبراءته: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: طالبتني بالمخالطة بكمال الدقة والحزم، وقد خالفتُها وفررت منها وعقَّبتْني، وقدَّت قميصي لاسترجاعي ﴿و﴾ عند ذلك ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وهو ابن عمها الذي دخل مع العزيز: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ﴾ أي: خُرِقَ ﴿مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ هي لدلالة القد هناك على أنه استقبلها بعزم السوء فمنعته وقدت قميصه مواجهة له ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواه أنها راودته ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ دبره ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وما فسرنا به الشاهد قول مرجوح لبعض الناس، والصحيح أن الشاهد كان طفلاً رضيعاً في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام إرهاصاً لنبوته، فقد ورد عنه ﷺ: «**تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف** عليه السلام، **وصاحبُ جريجٍ، وعيسى ابن مريم** عليه السلام» وتعقّب ذلك الطيبيُّ بقوله: يرده دلالة الحصر في

حديث الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبيٌ كان يرضع أمَّه فَمَرّ راكبٌ حَسَنُ الهيئةِ فقالت أُمُّه: اللَّهم اجعل ابني مثل هذا! فترك الصبي الثدي وقال: اللَّهم لا تجعلني مثله**» انتهى.

ورَدَّهُ الجلالُ السيوطي فقال: هذا منه على جاري عادته من عدم الإطلاع على طرق الأحاديث، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وصححه من حديث ابن عباس، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين، وفي حديث الصحيحين المشار إليه آنفاً زيادة على الأربعة «**الصبي الذي كان يرضع من أمه فمر راكبٌ الحديث...**» فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ففي صحيح مسلم تكلم الطفل في قصة أصحاب الأخدود.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ السيدُ بعد شهادة الشاهد ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ اطمأن قلبه بهذه الشهادة القدسية الخارجة عن عادة الناس بشهادة أهل البلوغ والعقل، وعن قاعدة المحاكم بعدم الاكتفاء بشهادة أقل من النصاب التي تحول السامع إلى درك الحقيقة كما هي وتطمئن النفس بإخبار القدس و﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه أعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس لامتزاج داعية المقال بداعية الجمال. وقال بعض العلماء: أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ويقول في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يكيد بالخيال والنساء تكيد بالجمال، وكم من العوائل ابتليت من النساء بالغوائل ديناً وأدباً، وعقيدة ومذهباً؟! وإذا استولت فكرة على ربة البيت استولت منها على صغار أولادها وبناتها، ورب البيت مجبور ومغمور، وتفصيل ذلك في التواريخ مسطور.

﴿يُوسُفُ﴾ مُنادىً بحذف الحرف أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ واكتمه وليبْق سِراً عندك ﴿و﴾ يا مَرأة ﴿ٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ الثابت عندي بالشهادة التي اطمأن بها قلبي وبما رأيت من العلامة عليه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي: من القوم المتعمدين للخطأ بمعنى الجريمة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ

شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ
وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ
فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾.

﴿و﴾ لما جرى ما جرى ظهر الأمر وانكشف السر واشتهر بين الناس ﴿قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ على سبيل العادة في اغتياب الناس: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: تطلب موافقته إياها في ما تريده من المؤانسة والمجالسة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شَقَّ حُبه شِغاف قلبها، وهو جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذا نظرنا إلى الضلال وهو أمر معنوي لا يرى بالبصر قلنا: إن الرؤية هنا علمية، وإذا نظرنا إلى إرادة علامات الضلال من المحاورة مع الفتى، وإظهار الأمور المشبوهة، وهي ترى، قلنا: إن الرؤية بصرية، وهذه أيضاً لا تخلو عن المجاز لأن تلك النسوة ما رأين تلك المقدمات، ووجه قولهن إنا لنراها في ضلال مبين واضح أنه لا يجوز ولا ينبغي للحرة العاقلة اقتحام أمر هائل مشبوه بدون سبق مقدمات مُعدّة، فكان الواجبُ عليها وهي امرأة العزيز أن تدلل معه وترتب المقدمات إلى أن تعلم علماً قطعياً أنه يوافقها في ما تريده، وعند ذلك ما كانت تقع في هذه المشكلة، وأما إذا وجدته في مدة دوامه في البيت مؤدباً مهذباً أميناً وقوراً لا يدخل في ما لا يعني ولا يرتكب ما لا يناسب قدره وعنده الإطمئنان النفسي... فواجبها أن لا تميل إلى مثل ذلك العمل من غلق الأبواب وتهيئة الأسباب حتى تقع في ما وقعت فيه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: باغتيابهن وسوء مقالتهن أقدمت على عمل معهن حتى يرين من يوسف عليه السلام من الكمال والجمال وحسن الصورة والسيرة ما يبرر توريط زليخا في ذلك الشأن الخطير ولذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى البيت، فدعت صاحبات المقالات السابقة مع جماعة أخرى ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ يتكئن عليه

من النمارق والوسائد ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يقدم بين أيديهن من المواد المحتاجة إليه، وغرضها من ذلك أن يقع منهن عمل لا يناسب صاحب الشعور الكامل لتبكيتهن بالحجة، وقدمت إليهن المواد التي تقطع وتؤكل كالنارنج وأمثاله ﴿وَقَالَتِ﴾ امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عند ذلك ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك ليرينه بجمال صورته فيشغلن به عن أنفسهن، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظمنهُ ودُهِشْن بجماله ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جَرَحْنَها بما في أيديهن مِنَ السكاكين لخروجهن عن الحال الطبيعي، وعدم تمييزهن بين أيديهن والمواد المأكولة ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ حاشَ حرف وضع للاستثناء وأصله حاشا اللَّهِ، وكانت دالة على الاستثناء والتنزيه معاً، ثم نقل وجعل اسماً للتنزيه وتجرد عن معنى الاستثناء، ولم ينون مراعاة لأصله فإن الحرف لا تنون، وزيدت اللام على الجلالة للبيان ومعناه تنزيهاً لله تعالى عن العيب والاعتراض إذا خلق البشر كالملك لكن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ فإن هذا الجمال لم يعهد في نوعه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾! أي: ما هذا إلا ملكٌ شريف مُحَلّىً بالمحاسن خَلقاً وخُلقاً.

﴿قَالَتْ﴾ أي: امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى﴾ فيه أي: فإذا أدركتن جمال صورة هذا الغلام الخارج عليكن وشعرتن بما عرضت عليكن من الحيرة والدهش فهو الذي لمتنني فيه وفي الإفتتان به ومراودته وَعَيَّرْتُنَّني في التعلق به ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ولا أكتم منكن ما في قلبي من الارتباط به والله لقد راودته، وتحايلت بكل نوع معه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: للاستيلاء على نفسه ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وأخذ بعصمته على أبلغ وجه ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ في مستقبل الأوقات، وآمر صيغة المضارع للمتكلم وحده من الباب الأول خفف بقلب الهمزة الثانية ألفاً ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الفعلان واقعان في جواب القسم المدلول باللام الداخلة على كلمة الشرط، والأول مضارع مجهول مؤكد بالنون الثقيلة، والثاني معلوم مؤكد بالنون الخفيفة، والضميران راجعان إلى يوسف، والفعل الأخير مكتوب بالألف على قاعدة الوقف عليه بالألف، إذ الأصل في كل كلمة أن تكتب أولها بتقدير الابتداء وآخرها بتقدير الوقف. والصاغر هو الذليل المُهان.

ولما سمع يوسف كلامها الكاشف عن سرها وسترها وأنه أعلنت بما في قلبها وبما تفعله عند المخالفة دعا ربه و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ أي: يا رب السجنُ الذي تَوعدتْني بالحبس فيه على تقدير مخالفتي لها أحب إليّ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: من ارتكاب العمل الفاحش الذي يدعونني إليه، لأن عذاب السجن إما مؤقت أو مستمر إلى موتي ويأتي بعده الثواب. وأما العمل المشؤوم المطلوب مِنّي فيورِثُ عذاباً شديداً في الآخرة وعاراً وعيباً على بيت النبوة في الدنيا. والفعل لجمع المؤنث، والواو لام الكلمة، وإسناد الدعوة إليهن باعتبار قبولهن لمعذرتها، أو أمرهن ليوسف بموافقتها كما روي ذلك. ولعله كان في ذلك العصر نوعٌ من الاستهتار وعدمِ الاعتبار بالشرف والأعراض، وإلا لم يقبل منها تلك المعذرة السابقة ولا هذا الوعيد اللاحق ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: وإلا تدفع عني كيدهن وحيلتهن بالدلال وعرض محسنات الجمال وذلك بالتبعيد عنهن بحيث لا يصلن إليّ أصب إليهن وأمل إلى ما يملن بمقتضى الطبيعة البشرية وحكم القوة الشهوية، وأكن من الجاهلين أي الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا رادع له من علمه عن فساد عمله فكأنه لا علم له، وسلك على موجوب جهله. وهذا الدعاء فزع منه إلى الله تعالى طلباً للعفة جرياً على سيرة الأنبياء والمرسلين في حصر الحول والقوة في الله، لا أنه يطلب الإلجاء إلى عدم وقوع الفساد مع أن في قلبه داعية إليه، وإلا لو كان كذلك لما جرى فإن الأنبياء معصومون من الكبائر والعزم عليها قبل النبوة، كما أنهم معصومون بعدها. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أجاب له إجابة أكيدة، وألهم أهل المرأة سِجنه كما قال ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بأن ثبته على العِصْمَة وحال بينه وبين المعصية ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرعين ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الراعين لحقوقه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا

﴿مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يعني ثم ظهر للعزيز وأشياعه من أهل الرأي بعدما رأوا الآيات البينات الشاهدة ببراءة يوسف وبمراودة المرأة له، وبعد أن قرع أسماعهم أنها دَعَتِ النسوةَ إليها وأمرت بخروج يوسف وما جرى بينهن من كلمات المرأة، وبيانات النسوة، أنه إذا بقي يوسف يتجدد العيب والعار، وإخراجه وبيعه لبعض التجار يوجب نشر المخازي في الديار، وأن الطريق الأقوم الأسلم أن يسجنوه مدة حتى يهدأ الحال ويتقلل المقال. وقوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ بصيغة جمع المذكر الغائب المصدر بلام التأكيد جواب للقسم المستفاد من قوله (بدا لهم) لأن العرب تجري تلك الجملة مجرى القسم. وقال بعض: إن اللام في ليسجننه موطئة لقسم محذوف، والجملة في محل النصب مفعول لقول محذوف، والتقدير: ثم ظهر لهم سجنه قائلين: والله ليسجننه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو سبع سنين كما هو المشهور، فأرسلوه إلى السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ غلامان للملك أحدهما مأمور طعام، والآخر مأمور سقيه اتهما بإرادة تسميم المطعوم والمشروب لقتل الملك، وبقوا في السجن زماناً، واتفق أن كلاً منهما رأى رؤيا. ولما كانا مرتاحين من صحبة يوسف في تلك المدة واعتقدوا فيه الفراسة والعلم بالتعبير... جاءا إليه لحكاية الرؤيا له وأخذ تعبيرها ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو الشرابي: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ أي: رأيتني في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. روي أنه قال: رأيت جملة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد عنب، فكنت أعصرها وأسقي الملك. وكلمة خمراً مجاز مرسل بعلاقة الأولِ ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الطعامي: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ روي أنه قال: رأيت أني أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي: أخبرنا بتعبيره الذي تؤول إليه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لطلب التعبير منهما. والمراد من المحسنين لتعبير الرؤى أو من أهل الإحسان وصفاء القلب وهم غالباً أصحاب فراسة وفهم لإدراك الأسرار.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: لا يأتيكما طعام مما

قرر للسجناء ترزقانه وصار رزقاً لكما وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بإيضاحه وبيان مادته وكميته وكيفيته ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ والمراد بالتأويل الإيضاح والبيان لا تفسير المشكل. وإنما قال ذلك مع أن فيه دعوى اختصاصِه بالمزايا الروحية وكشف الأشياء الخفية للتحدث بنعمة الباري سبحانه وتعالى وإعدادهما لطلب الإيمان منهما بالله الواحد الأحد، فإن الطالب إذا كانت عنده الخوارق اعتبر من الصادقين وأجيب إلى مطلوبه ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ جواب لسؤالهما حيث قالا بعد ما قال الكلام الهام: من أين لك هذا، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال: ذلكما مما علمني ربي بالوحي أو بالإلهام. واقتصر بعض على الأول واستدلوا به على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت نبياً، ولما كان كلامه ذلك بعيداً من مستوى أفكارهما وكيف يوحى إلى إنسان كذلك بدون وجود أتباع له قال: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: إني رفضت دين قوم كفار مشركين بالله تعالى ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ خاصة دون باقي الأمة من الكنعانيين الذي هم على ملة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: وأنا ثابت مستقيم على دين التوحيد الذي جاء به آبائي إبراهيم، وإسحاق ابنه، ويعقوب حفيده وهم من الرسل الكرام ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ معاشر الأنبياء المكرمين من الله تعالى المأمورين بتبليغ الأوامر الإلٰهية ونواهيه إلى العباد لتثقيفهم وتوجيههم إلى الله الواحد الواجب الوجود المعبود ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ جامدٍ أو نام، حيوانٍ أو إنسان فإنه لا يليق بالعقل الإنساني أن ينحط إلى درك يُعتبر فيه المناسبة بين الخالق والمخلوق وبين الواجب والممكن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدين والتوحيد ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ ومن تأييده ومواهبه الإلٰهية حيث خصنا برسالته ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث جعلنا وسائط إرشادية لتبليغ الحقائق، وتنوير القلوب، وبث محاسن الاعتقادات والأعمال والأخلاق فيهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله بتوحيده حتى يجعلوه مبدأ ومصدراً للخيرات الواصلة إليهم، ورافعاً للبلايا النازلة عليهم، وإلا فكيف يكفرون به وبوحدته؟.

ثم بعد بيان ما من الله به عليه، وإصغائهما له، وظنه أن كلامه يؤثر فيهم... بدأ بعبارة رقيقة لطيفة وبعنوان الصحبة التي هي لأهل الأخلاق من موجبات المحبة يعظهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: يا صاحبي في السجن العارفين بمجمل أحوالي وحسن جواري انظروا بعين الاستبصار، وتفكروا بقلب الاتعاظ والاعتبار ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متعددون كاللات والمناة

والعزى لمشركي العرب في عهد ما قبل الإسلام، وكالأصنام المتعددة المنحوتة المنصوبة في المعابد، أو أأرباب متفرقون مختلفو الأجناس من واجب الوجود وممكنة، أو من الجواهر والأعراض كالنور والظلمة ﴿خَيْرٌ﴾ للعبادة والإطاعة والالتجاء إليه ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؟ أي أم الذاتُ الواجبُ الوجودِ الواحدُ القادرُ الغالبُ على كل ما أرادَ، ولا يُمانَع في أيّ مُراد، مع أن الكثرة والتعدد في الآلهة إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استحقاق أي واحد منها للعبادات، لأن كلاً من أولئك الأرباب إما كامل أو ناقص، فإذا كان كاملاً فالواحد كاف، وإن كان ناقصاً فإضافة النقص إلى الناقص لا يجعل الناقص كاملاً ويبقى على نقصه، والناقص لا يفيد المقصود، فإن ذاته هو المحتاج إلى الكمال فكيف يورث غيره الكمال مع العلم أن تلك المعبودات المصطنعة ليس لها حظ من الكمال والكرامة قطعاً. وإنما هي مواد جامدة منصوبة؟ و﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله تعالى ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ أي: إلا ألفاظاً فارغة لا حقائق لها تعبد، وإنما حقائقها هي المواد المجتمعة من الحجارة والأخشاب وغيرها ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: ذكرتموها واعتبرتموها واحترمتموها وإلا فهي ليست إلاَّ ألفاظاً مجردة عن المعنى المقصود. هذا إذا أرجعنا الضمير إلى الأسماء، وأما إذا أرجعناه إلى مسمياته المستفادة من المقام فالمعنى سميتم أنتم وآباؤكم تلك المسميات الجامدة السافلة بتلك الأسماء الدالة عليها. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك الأسماء واعتبارها للعبادة أو بمسمياتها والعبادة لها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة دالة على صحة الاعتبار بها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إن نافية، والحكم بمعنى القضاء الفعلي أو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين، أي: لا قضاء في شأن العبادة إلاَّ لله، وقد قضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، أو لا خطاب مع المكلفين في شأن العبادة إلا لله. وخطابه هو اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وقوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ جملة مستأنفة جواب لسؤال، وأمر بمعنى قضى وحكم، أو أصدر الأمر بصيغة الطلب، وأن مصدرية أي: إذا سأل سائل ما هو حكم الله في شأن العبادة؟ فالجواب: حكم وقضى أن لا تعبدوا إلا إياه، أو بماذا أمرَ فالجواب أنه أمر بتخصيص العبادة بذاته تعالى. وقال اختصوا ربكم بها ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الحكم والقضاء بالتوحيد أو الأمر بتخصيصه بها هو الدين القيم الثابت الحق، وأصله قيّم قويم نقلت الواو إلى محل الياء وبالعكس، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن التوحيد هو الدين القيم. لعدم نظرهم إلى المقدمات القطعية التي يؤلف منها برهان التوحيد.

ومنشأ ذلك الوقف عند المحسوسات والمألوفات وذلك بسبب التوغل في الشهوات النفسية، وهذا بالنسبة إلى الطبقة الأولى. وأما في باقي الطبقات فيضاف إليها رعاية التقليد الأعمى والمشي مع العادة، ومنها تركز في القلوب عبادة الشمس والقمر وسائر الكواكب والجمادات الأخرى بشبهات واهية أوهن من بيت العنكبوت، ومنها نشأ الخروج عن الصراط المستقيم وهو الذي كان عليه النبي ﷺ ومن معه من أصحابه رضي الله عنهم. وقد يضاف إلى ما ذكر المطامع الدنية للأموال المكتسبة من أصحاب الحيل الأجنبية ولهذا الموضوع أفق عريض طويل أعاذنا الله والمسلمين من كل أمر فاسد دخيل. ثم إن سيدنا يوسف عليه السلام بعد إرشاد الصاحبين وتوجيههما إلى الدين القيم أخذ في تعبير رؤياهما وقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: صاحبي في السجن ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾ أي: فيخلص من السجن ويعود إلى وظيفته السابقة ويسقي سيده خمراً.

روي أنه عليه السلام قال: ما رأيت مِن حَبْلة الكَرْم الحسنة عبارة عن الملك، وأما القضبان الثلاثة، فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعودُ إلى ما كنتَ عليه ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وهو ما تؤول إليه الرؤيا من نجاة الأول وهلاك الثاني. أي: قضى به الله تعالى وأبرَمَ الأمر.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ والظن هنا بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ والدليل عليه ما سبق من قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ والمراد بالموصول هو الشرابي. ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ بما أنا عليه

من ضيق السجن واغترابي عن أبي وأمي وأنا من نسل إبراهيم عليه السلام ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ الذي تسقيه وتلازمه لعله يترحم عليّ ويأمر بإطلاق سراحي ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فأنسى الشيطان بإلقاء الوساوس وأمور الدنيا في قلب ذلك الناجي ذكر أوضاع يوسف عند سيده؛ فإضافة الذكر إلى الرب للملابسة وهو في التقدير مضاف إلى المفعول وهو الإخبار، أي: فأنسى الشيطانُ ذلك الصاحب الناجي ذكرَ أخبار يوسف عند ربه ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: فمكث يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساء في السجن عدداً من السنين ما بين الثلاث إلى التسع. والمشهور أنها سبع سنين. أي: فلبث بعد قوله ذلك للشرابي بضع سنين أو صار مجموع لبثه من قبل القول ومن بعده بضع سنين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو الريّان، وكان إذ ذاك كافراً ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر بالملك ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيت وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ أي: ممتلئات لحماً وشحماً ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبع بقرات مهزولة جداً ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: وسبع سنبلات أُخَرَ يابسات قد أُدركت والتَوَتْ على الخضر حتى غَلَبَتْها ولم يبق من خضرتها شيء ظاهر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ﴾ هذه، وبينوا حكمها وعاقبتها. والخطاب إما للأشراف الملازمين له في مجلسه الخاص من أهل مشورته، والتعبير هو الإنتقال من الصور الخيالية المدركة في الرؤيا إلى

الصورة الموافقة للواقع، أو لعلماء البلد المعروفين بالفراسة وتعبير الرؤى بقرينة قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: إن صح ما اشتهر عنكم من أن لكم معرفة بالتعبير، وعليه ففي الآية إيجاز الحذف، أي: ثم جمع الملك المعبرين وقال لهم يا أيها الملأ... ﴿قَالُوٓاْ﴾ في جواب الملك: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ والعبارة من باب لجين الماء أي: أحلامٌ هي كالأضغاث، أي: النبات المختلط بعضه ببعض لا يعرف أصول طاقاته، ولا يميز بعضه عن بعض، ومرادهم أن هذه الرؤيا مزدوجة من فروع مختلفة التف واختلط بعضها ببعض، فلا يميز بينها، ولا يعرف المقصود منها. والأضغاث: جمع ضِغْثٍ وهو أقل من الحزمة وأكثرُ من القبضة من أخلاط النبات. وفي «الكشاف»: إن أضغاث الأحلام تخاليطُها وأباطيلُها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. والأحلام: جمع حلم بضمة وبضمتين: المنامات الباطلة على ما قاله جمع. وقال بعضهم: الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقاً. لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه. وفي الحديث: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان**» وقال التورپشتي: الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارعُ ﷺ للفصل بين الحق والباطل، كأنه كَرِهَ أن يسمى ما كان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسم واحد ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: بتأويل المنامات الباطلة بعارفين. فكأنهم قالوا: هذه رؤيا باطلة، وكل رؤيا كذلك لا نعلم تأويلها.

﴿وَقَالَ﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الصاحبين من الموت ورجع إلى وظيفته عند الملك ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكر ما سبق له مع يوسف من ذكره عند الملك بعد مدة كثيرة من الزمان: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أخبركم بتأويل ذلك الذي خفي عليكم بالأخذ ممن عنده علمٌ به لا من تلقاء نفسي ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى صاحبي السابق الذي كان عنده علم بالتعابير. وضمير الجمع إما لتشريف الملك أو لأنه خاطب القوم الحاضرين عنده الذين خفي عليهم التعبير. وفي الآية: إيجاز حذف أي: وأرسلوه فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومن عنده ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويله منك ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك وعلمك وأنت باق على هذه الأحوال.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام في جوابه: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: حال كونكم دائبين مستمرين على عادتكم السابقة في الزراعة فهو مال أو زرع دأبٍ وعادةٍ لكم، فهو مفعول مطلق مجازي ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ ولا تذروه حبوباً كي لا يأكله السوس كما هو شأن غلات مصر إذا مَضَت عليها أعوام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في العام فصفوه وكُلوه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك العدد المذكور من السنين السبع الخفيفة ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين صعاب على الناس لقلة الأرزاق فيها ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن ما ادخرتم لهن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: تحفظونه لبذور الزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الزمان المنعوت بما ذكر ﴿عَامٌ﴾ أي: سنة ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يصيبهم غيث أي: مطر، فالفعل يأتي أو فيه يفرج على الناس بإغاثة الباري تعالى لهم بفيض الرحمة من المطر والوسائل الأخرى الاقتصادية ﴿وَفِيهِ﴾ أي: وفي ذلك العام المبارك ﴿يَعْصِرُونَ﴾ الفواكه للمشروبات، والقصب للسكر، والزيتون للدهن، ونحوها...

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: وبعدما رجع السفير من عنده بالتعبير الذي اشتم منه عبير العلم والتدبير، وأدرك من فضله القدر الكثير ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ فإنه مما ينبغي أن يدرك ولا يترك، ويستفاد من علمه وتدبيره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وهو صاحبه الناجي ودعاه إلى حضور الملك كان يوسف عليه السلام ثابتاً على قدم التمكين ولم يكن عجولاً يتحرك لليسار واليمين، وأراد أن لا يرى الملك إلا مع لباس الأمانة، والبراءة من كل خيانة فلم يذهب و﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ أن يحقق القضية عن أهل بيت العزيز والنسوة المصريات اللاتي عرفتهن امرأته وراودته أيضاً حتى يتبين ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؟ عند خروجي عليهن ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا الطلب من جانب يوسف عليه السلام غاية قوة القلب والاعتماد على الله وأنه ينصر الحق ولا يدحره، ويدحر الباطل ولا

ينصره، حيث لم يخف من أن يتكلمن بخلاف الحق فيشتهر بسوء الحال في المآل، ومع ذلك راعى جانب الأدب ولم يقترح السؤال عن امرأة العزيز، كما أنه لاحظ الخوف من بيانهن لغير الواقع، ولذلك قال إنَّ ربي بكيدهن عليم. وكان في تدبير يوسف هذا منفعة عظيمة لتطهير ساحته عن الخيانة، فإن كل من كان في موضع تهمة ونسب إليه شيء وجد من الناس من يلوثه بتلك التهمة ولو كان بريئاً. ولذا قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم**» وأخرج مسلم من رواية أنس أن رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه وقال: «**هذه زوجتي**» فقال: يا رسول الله مَنْ كنتُ أظُنّ به، فلم أكن أظن بك. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**».

فلما رجع السفير وقدم التقرير أحضر الملك امرأة العزيز مع النسوة المصريات و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟ والخطب في الأصل الأمر العظيم، أي: ما هي قصتكن إذا راودتنه. فهل كان هو أساسَ المراودة أو نشأت منكن؟ وهل كان له إجابة لَكُنَّ عندَ المراودة؟ فأجابت نسوة مصر و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً وتعجيباً من نزاهته عليه السلام ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ لا في البداية ولا في النهاية والمراد تبرئته بأبلغ وجه. ويستفاد من تقديم قولهن حاشلله تنزيه أنفسهن أيضاً عن المراودة لأنهن لو راودته كان المناسب بعد قول الملك: إذ راودتن يوسف عن نفسه أن يقلن: نحن راودناه ولكن ما علمنا عليه من سوء. ولما جاء دور كلام امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر الحق وتبين بعد خفاء مّا. وأصله من الحصة أي: تميزت حصة الحق عن حصة الباطل ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، وقالت ذلك لتأكيد براءته كما تظهر أيضاً من قولها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله عند العزيز هي راودتني عن نفسي ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ذلك من كلام يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي: ذلك التثبت والوقوف حتى يسأل الملك النسوة وامرأة العزيز ويجبنه بما أجبن به، ليعلم العزيز أو ليعلم كل من يهمه الأمر أني لم أخنه، أي: العزيز بالغيب أي: غائباً عنه حيث كان في مقر الوظيفة وأنا في داره دار المقامة، وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين. أي: لا يهدي من خان وكاد، فإن ذلك مكرٌ سيء ولا يَحيقُ المكر السيىء إلا بأهله.

الجزء الثالث عشر

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ﴾ أي: ولستُ قاصداً بما فعلته تَبرِئَة نفسي عن الخبايا والخفايا، أو أنا بعدما ثبتت براءتي لا أبرىء نفسي ولا أدعي أنه ليس عندها أي رذيلة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ خِلقَةً وفِطرة ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾ أي: إلا وقت رحمة ربي أو إلا ما رحمه الله من النفوس. فما على الأول ظرفية مصدرية زمانية، أي: إن النفس لأمارة بالسوء كُلَّ وقت إلا وقت ورود رحمة الباري عليها لحفظها. وعلى الثاني موصولة بمعنى مَنْ، أي: إن نفوس الناس لأمارة بالسوء إلا من رحمه الله تعالى وغمره برحمته فنفسه لا تغلب عليه ولا تأمره بالسوء. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة. فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها وواسع الرحمة ومبالغٌ فيها فيعصمها من الجَرَيان على مُوجَبِ ذلك.

ومما ينبغي أن يعلم أن للفظ النفس وكذا لكل من الروح والقلب والعقل معنيين:

والأول من معنيي النفس: القوة المودعة في الإنسان الجامعة لقوة الغضب والشهوة وسائر الرذائل. وهذا المعنى هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الجامع للصفات المذمومة في الإنسان ولا بد من مجاهدة النفس وكسرها. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**أعْدى عدوك نفسُك التي بين جنبيك**» وهي بهذا المعنى صفة للروح الإنساني.

والثاني من معنييها: شخص الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مُبَعدة عن الله وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ وإن تركت

الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ ويجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول. فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان، أي: ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

والأول من معنيي الروح: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يُدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلا ويستنير به. والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان. والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إن أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب.

والثاني من معنيي الروح: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

والأول من معنيي القلب: هو اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح الحيواني ومعدنه.

والثاني من معنييه: هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني. وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان.

والأول من معنيي العقل: أنه العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة، ونحن نعلم أن كل عالم له في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك وهو المراد بقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله العقل**» فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه، وفي الخبر «**أنه قال له تعالى: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدْبِرْ فَأَدبَرَ**» الحديث... فإذا قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي القلب الجسماني والروح الجسماني، والنفس الشهوانية والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها. فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين. هذا ما أخذناه من أول الربع الثالث من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله، لتسهيل فهم الآية الشريفة بواسطته.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ أي: ولما أحضر الملك النسوة وامرأة العزيز وشهدن على براءة يوسف واعترفت امرأة العزيز بخيانتها... علم الملك أن في يوسف الأمانة ورعاية حقوق المولى والعفة عن الشهوات النفسية... ولما علم بتوقفه عن الخروج عن السجن حتى يحقق الملك معهن علم أن فيه صبراً وثباتاً ووقاراً وحفظاً لسمعته من الإشاعات الكاذبة. ولما وقع في قلبه تعبيره للرؤيا علم أن له علماً بالتعبير. ولما ذكر في الرؤيا كيفية استخلاص الأمة من السنين المجدبة علم أن له معرفة بكشف الحقائق، ولياقة بالاستشارة في المهمات... فعلى تلك المقدمات المهمة قال: أئتوني به أستخلصه لنفسي يكون معي في البلاط الملكي للاستفادة من رأيه، والإنتفاع من أمانته ورعايته وقدرته على إنجاء الأمة من المشكلات المهمة ﴿فَلَمَّا﴾ أتوا يوسف إليه و﴿كَلَّمَهُۥ﴾ أي: كلم الملك يوسف وقال: إني أحب أن أسمع منك تعبير الرؤيا فعبرها له، واستحسن

الملك حسن المحاضرة، وعرض الموضوع ورأى حسن منطقه وجوابه وحواره ﴿قَالَ﴾ الملك له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي: ذو مكانة ومنزلة رفيعة و﴿أَمِينٌ﴾ أي: مؤتمن على كل شيء من الأسرار والأخبار والأموال، ولم يرد جعل اليوم ظرفاً لمكانته وأمانته بل جعله مبدأ لهما مدة بقائه.

ولما علم يوسف عليه السلام أن بقاءه عنده في البلاط يوجب كثرة الاختلاط وكثرة المنافسة والمناقشة مع الأخلاط، وأن مجاورة الملوك مهلكة إلا لأصحاب الاستقامة وحسن السلوك، وأنه لا يحصل منه منفعة عامة للأمة حيث أن أموره تنحصر في بعض الاستشارات الخارجية والداخلية، وخاف على نفسه من أمور لا توافق قدسية أهل بيت النبوة، وأنه إذا خول إليه أمور المالية نفع الأمة المصرية، وفي ذلك خير عظيم وفيه جلب لقلب الأمة وتسهيل لأخذ النصائح منه في توحيد رب العالمين: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ في مبادىء جمعها وصيانتها وتنميتها وصرفها فيما يجب صرفه إليه، ولما خاف من أن الملك ربما يتوهم أنه لا مقدرة له على حفظها فإن الأموال منبع الأهوال ومطمح الآمال ومعترك الرجال. أو أنه لا يعرف وجوه صرفها فإن الملوك قد يصرفون آلافاً في تأليف شخص واحد أو في دفع شرور إنسان فاسد قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قادر على حفظ الأموال، وعليم بكيفية صيانتها واستثمارها وصرفها. وإنما سأله هذا المنصب مع أن العزيز كان وزيراً للمالية لمصادفة وصوله إلى الملك وفاة العزيز وشعور محله، ولأنه علم من رؤيا الملك أن الأمة مستقبلة لأحداث هامة، وأن الغلاء والجدب على وشك الحلول فَأَحَبَّ أن يخدم الحق ويرعى الأمة ويفيد أقطار البلاد المجاورة من الخيرات، وكان يعلم من نفسه الكفاءة لذلك المقام بحيث يكون أنفع من غيره، وعند ذلك يجوز أو يستحب أو يجب السَّعْي لتحصيل مثل ذلك المنصب، وبطبيعة الحال ومعرفة يوسف عليه السلام بالحقائق طلب ذلك المنصب بصورة مستحسنة مستدعية لإجابة الملك وقبول اقتراحه فأمر به وعينه حافظاً لخزائن مصر، فصار وزيراً للمالية على تعبير أهل عصرنا الحاضر.

روي أن عمر سيدنا يوسف في هذا الوقت كان ثلاثين سنة، وهو في قوة الشباب، فَزَوَّجَهُ الملكُ من راعيلَ (زليخا) امرأة العزيز، وأخرج الحكيمُ الترمذي عن وهب قال: أصابت امرأة العزيز حاجةٌ فقيل لها: لو أتيت يوسُف بن يعقوب فسألتيه: فَاسْتَشارت الناس في ذلك فقالوا: لا تفعلي فإنا نخافه عليك. قالت: كلا

إني لا أخاف ممن يخاف الله تعالى فدخلت عليه، فرأته في ملكه، فقالت: الحمدلله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته. ثم نظرت إلى نفسها فقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بمعصيته! فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ومثلَ ذلك التمكين البديع العجيب مَكنا ليوسف وجعلنا له مكاناً في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: يستقر ويأخذ الدار والقصور حيث يشاء من البلد أو الضواحي أو على حافة النيل ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى حكمتنا ورحمتنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالإيمان والصدق والصبر والأمانة والعفة والوفاء، فلهم أجورهم كاملة غير منقوصة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الكفر والكبائر ورذائل الأمور.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ يعني وجاء إخوة يوسف إلى مصر، وسبب مجيئهم أنه حَلّ بأرض كنعان، محل يعقوب وأولاده وسائر من حوله، غَلاءٌ شديد فقال لأولاده، ما عدا بنيامين: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فاقصدوه بما عندكم من البضاعة لعلكم تشترون منه طعاماً يفيدكم في هذه الظروف القاسية، فجهزوا ما عندهم وقصدوا مصر فوصلوا إليها ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف وهو في مجلس ولايته ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: والحال إنهم منكرون له لنسيانهم إياه بطول العهد وبُعْدِ مظنة وصُول يوسف إلى هذا المقام الرفيع.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: قضى حاجتهم وأصلحهم بما جاؤوا له من

الحبوب وسائر الأطعمة ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ قيل: إن طلبه ذلك لأنهم طَلَبُوا منه الطعامَ بقدر عَدَد رؤوس أهل البيت، وَعدّوا بنيامين، فقال: ما دام أنتم صادقون في قولكم ذلك فأتوني به لأعرفه ويأخذ حصته وتقعون موقع الثقة مني، وحرضهم على إمتثال أمره بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ يعني ألا تعلمون أني أعطيكم الطعام المقصود بمعيار وافٍ غير ناقص ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؟ أي: خير المضيفين والمحسنين في إنزالكم وضيافتكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ أي: بأخيكم من أبيكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ في المرة الثانية فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدخول بلادي فضلاً عن الإحساس في الإنزال والضّيافة ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادع أباه ونستميله بكل ما عندنا من اللطف والحيلة ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: لقادرون على ذلك لا نعجز عنه، أو إنا لفاعلون ذلك بحسب قدرتنا ولا نتكاسل فيه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف عليه السلام لغلمانه الكيالين: اجعلوا بضاعة كل واحد منهم، أي: المتاع الذي جاء به ليشتري بمقابله الطعام في رحله، أي: في الظرف الذي على ظهر مركوبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ أي: يعرفون أن البضاعة بضاعتهم ومالهم عينه إذا رجعوا إلى أهلهم وفكوا الأحمالَ، ويطمئنوا بحسن مُعامَلتي معهم في هذه السنة المُجْدِبة والغلاء الفاضح ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليّ مع أخيهم من أبيهم، وأقضي اشتياقي من أخي الشقيق.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ في أرض كنعان ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وحكم بمنعه بعد هذه المرة إن لم نذهب بأخينا من أبينا بنيامين حسب أمْرِ الملك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ مِنَ الطعام ما نريده ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يصيبه مكروه ﴿قَالَ﴾ أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على بنيامين، والاستفهام إنكاري ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾؟! أي: قبل هذا الزمان، وقد قلتم في حفظه ما قلتم، ثم صار ما صار، ومع ذلك لما كان الأمر خطيراً والغلاء بلاءً مَريراً، أوافقكم عل ما تريدون في أن تذهبوا بأخيكم بنيامين إلى مصر، وقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: وما دام الأمر كذلك فأرجو أن يحفظني ربي. ويرحمني في عدم عود مثل مأساة فراق يوسف إلى

نفسي لأن الله خير حافظ وهو أرحَمَ الراحمين. وحافظاً منصوب على التميز كالمشتق في لله درّه فارساً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ﴾ الذي جاؤوا به من مصر ﴿وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي سلموها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وهي في رحالهم، ووجَدَ كلٌ بضاعته عنها في رحلِهِ، ولما اطمأنوا بذلك على كرامة الملك ومروءته ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ أي: ما الذي نطلب وراء ما أحْسَنَ إلينا الملك ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ﴾ لنشتري به مثلَ ما اشترينا في المرة الأولى بشرط أن يكون معنا أخونا بنيامين ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الميرة وهي طعام الإنسان أي: يجلبه من بلد إلى بلد ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: مقداراً يحمله البعير وهو وِسقٌ مَن الطعام ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك الذي أخذناه في المرة الأولى مكيل يسير قليل لا يكفي أولادَنا وأضيافنا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ يعني أن الموافقة التي أبديتها لكم كانت شيئاً مبدئياً ولكنه لها شرط، وعلى ذلك ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي: أخاكم بنيامين ﴿مَعَكُمْ﴾ إلى مصر ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ أي: تُعطوني ﴿مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أتوثق به من جانب

الله تعالى ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ أي: والموثِقُ هُو أنْ تَحلفُوا لَتأتُنني بِهِ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينكَ به إلا أن يُغلَبَ علينا من جانب المخالف، فلا نقدرَ عَلى ذلك. ولما قال يعقوب عليه السلام ذلك واشترط عليهم إيتاء الموثق والحلف بالله حلف كل منهم حسب ذلك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ وحلفوا بالله تعالى ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: مطّلع ورقيبٌ ﴿و﴾ لما اطمأنّ الطرفان ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ عليه السلام ناصحاً لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصرَ ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ لأنكم جماعة ذاتُ شأن، وَعَرفَ الناس أن لكم شأناً عند الملك، فأخاف أن تُصابوا بِعُيُونِ الحاسدين ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ حتى لا تُرى لكم الأبَّهةُ الحاصِلَة من الاجتماع ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ولا أدفع عنكم القضاء من الله من أي قضاء صدر منه، سواء بالإنزلاق فقط، أو به وبكسر عضو منكم، أو بالقبض عليكم من جانب الحكم، أو بالقتل، أو بغير ذلك. فإن الحذرَ لا يُغني من القدر لكنا أمِرنا بالحذر حِفظاً لنظام سنة الله في الكون، حيث لا ندري أن في هذا اليوم قضاءً أو لا، وإلا فإذا كان اليوم يوم القدر فلا يفيد الحذر، وإلا فلا خطر حتى يُحْذر ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم مُطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد فيه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في صيانتي وصيانتكم وفي سائر الأمور لا على غيره ﴿وَعَلَيْهِ﴾ جلت قدرته لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: المريدون للتوكل.

وما ذكر في بيان جهة خوف يعقوب عليه السلام من إصابة أولاده بأثر عين السوء هو الراجح، فإن العين حق كما صح عن رسول الله ﷺ بزيادة: «**ولو كان شيء سابق القدر سَبَقته العينُ، وإذا اسْتُغْسلتُم فاغْتَسلوا**». وقَد وَردَ أيضاً: «**إن العينَ لتدخِلُ الرجلَ القَبْرَ والجمل القِدْرَ**» وقد كان ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَيين رضي الله عنهما بقوله: «**أعيذكما بكلمات الله تعالى التامّة من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عينٍ لامَّةٍ**» وكان يقول: «**كان أبوكما يُعَوِّذ بهما إسماعيل وإسحاق** عليهما السلام». وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أَمَر العائِنَ بالوضوء، ومن أصيب بالاغتسال. وكيفية ذلك: أن يغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه، وداخل إزاره، أي: ما يلي جسده من الإزار، ويصب الغسالة على رأس المعين. وقد مر: وإذا استغسلتم فاغتسلوا. وهو خطاب للعائنين أي: إذا طلب منكم ما اعتيد من الغسل فافعلوا. والأمر للندب عند بعض. وقال الماوردي تبعاً لجماعة: للوجوب. فيجب على العائن أن يغسل ثم يعطي الغسالة للمعين، لأنه الذي يقتضيه ظاهر الأمر، ولأنه قد جرب ذلك وعلم

البرء به، ففيه تخليص من الهلاك كإطعام المضطر. وذكر أن ذلك أمر تَعبّدي. وفي «روح المعاني»: ولبعضهم في هذا المقام كلام لا بأس بالإطلاع عليه، وهو أن تأثير شيء في آخر إما روحاني أو جسماني، وكل منهما إما في روحاني أو جسماني، فالأنواع أربعة يندرج تحتها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنيرنجات ونحو ذلك...

أما النوع الأول: أعني تأثير النفساني في النفساني، فكتأثير الباري تعالى في النفوس الإنسانية بإفاضة العلوم والمعارف عليها. ويندرج في ذلك صنفان أحدهما ما يتعلق بالعلم الحقيقي بأن يُلقِيَ إلى النفس المستعدة لذلك كمال العلم من غير واسطة تعليم وتعلم حتى تحيط بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية، كما أُلقي إلى نبينا ﷺ علومُ الأولين والآخرين، مع أنه ﷺ ما كان يتلو من قبل كتاباً ولا يخطه بيمنه. وثانيهما: ما يتعلق بالتخيل القوي بأن يلقى إلى من كان مستعداً ما يَقوى به على تخيلات الأمور الماضية والإطلاع على المغيبات المستقبلة. والمناماتُ والإلهاماتُ داخلة في ذلك النوع، وقد يدخل تحته نوع من السحر وهو تأثير النفوس البشرية القوية التي فيها قوتا التخيل والوهم في نفوسٍ بشرية أخرى ضعيفة هاتان القوتان كنفوس البله والصبيان والعوام الذين لم تقو قوتهم العقلية، فتتخيل ما ليس بموجود في الخارج موجوداً فيه وما هو موجود فيه على ضد الحال الذي هو عليها.

وأما النوع الثاني: أعني تأثير النفساني في الجسماني، فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان من تغذيتها وإنمائها وقيامها وقعودها إلى غير ذلك. ومن هذا القبيل صنف من المعجزات وهو ما يتعلق بالقوة المحركة للنفس بأن تبلغ قوتها إلى حيث تتمكن من التصرف في العالم تمكنها من التصرف في بدنها كتدمير قوم بريح عاصفة، أو صاعقة، أو زلزلة أوطوفان. وربما يستعان فيه بالتضرع والإبتهال إلى الله تعالى كأن يستسقي للناس فيسقون ويدعو عليهم فيهلكون ولهم فينجون.

وأما النوع الثالث: وهو تأثير الجسماني في الجسماني، فكتأثير الأدوية والسموم في الأبدان، ويدخل فيه تأثير بعض المركبات في بعض بسبب خواص فيها، كجذب المغناطيس للحديد، واختطاف الكهرباء لِلتبن.

وأما النوع الرابع: وهو تأثير الجسماني في النفساني، فكتأثير الصور

المستحسنة أو المستقبحة في النفوس الإنسانية من استمالتها إليها، وتنفيرها عنها، وعد من ذلك تأثير أصناف الأغاني في بعض النفوس، وتأثير البيان في من له ذوق، كما يشير إليه قوله ﷺ: «**إنّ من البيان لسحراً**» انتهى باختصار على المقصود.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة من أبواب سور البلد ﴿مَا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من جانبه سبحانه وتعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ مما قضاه سبحانه ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ استثناء منقطع أي: ولكن حاجة في نفس يعقوب عليه السلام وهي شفقته ورحمته الأبوية وحِرازته من أن يُصابُوا بالعين قضاها وأظهرَها. وجوز الطيبي كونَ الاستثناء متصلاً على أنه من باب:

ولا عيب فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

فالمعنى ما أغنى عنهم ما وصاهم به أبوهم شيئاً إلا شفقته التي في نفسه، ومن الضروري أن شفقة الأب مع قدر الله تعالى كالهباء، فإذن ما أغناهم شيئاً أصلاً.

واعترض بأن الغرض لم يكن إلا دفع إصابة العين عنهم، وقد حصل بدخولهم متفرقين، فكيف يقال ما كان يغني عنهم من الله من شيء؟ وأجيب بأن المراد بدفع العين أن لا يمسهم سوءٌ مّا، وإنما خصت إصابة العين لظهورها. وقد أصابهم شر آخر لم يخطر بباله كجعل السقاية في رحل أخيه وإخزائهم في وجدانها فيه، واضطراب قلوبهم من ذلك، فلم يفد دفع ما خافه شيئاً. وحينئذٍ يدعي أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيداً لهم من حيث أنه دفع العين عنهم إلا أنهم لما أصابهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم... لم يعد ذلك فائدة فكأن دخولهم لم يفدهم شيئاً.

والحق إن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلاّ ما قدره الله، وأن الحذر لا يغني من القدر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان، ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون

جازماً بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى، ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله. فقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة من كل شيء سوى الله تعالى.

وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقي في بطن أمه فكذا هنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى؟ فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسألة القدر والجبر، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلا بد أن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته.

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي ﷺ تعالى في باب التوكل في الجزء الرابع من كتابه إحياء علوم الدين: اعلم أن الضرر قد يَعْرِض للخوف في نفسٍ أو مال، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً، أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المَسْبَعَة أو في مجاري السَّيل من الوادي، أو تحتَ الجِدار المائل والسقف المنكسر... فكل ذلك منهي عنه وصاحبُه قد عَرَض نفسه للهلاك بغير فائدة.

نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة. فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتُها إلى دفع الضرر نسبة الكيّ والرقية. فإن الكيّ والرقية قد يقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع. وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة. ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكيّ والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خَرَجوا إلى موضع بارد لم يَلبَسوا جبة، والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب. نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها، فيكاد يقرب من الكيّ بخلاف الجبة.

ولترك الأسباب الدافعة، وإن كانت مقطوعة، وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبرُ وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذا في أذى الناس. وأما الصبر على أذى الحيّات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين، وترتب الأسباب هنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج، ولا بأن يُعْقَل البعير، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً. ولذلك قال ﷺ للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله: «**أعْقِلها وتَوَكَّل**» وقال تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ والتحصن بالليل اختفاءٌ عن أعين الأعداء ونوعُ تَسببٍ واختفاءُ رسول الله ﷺ في الغار اختفاءٌ عن أعين الأعداء دفعاً للضرر، وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً كقتل الحية والعقرب، فإنه دافع قطعاً، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون. وقد بَيَّنا أن المظنون كالمقطوع وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه.

فإن قلت: فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك! فأقول: وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه. فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام، فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للإقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات، وليس ذلك شرطاً في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها. انتهى بنصه فاحفظه، فإنه نافع جداً.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل موافق للواقع ﴿لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه بالوحي والإلهام ونصب الأدلة على أن الحذر لا يغني من القدر ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من عدا من علمناه ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضمه

إليه وأسكنه معه ﴿قَالَ﴾ أي يوسف لبنيامين: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: في الزمان الماضي من الجور والغدر معنا. أو لا تحزن بما أنا سأعاملهم به، فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقت لِيُمكِن لي ردك بعد تسفيرك معهم، وهم يتكلمون بعض الكلام ويعملون بعض الأعمال فلا تهتم بهم.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: فلما وفى لهم الكيل وأعطاهم ما أرادوه كاملاً غير منقوص ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهي إناء يشرب به الملك وبه كان يكال للناس. وقيل: كانت تسقى بها الدواب، ويُكال بها للحبوب، وكانت من فضة مرصعة بالجواهر ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيث يدري أو لا يدري ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ بعد ارتحالهم من محل الاكتيال، ونادى بملء صوته: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ والعيرُ الإبل التي عليها الأحمال، سُميت بذلك لأنها تعير أي تذهب ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾؟ أي: قال إخوة يوسف عليه السلام: والحال إنهم أقبلوا بوجوههم وصدورهم على المؤذن وزملائه إقبالَ رجال أُمَناء تُرماءَ لا خائنين لئاماً وذلك لصفاء صدورهم إذ ذاك من غبار الغباوة والخيانة... ماذا تفقدون؟ أي: ما الذي ضيعتموه وتسعَوْنَ وراءه لتجدوه ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المنادي ومن معه ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: مكياله الذي يكتال به للناس ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ إلينا من

عند نفسه أو غيره ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ جَعالةً له في مقابلة ذلك ﴿وَأَنَا بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: وأنا به كفيل خاص يطلبه مني إذا جاء به. وذلك من كلام المنادي.

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التاء حرف قسم وأصل برأسه، وقيل: بدل من الباء، لأنه الأكثر استعمالاً فيه، وقيل: من الواو كما في تراثٍ وتقوى. أي: قالوا لهم في تبرئة أنفسهم من الموضوع: نقسم بالله أنا ما جئنا لمباشرة الخيانة التي هي بذرة الفساد في الأرض، ولا سيما السرقة التي تجمع إلى الخيانة دناءة الطبع ﴿وَمَا كُنَّا﴾ سابقاً من مبادىء نشوئنا ولا من ديدن آبائنا ﴿سَٰرِقِينَ﴾ متعودين على هذه الرذيلة ﴿قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: فما جزاء الكيل وأخذه على وجه الخيانة ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ أي: أَخْذُ مَن وجد في رَحْله واسترقاقه مدة حياته، وكان ذلك شريعة عندهم، فالحكم قد تم ببيان طرفيه، وأما قوله فهو جزاؤه جاء به لبيان أن ذلك الحكم حق، لأن نفس السارق دنيئة وحق الدنيء استرقاقه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بارتكاب السرقة ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: فبدأ المنادي بتفتيش أوعية الإخوة لأبي يوسف عليه السلام قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق حتى لا يتهم بأنه هو الذي أخفى الصواع فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكيد المشروع ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: صنعنا له ودبرنا لأجل الاستيلاء على أخيه يعني جاء بيان ذلك الحكم على ألسنة إخوته وسنة دينهم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان يوسف عليه السلام قابلاً ومستعداً ومستحقاً لأن يأخذ أخاه جزاءً لوجود الصواع في رحله على وجه السرقة في دين الملك وسلطان شريعته في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى لذلك بأن يوافق شريعة من وجد في رحله. فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً وحاصل المعنى: إن شريعة الملك لم تكن على أخذ السارق إلا إذا وافقته شريعة السارق، كما هنا فتتوافق الشريعتان على أخذه وإرقاقه. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أي: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك وشريعته، ولكن أخذ بشريعة يعقوب لمشيئة الله تعالى لأخذه.

﴿قَالُوٓا﴾ أي: إخوة يوسف عليه السلام بعد إخراج المنادي الصواع من رحل بنيامين ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ أي: بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: إن يسرق هذا فلا تعجب منه لأنه تَعَوَّدَ السرقة من أخيه فقد سرق أخٌ له من قبلُ أي: من قبل هذا الزمان يريدون بهذا الإسناد ما جرى عليه من جهة عمته. فقد روي أنها حضنته

فأحبته بحيث لا تطيق فراقه فطلبه يعقوب عليه السلام وكانت لها منطقة أبيها إسحاق فشدتها على جسد يوسف من تحت بعض ثيابها، ثم فقدتها فاكتشفوها على يوسف، وأخذته وبقي عندها إلى أن ماتت فرجع إلى بيت أبيه. واعترض على هذه الرواية بأن الدقة فيها تشهد بأنها كذبة مفتعلة، فإن أخت يعقوب الناشئة من بيت الكرامة والنبوة لا تكيد لأخذ ابن أخيها بتلك الطريقة. وكيف لا يدري يوسف بما شُدَّ على جسده حتى يحكي ذلك لوالديه؟ وكيف يسند السرقة إلى صبي ابن أربع أو أقل؟ وأي حاجة إلى هذا الافتعال مع أن عمته أمكنها أن تبقى في بيت أخيها يعقوب وتنظر إلى يوسف على العادة؟ فهذه الروايات لا عناية بها. وإنما أرادوا سرقة شيء طفيف جرت بينهم في الصبا، واتهموه اتهاماً ناشئاً من الحسد الواقع من بعضهم على بعض بلا تثبت. ويشهد بذلك تصدير الجملة بأل الشرطية الغالبة في الجمل المزعومة الموهومة، وقالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبلُ ﴿فـ﴾حصل في قلب يوسف عليه السلام من إسناد ذلك إليه حزازة نفسية ولكنه ﴿أَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ وأضمرها ﴿فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي: لم يظهرها ﴿لَهُمْ﴾ ولم يواجه إخوته بجواب مُخزٍ بل ﴿قَالَ﴾ أي في نفسه أو قال لهم ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ومنزلة في الطبع والخلق من هذا الولد لأنه فرد من أفراد عائلتكم، ومن غير الغالب أن يَتعوَّدَ وَلد في بيت رفيع صفةً رذيلة إلاَّ وهي عادة فيهم، أي: فإن كان هو سارقاً فأنتم أيضاً من السارقين ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منّا ومنكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتذكرونه أي يعلم علماً لا شبهة فيه أن الأمر ليس كما تذكرونه فليس هو سارقاً ولا أخوه فانتهى الأمر إلى هذه الدرجة، وانفضوا على حزن شديد مما جرى عليهم، وقرروا بعد المشاورة أن يأتوا إلى يوسف ويترجوا إطلاق سراحِ أخيهم وأخذ واحِد منهم كرهن عنده فَأتوْه.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا

لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني بعدما اعتقدوا أنه لا يفيد الكلام في حضرة يوسف إلا بالاسترحام والاستعطاف يا أيها العزيز ﴿إِنَّ لَهُۥٓ﴾ أي: لهذا الولد الباقي عندك وهو بنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ طاعِناً في السِنّ جليل القدر، لطيف القلب، قليلَ الدّم، إذا علم ببقاءه في بلد آخر كاد أن يتوقف قلبه ويموت ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدلاً عنه، ولسنا مثله في العلاقة القلبية ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فنرجو قبول رجائنا بإحسانك ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام في جوابهم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: نعوذ بالله من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ حَسَب شريعتكم وليس لنا ذلك.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا من إجابة يوسف عليه السلام لهم ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي: انفردوا واعتزلوا الناس حال كونهم نجياً بعضهم مع بعض ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي: رئيسهم وهو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: عهداً يوثق به وهو حلفهم بالله ليرجعون بنيامين إلى أبيه إلا أن يُحاط بهم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾! أي: ألم تعلموا جريمتكم وتفريطكم السابق في شأن يوسف واعتذاركم لأبيكم بالأكاذيب، فإذا أضفتم التهاون في شأن بنيامين إلى جريمتكم كاد أن يتقطر عرق الانفعال من الجبين وأنا لا أتحمل هذا الحال ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بخلاص أخي بنيامين بسبب من الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلا بما فيه الحكمة ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟﴾ له: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ مكيال الملك ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته حيث شاهدنا إخراج الصُواع من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وما كنا مطلعين على الأمر الغائب عنا، وهو أنه سيسرق عندما أعطيناك الميثاق على الإتيان به إليك ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: واسأل أصحاب العير التي توجهنا معهم إلى مصر أو أقبلنا معهم إليك عند الرجوع من مصر ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ﴾ أبوهم يعقوب عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ حين قلتم إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل، وإلاَّ فملك مصر من أين يدري أن العائلة قد وقع فيها ما وقع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل لا يكون فيه شكوى إلى الناس أو صبر جميل وهو ما لا شكاية فيه إلا إلى الله أجمل من الصبر الذي فيه الشكاية إلى العباد ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي: بيوسف وأخيه بنيامين ومن معهما ﴿جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يبتلي ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ جملة مستأنفة بيانٌ لِما عَرض على يعقوب عليه السلام بعد وصول أولاده إليه وإلقاء هذا الخبر المحزن عليه. فيقول وتولى وأعرض عنهم أي: عن أولاده الواصلين الموصلين إليه هذه الأحزانَ واختلى، لأن الإنسان إذا رَابَهُ ما خَرج عَن طاقته أَحَبَّ أن لا يراه الناس على تلك الحال، وينفرد بنفسه حتى يقضي ما عنده من البكاء والحزن، ويتبرد ما عنده من اللهيب على فراق الحبيب. وقال منادياً الأسى والأسفَ من أي: جانب كان ومن أي طرف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ﴾ أي يا أسفي تعالَ إلى كَنَفي فهذا أوانُكَ وأوانُ احتضانك، ولم تَرَ وَقتاً مثل هذا الوقت لظهورك، ولا أحَداً من إخوانك مثلي، أناديك ﴿عَلَىٰ﴾ فراق ﴿يُوسُفَ﴾ فإنه كان يؤسِفني فراقُه واشتياقه، وأضيف إلى ذلك فراق شقيقه بنيامين، ولم يبق لي مؤنس إلا رحمة أرحم الراحمين ﴿و﴾ قد ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ لأن الحزن يوجب فوران القلب وفيضان الماء الحار إلى الدماغ وسيلانه إلى العيون وتمحق سوادها وتقلبه إلى البياض. والفاء في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لعطف السبب على المسبب، أي: وعلة ما جرى عليه أنه كان كظيماً مملوء الصدر من الحزن، وصار ذلك سبباً لفوران القلب، وفيضان العبرات الحارة على العيون، وهي من أسباب انمحاق سوادها وظهور بياضها هذا.

ولا يرد أن هذه الحال تنافي مقام النبوة والرسالة واستغراق القلب في

الحضور والنور؛ لأن المنافي لذلك المقام هو القيام بما لا ينبغي من التشكي عند الأنام وإظهار ما يخالف الأدب والنظام، وإلاّ فالإنسان ما دام إنساناً يتعذب من احتراق الجسد، ولهيب القلب والكبد فإن الغريزة غريزة والألفة بالأولاد والأحباب عزيزة، ألا تَرون أن سيد الرسل ﷺ لما توفي ولده إبراهيم بكى عليه وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿قَالُوا﴾ أي: أولاده لما ظهر حزنه وارتعاده: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفتأ تذكره ولا تزال على ما أنت عليه حتى تكون حرضاً، أي مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تكون من الهالكين فعلاً. والحرض كحسن صفة مشبهة وهو من أذابه هم أو مرض وجعله مهزولاً نحيفاً. ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام في جواب هذا الملام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأعتزل الأنام وأتوجه إلى العلام كي يوفقني على الثبات والاستقامة على طريق الآباء الكرام ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأرجو من رحمته الاستقامة ومن كرمه السلامة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ روي أنه رأى رؤيا وبشر في المنام بأن يوسف حي مرزوق وأنه سيراه مع أخيه فانتبه واستبشر برؤياه هذه. وبينما هو كذلك إذ تهيأ أولاده لسفر آخر إلى مصر للميرة فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾ لمهمتكم ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وتعرفوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ واطلبوا من أهل الأمانة والخبرة وجودهما

وأحوالهما ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمته وفَرَجِهِ، فإن انتظار الفرج من الله عبادة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وهم إذ يئسوا يئسوا من رحمته بصفة أنه إلٰه واحد لا شريك له، فالكافر إما يكفر بوجوده أو بوجوب وجوده أو بوحدته وكرمه وجوده. قال ابن عباس ﷺ: «**إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء**». وفي حقيقة الأمر إن الكافر على طرف النقيض من المؤمن فلا يرجوه في البلاء ولا يحمده في الرخاء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف عليه السلام بعدما وصلت قافلتهم إلى مصر وقد جاؤوا للطعام ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمور الاقتصاد في البلد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: الهزال من الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: بمتاع مدفوع مطرود عند التجار غير مرغوب فيه. اسم مفعول من باب الإفعال وفعله أزجاهُ أي: دَفعه. قيل: كان من متاع الأعراب صوفاً وسمناً ونحوهما ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أتممه إتماماً لائقاً بمقامك لا بمتاعنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بما تزودنا به زائداً على الاستحقاق كما هو شأن الأمراء من ذوي الأخلاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على بني الإنسان بموائد الكرم والإحسان.

فلما سمع منه الكلام المملوء من الاستعطاف والاسترحام امتلأ صدره من نور خلق الشفقة والرحمة زائداً على ما عنده من غريزة العطف وإفاضة النعمة فعزم على إظهار العلاقة الأخوية والشفقة النسبية، و﴿قَالَ﴾ لهم مؤنباً ولائماً ومصرحاً بجريمتهم ومعتذراً: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما بيوسف فبإلقائه في غيابة الجب وتعريضه لمتاعب وأذى في مستقبل حاله، وأما بأخيه فبتفريقه عنه، وبهما معاً بتفريقهما من الوالدين، وذلك ﴿إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾؟ بقبح فعالكم وسوء جزائها في مآلكم. فلما صرح بذلك وأوضح ما هنالك، علموا أنه يوسف فاستفهموا استفهام تقرير: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ أي: نعم، أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وَهَـٰذَآ أَخِى﴾ بنيامين بن يعقوب ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بإنجائنا من البلايا، وإبعادنا عن الخطايا، وبتقريرنا على الفضائل والمزايا، وقرب كُلاً منا عن الآخر بَعْدَ أن بعد كلامنا عن الآخر ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني إن من يتق الله في جميع أحواله، ويصبر في آلامه في نفسه وماله، فإن الله لا يضيع أجره لأنه من أهل الإحسان، والله لا يضيع أجر المحسنين ﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوته: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ بحسن

الصورة والسيرة وفضلك علينا بالمواهب الجزيلة والعطايا الجميلة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: والحق إنا كنا من مرتكبي الخطأ والذنب متعمدين له. ولما أقروا بذنوبهم فاضت نفس يوسف عليه السلام لعفوهم و﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ ولا تجريح ولا تقريع ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ من جانبنا فقد عفونا عنكم و﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من التبعات الثابتة من حقوقنا، وأما من جانب الله تعالى فالكرم أوسع ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فنرجو أن يغفر الله لكم ذلك أيضاً.

ثم قال لهم بعد هذه المُلاطفات: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يصير بصيراً، وإنما علم ذلك بالوحي أو الإلهام، وكلٌّ من مميزات الكرام، أو ألقوه على وجهه فيعاد له نور عينيه ويأتي إلى مصر فيراني بعينيه فيعرفني كما كنت لديه ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتم ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾ من النساء والذراري والأولاد والبنات والخدام والخادمات وأولي العلاقات والقرابات... ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا تتركوا منهم أحداً. وبهذه المحاورات اللطيفة قد زال عن قلوبهم غبار الأكدار وامتلأت من المسرة والاستبشار، واستعدوا للرجوع إلى أرض كنعان بنور ولمعان.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: لما خرجت العير من عريش مصر قاصدة أرض كنعان مكان يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ﴾ أي: لأشم رائحته بإشمام الله لشامتي لإحسانه إلي وكرامتي ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لولا أن تنسبوني إلى الكذب لعلمتم بما قلته لكم فالجواب محذوف بقرينة ما تقدم ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي انحرافك عن الرأي المصيب كما كنت سابقاً. وهذا، والعياذ بالله، نشأ من سوء تفكيرهم وقلة عقلهم وتدبيرهم، وإلا فلا معنى لأن يختار الله إنساناً ويجعله مظهراً لوحيه ورسالته ويخوله إرشاد الأنام إلى أصول الأحكام وفروعه على مر الأيام، ومع ذلك يكون

ذلك الرسول ضعيف العقل سخيف الرأي عديم البصيرة، ومع الأسف إن الناس منهمكون في الشهوات ولهم مزيد ألفة بالماديات فلا يعترفون بالمعنويات، ولا سيما إذا كان صاحبها ممن لهم معه ألفة ومجاورة مزيلة للمهابة والاحتشام، وهذه العلة سارية في أغلب الناس، فعقولهم تابعة لحواسهم، وهذا لعوام الناس لا لخواصهم ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ مستعجلاً قدام العير ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ معجزة لصاحبه يوسف عليه السلام إن لم تشترط بالتحدي وإلا فكرامة له. وروي أنه أخذه وشمه فجعله على وجهه وعينيه وارتد بصيراً ﴿قَالَ﴾ يعقوب بعدَ وجدان هذه المعجزة الكبيرة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟.

فلما تبين الأمر وانشرح الصدر وظهر القدر ﴿قَالُوا۟﴾ أي: إخوة يوسف عليه السلام معتذرين إلى الوالد المحبوب ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ بما فعلنا مع يوسف وأخيه ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ متعمدين للذنوب ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ في الكلام إيجاز والتقدير: فرحل يعقوب عليه السلام بأهله من أرض كنعان إلى مصر، وساروا حتى أتوا يُوسف، فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي: ضمهما إليه واعتنقهما. والمراد بالأبوين أبوه وخالته ليا لوفاة أم يوسف سابقاً، ونزلت منزلة الأم لكونها زوجة أبيه وخالته، ولأنها ربته قبل ما جرى عليه، فكانت كأمه.

وفي التوراة أنه عليه السلام أعطى لكل من أخوته خلعة، وأعطى بنيامين ثلاثمائة

درهم وخمس خِلعٍ، وبعث لأبيه بعشرة حمير موقرة بالتحف وبعشرة أخرى موقرة برّاً وطعاماً. انتهى.

وما هو المعقول المعتقد في الموضوع أنه قد أكرم أهل بيته بما يكون سبباً لإجلالهم عند ورودهم مصر من شتى الجهات. ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ أي: تمكنوا منها واستقروا فيها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ والتعليق بالمشيئة للبركة إذ بعد الدخول ليس للتعليق قبول. وقيل: إن الكلام فيه إيجاز حذف. والأصل إن يوسف قد خرج من مصر مع أتباعه وحشمه مستقبلين لهم خارجه، فلما دخلوا على يوسف هناك آوى إليه أبويه في الخيمة المضروبة لهم، وبعد فترة الراحة ومراسيم الاستقبال طلب منهم دخول البلد وقال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل مكروه مادي أو معنوي، فهناك لقاءان ودخولان، أحدهما خارج مصر، والثاني: لقاء ودخول في بلدة مصر والله أعلم.

﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿أَبَوَيْهِ﴾ عند نزولهم داره بمصر ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله بإخوته ﴿وَخَرُّوا۟﴾ أي: أبواه وإخوته ﴿لَهُۥ﴾ ليوسف ﴿سُجَّدًا﴾ أي: على الجباه سجود تشريف كما كان عادة الواردين على الملك ووزراءه في ذلك العهد تحية وإكراماً مثل القيام وتقبيل اليد والمصافحة ونحوها في عصرنا. وقيل: المراد بالسجود إنحناءٌ كالركوع دُون وضع الجبهة. وقيل: التواضع والكل خلاف الظاهر. ويدفع كل ما يورد خيالاً أن ذلك كان من التحية الاعتيادية عند لقاء الكبار. و﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: مطابقاً للواقع، ولم يقتصر الباري عز وشأنه على ذلك فقط بل عاملني بأشياء أخرى ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ﴾ الله ﴿بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ الذي طلبته بنفسي بدل ما أرادته مني نسوة المدينة، وجَعَلَني متمكناً في الأرض معروفاً بالقدر والمقام بَعد أن كنت غلاماً مبيعاً في سوق الأنام ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: بادية كنعان وضمكم إليّ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفْسَدَ ما بيني وبينهم ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ في التدبير ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ فيجعل الصعب سهلاً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأسباب ما أراد حصوله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقها حتى يوصل إلى كل شخص محْصُولَه.

روي أن سيدنا يوسف طاف بأبيه في خزائنه وأراه ما عنده من الإمكانيات، فقال: يا بني أنت لما وصلت إلى هذا المقام ما منعك عن إرسال كتاب إليّ تخبرني

ببقائك ومقامك حتى نصل إلى لقائك؟ فقال: أمرني جبريل عليه السلام بالتوقف عن ذلك لحكمة هنالك، وهي نيل كل منا جزاء الفراق في تلك المدة. وقد كانت المدة أربعين سنة. وقيل: خمساً وثلاثين. وقيل: ثماني عشرة سنة، والله أعلم.

ثم استقر أبواه وإخوته وأتباعهم في مصر وهو على مقامه حسب مرامه إلى ما شاء الله تعالى من الزمان. ولما قَرُبَ أجَلُه دعا ربَّه وقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ ما أتملك به زمام أمري، وأتنعم به حَسَب قدري، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضاً من ذلك من تعابير الرؤى على اختلافها، وفهم دقائق الأمور على أصنافها، ومن أسرار الكتب الإلٰهية الدائرة بين أهل النبوة وأشرافها ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا خالقهما ومبدعهما في الطول والعرض ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ ومتولي أموري ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي﴾ واقبض روحي ﴿مُسْلِمًا﴾ مطيعاً لك ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عبادك، وعاملني بما يليق بكرمك وإحسانك. وأورد على ذلك أن طلب الموت لا يستحب لأهل الخير بدون ضرورة، وأجيب بأجوبة:

الأول: أنه أوحي إليه أنه اقترب أجله فطلب من الله تعالى أن يقبض ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي، فالمشرك المصدق بوجود الصانع روحه على ذلك الوجه الجميل.

والثاني: أن طلبه عند شدة اشتياق لقاء الباري غير مكروه بل هو حسن ممدوح.

والثالث: أنه كلما استمر الزمان عليه بين المصريين أتاه ما لا يعجبه من اضطراب الناس الطغاة، وإلقاءِ الشكوك على الأنام كما ذكر الباري تعالى بقوله في سورة الغافر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ الآية... فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه الشريفة بأمان وتسليم حتى يخلص منهم ويلقى وجه ربه الكريم.

روي أنه عليه السلام لم يمر عليه أسبوع حتى توفاه الله تعالى. وروى المؤرخون أن يعقوب عليه السلام عاش مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي وأوصى أن يُدْفَن بالشام إلى جَنب أبيه، فذهب به يوسف عليه السلام ودفنه ثمة. وأن يوسف عليه السلام عاش مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من امرأة العزيز أفرائيم وهو جد يوشع عليه السلام، وميشا،

ورحمة زوجة أيوب عليه السلام. ولما توفي يوسف جعلوا جنازته في صندوق المَرْمَرِ ودفنوه في مصر. ثم أخرجه موسى عليه السلام ونقله إلى مدفن آبائه ودفنه هناك. والحمد لله الذي لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه، وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قصه الله تعالى من أنباء يوسف عليه السلام. والكاف للخطاب مع الرسول محمد ﷺ، أي: ذلك المنزل عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ خبره وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: إذ قرروا مطلوبهم وهو جعله في غيابة الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أباهم ويتوسلون لإبعاد يوسف عليه السلام، فبيان تلك الأنباء الغيبية دليل قاطع على رسالتك، وإن تلك الأنباء جاءتك بالوحي ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على أن يؤمنوا بالله ورسوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتمردهم وعنادهم وغلبة الشهوات النفسية على أنفسهم ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ تأخذه منهم كما هو عادة الأحبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو كالعلة لما قبله، لأن الوعظ والتذكير أمر عام ليس مختصاً بأحد أي واجب كل إنسان عاقل فاهم أن يَتعظ ويرشد بقدر الإمكان، وواجبه أيضاً أن يتعظ ويسترشد كذلك، فلا معنى لأخذ الأجرة على مثل ذلك لأنه كالإرشاد إلى طريق عام للعابرين، أو لأن هذه الذكرى بالنسبة إلى الرسول تبليغ للوحي والتبليغ من واجباته الخاصة، وهي لا تؤخذ الأجرة عليها إلا إذا أفضى ترك الأجرة إلى إهمال ذلك الواجب، كأن يكون المبلغ لا يعيش بدونها ولا يمكنه الوفاء بواجبه.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يعني وكثير من الآيات الدالة على وجود الباري ووحدته وانفراده بالخلق والإبداع كائنة تلك الآيات في السماوات من: الكواكب وحركتها، وأضوائها وسرعتها وبطئها في الحركة، ودلالتها على المواسم والفصول، والأرض من الصحارى القاحلة، والجبال الموحشة الهائلة، وما فيها من المعادن والنبات والحيوان، على أنواع كثيرة وأصناف وفيرة، مع اختلاف الألوان والأشكال والأصوات والنبرات، ومن البحار المائجة، والأسماك الهائجة، وأصناف الأصداف، والمنافع المستخرجة منها، يمرون أي: الكفار المشركون عليها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ وعن التدبر فيها وفي آثارها النافعة الدالة على الله تعالى: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كبصير يمرُّ على الجواهر فيتعامى، وسَميع يسمع الحقائق فيتصامم. فإذا كان الأمر كذلك تبين أنهم بعيدون عن الإيمان لاَ يؤمنون ﴿و﴾ إن آمنوا فـ﴿ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ بوجوده ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ به في عبادته وطاعته ما لا يستحق فضلاً، وليس لتقديره أهلاً. وهل يستوي الواجب والممكن والصانع والمصنوع والقوي والضعيف؟ فجملة ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ حال وكلمة إلا للاستثناء من أعم الأحوال. أي: لا يؤمنون على شيء من الأحوال إلا على حال الإشراك بالله المتعال. وهذا الإيمان المقارن للإشراك هو الإيمان اللغوي المستعمل بمعنى التصديق المجرد بشيء ما. وأما الإيمان في عرف الشرع الشريف الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ من الله وهو الإيمان بالله تعالى على ميزان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ وعلى منهاج ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وعلى وزان ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وعلى أساس تبليغ محمد ﷺ لذلك مع الإيمان برسالته وجلالته، فيشهد المؤمن ويقول بقلب سليم ولسان فصيح: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.. فهو الإيمان في عرف الشرع ولا يمكن مقارنته مع الإشراك بأي وجه من الوجوه.

قال السعد في: «شرح العقائد النسفية»: وإذا عرفت حقيقة معنى التصديق فاعلم أن الإيمان في الشرع هو التصديق بما جاء به النبي من عند الله تعالى أي: تصديق النبي ﷺ بالقلب في جميع ما علم بالضرورة مجيئه به من عند الله تعالى إجمالاً، وأنه كاف في الخروج عن عهدة الإيمان، ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي، فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لا يكون مؤمناً إلا بحسب

اللغة دون الشرع لإخلاله بالتوحيد، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ انتهى.

وعلاوةً على ذلك يعتبر في الإيمان الشرعي الإقرار بكلمتي الشهادة المصرحتين بتوحيد الباري تعالى ورسالة رسوله محمد ﷺ. والتوحيد هو التوحيد في وجوب وجوده تعالى، وفي أنه خالق، وفي أنه هو المعبود، ألا لَه الخلق والأمر. والآية الكريمة نزلت في أهل مكة آمنوا بالله وأشركوا به، كانوا يقولون في التلبية: لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكُه وما مَلك! وعن مجاهد: أن كفار العرب مطلقاً أقروا بالخالق الرازق المميت، وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام. وقيل غير ذلك. والحق أنه وإن كان هناك مورد خاص لكنه يشمل كل كافر له إيمان بالله ويشرك به غيره في وجوب الوجود، أو في الخلق، أو في استحقاق العبادة، فإن أركان التوحيد توحيد في الذات، وتوحيد في الخلق، وتوحيد في العبادة.

ثم رجع الباري سبحانه يهدد المشركين بقوله الكريم: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم كالإحتراق بالنار، والغرق في البحار، أو الإبادة بأيدي الأشرار، أو الحرب المدمرة، أو العلاء الشاملة للديار والعياذ بالله منها ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة، كما في مجيء زلزلة الساعة عند غفلة الناس عنها، فمنهم من ينظف حوض مائه، ومنهم من يَحْلب حلائبه، ومنهم من يزرع زرعه ولا يقدرون على إتمام العمل إلا والدنيا تزلزلت! أو مجيء أمر مباغت على قوم مخصوص كالبركان والعواصف والقواصف السماوية وغيرها.... والعياذ بالله وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بما يداهمهم من الطامة الكبرى أو الصغرى... ولا ملجأ من الله إلا إليه رب العالمين.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لكل من يسمع الكلام: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: إرشاد الأنام إلى الإسلام سبيلي وطريق سلوكي في حياتي ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره جميع الأنام إنساً وجناً إلى الإيمان والإسلام، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وإلى شهادة ثابتة نابتة من القلب شهادة بتوحيد الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفة وفعلاً، وشهادة برسالة النبي الأمي العربي القرشي

الهاشمي محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم إلى كافة الثقلين. حال كوني ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ والبيرة إدراكٌ بانتباه بلا شبهة واشتباه، يميز بين الحق والباطل في العاجل والآجل. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأُسَبِّحُه وأنزهه تنزيهاً من كل ما لا يناسب كمال ذاته وجمال صفاته ﴿وَمَآ أَنَا﴾ ولا من يتبعني بالبصيرة ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقول المشركين ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ ويستفاد منها حصر النبوة والرسالة في الرجال أي إن إرسالَ النساء أو الملائكة لم يكن من سنتنا في إرشاد المكلفين، ولم نتعود أيضاً إرسالَ كبارِ رجال الأمة من الملوك والجبابرة، وإنما تعودنا على أن أرْسَلنا قبلك رجالاً خيرةً منتخبة ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ فالذين آمَنُوا بهم أمنوا مِن عذاب الدنيا والآخرة، والذين كفروا بهم نالوا شقاءهم فيهما ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الكفر والكبائر، لا دار الدنيا فلا خير فيها، أو دار الآخرة أحسن من دار الدنيا لهم، وإن كان فيها محاسن ولذات مباحة أيضاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الحقائق حتى تميزوا بين خيرها وشرها. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف معلوم من المقام، تقدير الكلام فاستمر الرسل في أداء الواجب والكفار في التمرد على أهل المراتب، حتى إذا استيأس الرسل من النصر عليهم في الدنيا أو من إيمانهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ أي: كذبتهم أنفسهم قبل الاقتحام في الآلام بالوعد بالانتصار على الكفار ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: مَنْ شئنا إنجاءَهم يعني الرسل وأتباعهم، وأهلك من أردنا إهلاكه

وهم الكفار المتمردون، ولم تنفعهم محاولاتهم لرد العذاب والبأس. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: الرسل ومنها قصة يوسف عليه السلام ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: لذوي العقول الصافية عن الأقذار المانعة عن الاعتبار ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن المنزل الحاكي عن الماضي والمستقبل ﴿حَدِيثًا﴾ عادياً ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ ويختلق ﴿وَلَـٰكِن﴾ كان كلاماً منزلاً من الله إلى الرسول محترماً لديه و﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتاب ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب النازلة على عيسى وموسى ومن قبلهما ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من مهمات ما يسأل عنه ويجاب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً كاملاً لائقاً بالذين ينقادون للحق ويطيعون رب العالمين.

فهرس المحتويات

تتمة سورة الأعراف ٥
سورة الأنفال ٥٦
سورة التوبة ٩١
سورة يونس عليه السلام ١٥٦
سورة هود ١٩٧
سورة يوسف ٢٤٢